حتى أغسطس لم يعد مثلما كان

للكاتبة / سالي سامي

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : حتي أغسطس لم يعد مثلما كان

المؤلف : سالى سامى

تدقيق لغوي : هدير محمود

تصميم الغلاف : بلال محمد

رقم ايداع: 2019 / 27076

ترقيم دولي: 978-977-85633-2-0

دار مسار للنشر و التوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ش - أبو الدهب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

سالى سامى

حتى أغسطس لم يعد مثلما كان

مسار
للنشر و التوزيع
Massar publishing & Distribution

الإهداء

إهداء إلي من أضاف لي شيئاً جديداً غيّر حياتي في كل مرة أتي فيها . . سواءً كان شيئاً مفرحاً أو مؤلماً . . فجعلني أنتظر مجيئه من كل عام بفارغ الصبر لأري ما الجديد . .
إهداء إلي رقم ثمانية الذي يضيف دوماً البصمة لأعوامي . .
إلي شهر أغسطس الذي لم يعد مثلما كان أبداً . . وحتى آخر أغسطس في هذه الدنيا .

- الغلاف لوحة بفرشاة الفنانة - سارة فاضل -

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كل البلدان والقرى المذكورة في الرواية حقيقية الوجود، بحثتُ عنها مِرارًا وتكرارًا بحثًا ذاتيًا حتى تظهر بكامل بديعها - وإن كان القلم ظالمًا لوصف بديع الخالق سبحانه - حتى وقعت في حُبها وسأعمل على زيارتها يومًا ما إن شاء الله. أما عن الشخصيات فهي من وحي خيالي وإن اقتربت من الواقع

الكاتبة / سالي سامي

مع سطوع أول شعاع للشمس . . ها هي من جديد ترتدي أجمل ما لديها من ثياب ، حُلي ، تفرد شعرها وكأنما تفرد كل طيات روتينها الحزين ، تضع إشراقها من جديد استعداداً للقائه، تنوره قصيرة قليلاً بنية اللون مزخرفة بالورود الصغيرة ، ذلك اللون الذي يبعث الدفء في نفسها ، لتكمل طلتها بذلك القميص الأحمر اللون الخالي من أي رسومات ، ذلك اللون حيث تتجدد من خلاله أنوثتها وتنبعث في عروقها الحيوية من جديد ، حذائها ذو الكعب العالي ، وكأنها تصعد حيث ثقتها الكاملة ، حيث روحها و شهيقها .

تمضي . . تقتطع الخطوات من مسار حياتها ، رافعة رأسها مفرودة المنكبين ، ابتسامتها تشع أملاً يكفي لرسم دروباً جديدة لم تدهسها ابتلاءات القدر .

تجلس . . حيث تعهدت دائما ، تأمل أن تختلف تلك المرة عما مضت ، تمر الدقائق وليست بدقائق ، لتصبح الساعة تليها ساعة، وكأنها أعوام وأعوام .

تحاول إقناع نفسها بتلك الأمور التي ربما تتقبلها روحها ، فتفشل

مرة أخري .
تنهض . . علي فترات ، وكأنما ذلك المقعد قد أخذ من شبابها قِسطاً ، تمضي الخطوة كأنها ميلاً ، تتنفس وكأنها تمتلك رئة واحدة فقط ، نصف شهيق و زفير لا يخرج كاملاً ، وإنما يترك بداخلها شوائب لا حصر لها .
تعود . . كما تعود الشمس أدراجها متعبة بعد نهارِ طويلِ، يذهب إشراقها خلف دمع اختطف من رونقها بلا رحمة ، ليست مهملة الثياب ، فلم يتحرك منها شيء حتى ما يكلفها عناء المصافحة ، وإنما مهملة الشعور و الفكر .
تتخلص من ثيابها . . تعود إلي واقعها الأول ، النصف من كل شيء ، إلا الوحدة الكاملة .
تغمض عينيها . . تتجول في ذكرياتها ، علّها تجد ذكري معه مخبأة هنا أو هناك . .
علها تجد لقاءً في الذاكرة . .

ظلت هكذا لمدة أربعة أشهر ، منذ ذلك الحين ، عندما ألقاه القدر في طريقها ليغير لها مجري حياتها ، ما عاد الصباح صباح ولا المساء مساء ، ذلك الغريب الذي لا تعلم عنه شيئا الآن سوي أنه خارج البلاد العربية . تخاف نسيان ملامحه ، فلا تملك له إلا صورة في ذاكرتها ، صوته الدافئ الذي كانت تتلذذ بسماعه في

أحاديثهما ، كذلك ابتساماته وضحكاته وغضبه الذين فازت بهم جميعاً في كل لقاء معه ، بنيته القوية التي لا يمكن نسيانها ، تلك الجنة التي عرفتها معه وحده ، شهراً كاملاً . . إنه أغسطس الماضي .

جرت عادتها أن تفضي لمذكراتها ما تعجز عن قصصه لأحد ، إلا أنها قد أفضت إليه بعض من أسرارها في بعض اللقاءات بينهما ولا تعلم هل هي نادمة علي ذلك أم لا ، شعور ما بداخلها يحدثها بعدم الندم ، لأنه كان من الأفضل لها وله أن يعرف بتلك الأسرار، وشعور آخر يدفعها أحياناً لقتل نفسها من جراء الإفصاح عنها .

أكتبُ إليكَ . .
ساعاتٍ قليلة فقط تفصلنا عن العام الجديد ، عام نجهل فيه أي الأحباب سنفارق ، وأي الغرباء سنلقي ، ربما تمسكت بهذا العام في أشهره الأخيرة ولا أريده أن ينقضي ، لا أريد أن تمضي السنوات علي هذه الذكري التي جمعتني بك ، وعلي النقيض من ذلك ، أريد أن تنقضي الأشهر الجديدة لأعود إلي أغسطس مرة أخري ، لعلي أسترجع لقاءً واحداً مما مضي .
مذ أن قابلتك وكل شيء قد تغير ، أصبحت أري الكون بعينٍ جديدة ، وكأني أتنفس من الهواء نصيبي ونصيب غيري أيضاً ،

أشبعتني قلباً وقالباً ، فلم أعرف الحب إلا بك ، ولا أرغب في أن أعيشه مع من سواك . . تماماً كما وعدتك .

إن أفضل ما سأختتم به الدقائق الأخيرة من عامي هذا ، أن أغمض عيناي وأتذكر كل شيء معك ، لقائي بك ، ذلك الحدث الذي جعلني أقدر كثيراً أن الصدفة خير من ألف ميعاد ، وأن التضرع لله كان أفضل وسيلة للقائي بك ، فكنت ملاذي وملجأي ونجاتي مما كنت فيه وما كنت عليه ، لم أعد أتحدث في مذكراتي عن نفسي فقط ، وإنما عنك أيضاً . .

إن أرقي أمنية سأتمناها في بداية عامي الجديد ،هي أن ألقاك مجدداً ، مازلت أتذكر كلماتك وكأن صداها يتردد حولي » فلندع ما يحدث . . يحدث » . .

لا أعلم متى سيكون لقاءنا القادم ، ولكنِ أنتظره ، مازال لديّ ذلك الأمل الذي زرعته بداخلي ، وسأعمل علي إبقاءه حياً مهما كلفني الأمر . .

من لم تعرف للنهار معني بعد رحيلك . .

نهار

(الأول من أغسطس لعام ٢٠١٧ م)

-حليم : عمران . . عمران ، أفق أيها الكسول ، سيفوتنا شروق الشمس .

يتمتم بكلمات غير مفهومة ثم يفصح : دعني أنم قليلاً يا حليم ، مازال أمامنا ثلاثون شروقاً غير هذا .

-حليم : ماذا ؟ أفق . . أفق ، أعلم لن نلحق أي منها طالما أنك معي ، هل تريدنا أن نخذل أستاذنا يا رجل ؟! ، هيا و إلا أغرقتك بالماء البارد .

عمران : يتمتم مرة أخري ويتقلب ببطء . . حسناً أذهب و سألحق بك .

-حليم في نبرة الغيظ : لن ينفع معك شيء من اللين ، أين الماء ! .

رفع عمران غطائه مسرعاً حيث ازدادت نبرات صوته وضوحاً قائلاً : ماذا دهاك يا رجل ؟! . . إنه يومنا الأول في »لبنان« ، ألا يمكنك حتى الانتظار للغد ؟! .

-حليم : لو انتظرت للغد ستقول لي بعد غد وهكذا ولن نحصد شيئاً من سفرنا هذا ، وهل أعرفك لأول مرة يا كسول .

ابتسم عمران وكأنه يستفزه قائلاً : نعم أنا كسول ، دعني أنم قليلاً أرجوك ، ثم أخذ يتثاءب مرة أخري . .
لم يكد يكمل تثاؤبه حتى فاجأه حليم بالماء البارد ، فنهض مسرعا ليركض وراءه ، كعادتهما طوال سبع سنوات ، وكأنها تمارين الصباح لكل منهما .

عرف عمران وحليم بعضهما البعض في عامهما الجامعي الأول حيث كانا يسكنان معاً في سكن خاص بالطلاب وذلك لمدة أربعة سنوات ، درسا في كلية «التجارة» جامعة الإسكندرية ، لم تجمعهما الدراسة فقط وإنما الموهبة أيضاً ، كلاهما من محبي الفن علي اختلاف ألوانه وخاصة فن التصوير الفوتوغرافي الذي برع فيه «حليم» و فن الرسم الذي برع فيه «عمران» .
أما عن عمران . . فلم يكن له بالاً للعمل في البنوك أو تحت الضغوط والروتين المستمر ، فهو شخص مرح يملك روح الدعابة ، متفائل ، تسيطر عليه الورقة والألوان ، كما أنه يتمتع بحدس المحققين أحياناً ومفتعل للمشاكل كثيراً ، يتمتع بالقوام الرياضي الذي تحبه أي فتاة بمجرد رؤيته لكنه لا يُلقِ بالاً للفتيات كما يفعلن هن ، محب للرياضة كثيراً خاصة الركض السريع ، رغم أنه كسول بعض الشيء كما يلقبه «حليم» ، فلم يكن إيقاظه بالأمر السهل أبداً ، ولكن حينما يستفيق وكأنك تري أمامك شعلة من

الأمل في سباق الحياة . .
علي عكس »حليم« . . شخص نوع ما حازم في عمله ، متطلع للمستقبل ونشيط ، كثير التنقل وراء المنظر البديع الخلاب ، قد يتخلي عن شيء باهظ الثمن في سبيل التقاط صورة أعجبته ، هادئ ورزين ، يحب التأمل كثيراً فقد ينسي النهار والليل حينما يسكن إلي مكان هادئ جميل ، مُحِب للسباحة كثيراً ، كما أنه وسيم ذو ملامح هادئة ، صبور إلي أقصي الحدود ، وبالطبع شخص بهذه الصفات يعشق ممارسة الصيد . يتفق مع عمران في أنه لا يحب الجلوس مع الدفاتر ومراجعة العمليات المحاسبية التي في نظر كل منهما لا تطور شيئاً من شخصياتهما لا علي المدى القريب ولا البعيد كذلك ، فاكتشاف العالم كان من أهم الأسباب التي جمعت بينهما كصديقين لسنوات طوال . ثلاث سنواتِ أخري من العيش في سكنٍ واحدٍ ومن العمل معاً ومن الطرد من العمل أيضاً ، وكذلك في تطوير الموهبة والبحث عن مختلف الفنون في مختلف الأماكن والبلدان . قد تعرفا علي الأستاذ »مختار الصاوي« الذي كان راعياً رسمياً لأحد المهرجانات المنظمة لاستضافة والتقاط المواهب الشابة المتميزة في مختلف الفنون ، ومن يومهما هذا وهما يعملان معه وتحت إشرافه .

*****

(قبل بداية أغسطس بأيام قليلة)
في مكتب الأستاذ «مختار الصاوي» حيث يطرق كل من حليم وعمران الباب فيسمح لهما أستاذهما بالدخول .
مختار : أهلاً يا شباب ، كيف حالكما ؟ .
أجاب الشابان : بخير الحمد لله .
مختار : لديّ أخبار سارة أزفها إليكما اليوم ، يمكنكما القول أنه يوم حظكما .
عمران وقد تبين علي وجهه البهجة ونظرات الأمل : أتمني أن يكون ما أفكر فيه يا سيدي .
أجابه مختار الذي يحب تلك النظرات منه كثيراً : يبدو أنك لم تكف عن تحرياتك يا عمران بعد ، أخشي أن المحقق الذي بداخلك قد أحرق أخباري السارة إليكما .
حليم متلفتاً إلي كل منهما لا يعرف عما يتحدثان : ما الأمر يا سيدي ؟! .
تحرك مختار من كرسيه مبتسماً متجهاً إلي أمام المكتب باتجاه حليم وعمران وربت بيديه علي كتف كل منهما قائلاً : لقد اخترتكما من بين زملائكما لتمثلانا في المعرض الكبير الذي سيتم

التنظيم له علي أن يقام في أول أيام العام الجديد في » لندن » .
لم يستطع حليم النطق من أثر المفاجأة واكتفت ملامحه بالاندهاش وثغره بالابتسام تِباعاً . بينما عمران كان رد فعله سريعاً ومبهجاً في حد ذاته حتى أنه قد صاح فرحاً كأنه فاز بالجائزة قبل حتى أن يحظي بالمهمة ، ها هو عمران قد تبين صدق حدسه فقد علم بأمر المهرجان من جراء تحقيقاته وتفتيشه المستمر ، ومن يعلم ربما قد قضي الليل ركوعاً وسجوداً داعيا بأن يكون هذا الأمر من نصيبهما . . والحمد لله أنه تحقق .
أما حليم فكأنه قد استفاق من قيلولة اندهاشه قائلاً : إنه حقاً يوم حظنا ، شكراً لك يا سيدي علي هذه الثقة الكبيرة .
ابتسم مختار عائداً إلي كرسيه مرة أخري قائلاً : سيزودكما »حسان« بالمعلومات اللازمة وكافة التفاصيل عن رحلتكما إلي »لبنان« .
نظر الشابان إلي بعضهما في غرابة قائلان : لبنان ؟! .
ابتسم مختار وكأنه قد أعلن عن انتهاء المقابلة قائلاً : بالتوفيق يا شباب .

خرج حليم وعمران متوجهان إلي »حسان« ليزودهما بكافة التفاصيل وعلامات الاستغراب علي وجههما ، لماذا لبنان ؟! .

*****

أخذ حليم يحرك آلة التصوير يميناً ويساراً محاولاً إيجاد زاوية مناسبة لصورته وينظر في اندهاش تام ثم يُحدِث عمران . . بحقك ، أليس هذا منظراً بديعاً بما يكفي لنستيقظ من أجله .
تثاءب عمران ونظر بنصف عين فقط . . نعم ، نعم .
حليم : هيا يا صديقي ، أين حدسك الفني و استهواءك للمناظر الطبيعية ، هل تركتهما في »عروس البحر« ؟! .
عمران : وأنت يا حليم أين حدسك الإنساني الذي أيقظني في يومنا الأول ولم أنم سوي ساعات قليلة فقط ؟ ، ثم ماذا عن فروق التوقيت بين »الإسكندرية« و»لبنان« يا رجل ؟
ضحك حليم قائلاً : لن تتغير أبداً يا صديقي ، كفاك تثاؤباً يا رجل وانظر هنا وهناك لعلك تجد ضالتك وتبدع في رسمك كما عودتنا.

أخذ عمران يتحرك قليلاً علي السطح وينظر من زوايا مختلفة ، فيلامس خده نسيم بارد يبعث في روحه النشاط شيئاً فشيئاً ، سبحان خالق هذا الكون ومبدعه ، سبحان بارئ هذه السموات وهذه الأرض ، أينما تذهب تجد الجمال حولك ، مادام الله بداخلك ، فالله هو الجمال .
وقعت عيناه علي مسجد علي يمين منزلهما الصغير ، يبدو أن أهل هذا الحي الصغير هم الذين بنوه لإقامة صلواتهم ، كم

كان بسيط التصميم ، والغريب بعض الشيء أنه كان بلا سقف ، ولكن تكفي الراحة النفسية التي تشعر بها حينما تنظر إليه فما بالك بما ستشعر حينما تصلي بداخله . يستطيع من في أعلي المنازل المحيطة بالمسجد أن يره كاملاً وبابه المفتوح وكذلك الجدار الفاصل بين مصلي الرجال ومصلي السيدات ، سرعان ما زال هذا الاندهاش عندما نظر حوله فلم يجد منزلاً أعلي من طابقين ، ولكن يبدو أنها منطقة جميلة وهادئة كما أخبرنا عنها »حسان« ، إنها بلدة »فنيدق« ، أي تصغيراً لكلمة فندق (نُزل) ، بلدة لبنانية صغيرة شمال شرق طرابلس ، سُميت فنيدق بهذا الاسم تصغيراً لكلمة فندق (نُزل) ، وقد أُطلق عليها هذا الاسم لأنها كانت محطة لعبور القوافل ونقطة وصل بين »طرابلس« و »البقاع« ، طرقاتها ضيقة نوعاً ما فلا تتسع لمرور السيارات بها ، مناسبة لمحبي المشي والتأمل في الجمال الطبيعي .

عاد بنظره إلي المسجد الصغير ، أخذ يتأمل بساطة التصميم وذاك الحصير الذي يغطي بعضاً من الأرض ، ولكن فجأة استوقفه منظر ما ، إنها فتاة ! ، فتاة في مصلي السيدات ، كانت ترتدي زياً للصلاة و تجلس علي ذلك الحصير ترفع يداها للسماء ، لا يكاد يظهر منها شيء سوي طرف وجهها وكفيها ، تارة ترفع رأسها للسماء وتارة أخري تضع وجهها علي كفيها وتارة ثالثة وكأنها تمسح دمعها .

لو ترَ رجائها لله لأقشعر بدنك وفاض الدمع من قلبك ، فما بال ما تناجي به الله . .
ظل يتابع هذا المشهد في صمت متأملاً تلك الفتاة آملاً أن يسمع دعائها ، فجأة تنهض من
مكانها ولا يستطيع رؤية وجهها ، فقد وضعت وشاحاً حول رقبتها خبأت به نصف وجهها، اتجهت لباب المسجد وأخذت تنظر هنا وهناك قبل أن تخطو خارجه ، لم يكن هناك أحد فكان الجو ضبابياً نوعاً ما ومازلنا في الصباح الباكر ، لكنها طبعاً لم تتوقع وجودنا فوق سطح المنزل ، بالطبع فهي لا تعرف أخي حليم .
أخذت تهرول إلي خارج الشارع ولا تعلم أني ألاحقها بنظراتي من زوايا مختلفة من السطح ، لم يكن ذلك صعباً فالمنازل صغيرة والطرقات بينها واضحة من أعلي السطوح ، إلي أن وصلت لأول الطريق خارج منطقة منازلنا ثم ابتعدت وتاهت عن ناظري بين الأشجار فلم أعد أراها .

ظل متسمراً في مكانه ، ربما يشتعل بداخله حدس المحققين الآن.
حليم : عمران . . عمران ، ماذا بك ؟ ما الذي تتأمله إلي هذا الحد ؟! .
عمران : نعم يا صديقي . . » لقد وجدت ضالتي» .

*****

بعد انتهاء اليوم الأول من أغسطس ، وبعدما تنزها في بعض الطرقات المجاورة من المنازل ، أشبع «حليم» روحه نوعاً ما كبداية ببعض الصور التي التقطها ، جلس كل منهما إلي الطعام وعندما انتهيا منه أخذا يشاهدان الصور معاً .
حليم : انظر إلي هذا الجمال ، لقد كان هذا اليوم رائعاً حقاً ، وأخذت فيه من الصور ما جعلني أقتصر في طعامي اليوم وكأني قد شبعت .
نظر إليه عمران في شيء من الخبث والضحك : ماذا ؟! ، لا ينقص سوي أن تأكلني .
ضحك حليم بصوت عالٍ قائلاً : لا تخف فأنا لا آكل أصدقائي .
ماذا عنك ؟ ، ألم يجذبك شيء اليوم ؟ .
تنهد عمران ثم قال : تعلم أني استغرق وقتاً حتى أقتنع تماماً بما سأرسم ، لابد أن أبحث في رسوماتي عن سلسلة من اللوحات حيث يمكن صياغتها في شكل قصة أو فيلماً قصيراً ، أبحث عن شيء جديد ، ماذا عنك أنت ؟! .
حليم : سآخذ بعض الأيام أولاً لاستكشاف البلدة بعدها أقرر ، لنرَ غداً ما يخبئه لنا دليل رحلتنا «حمزة » ، طابت ليلتك .
ساد الهدوء لدقائق وبدأ «عمران» في الشرود مع أوراقه وألوانه ، نهض «حليم» فجأة من فِراشه مفزوعاً وكأنه نسي بذلته الوحيدة

في العراء تحت المطر الغزير مع أنهما في فصل الصيف .
ضحك »عمران» قائلاً : أفزعتني يا رجل! ، هل لدغك عقرب ما؟!.

حليم : لا ، لقد نسيت وضع الماء الذي أوقظك به في الثلاجة .
سرعان ما أنقض عليه »عمران» بالوسائد وتعالت ضحكاتهما ومزاحهما معاً ، ومن ثم أنقضت الليلة الأولي في منزل » فنيدق».

*****

(اليوم الثاني من أغسطس)

في أحد أحياء »الإسكندرية» في بيت الأستاذ » حمدي أيوب » المحامي . . شخص ما يزيح الستار للشمس حتى تدخل من النافذة . . وشخص آخر ينزعج من الضوء الفاضح لحوائط غرفته,
ميرفت : راغب . . راغب ، استيقظ يا بني إنها العاشرة صباحاً ، ما كل هذا النوم ! .
راغب : اتركيني يا أمي ، إنه يوم إجازتي .
ميرفت : وإن يكن يا بني ، ألا يحق لي ولأبيك أن نجلس معك في يوم إجازتك ؟ ! .
راغب يتثاءب قائلاً : حسناً أمي . . سألحق بكِ .
تنهدت ميرفت وهي تخرج من الغرفة قائلة : لطالما عانيت من

إيقاظك أنت وأخاك «عمران» ، لم أرَ أكسل منكما في حياتي .
حمدي : اتركيه ينم يا ميرفت ، إنه يوم إجازته ، دعيه يرتاح من عناء الجيش ولو قليلاَ.
قالت ميرفت في نبرة من الغضب : أعلم ذلك ، ولكن أريد أن نجتمع إلي طاولة واحدة ، ألا يحق لنا كباقي الخلق ؟! .
حمدي : نعم يحق لكِ ، ولكن يحق له أيضاَ بعض الراحة في بيته. . ثم يهمس لنفسه : جيش هناك وجيش هنا أعانك الله يا عزيزي راغب .
التقطت ميرفت ما قاله وأجابته : وهل جربت عناء الجيش يا حمدي حتى تحكم عليه ؟! .
أجابها حمدي متلعثماً وكأنه ابتلع لسانه : لا ولكن . . حسنا ما أقصده . . أقصد لتكن الإجازة إجازة يا عزيزتي .
قالت ميرفت بعينين واسعتين : يكفي «عمران» الذي أراه في الشهر مرة أو مرتين علي الأكثر ، ترك وظيفته في البنك حتى يجوب البلاد وراء رسمه ولوحاته ولا أسمع نُصح أباه في ذلك الأمر .
تنهد حمدي قائلاً : إنها إرادته ولا أرغم أولادي علي شيء ، كما أن هذا هو حال الفنانين ، وقتهم ليس ملكاً لهم ، كالهواء لا يتقيدون بمكانٍ واحدٍ .
قالت ميرفت في نبرة من الغيظ : لن تتغير في معاندتي فيما أقول

أبدا .
اكتفي حمدي برفع الجريدة حتى يخبئ وجهه بها وكأنه يهمس في نفسه قائلاً : هنيئاً لك يا عمران ، إنه أذكي شخص في هذا البيت.
خرج راغب من غرفته أخيراً : صباح الخير أبي ، صباح الخير أمي .
حمدي : صباح الخير يا بني ، اغسل وجهك بالماء أولاً وأنضم إلي مائدتنا المتواضعة وحديثنا المثمر ، كنا بانتظارك ، يبتسم ابتسامة خفيفة وينظر من فوق عدسات نظارة القراءة كأنه يريد القول له » ما الذي أيقظك يا عزيزي ! ، حتماً ستندم علي ذلك خلال بضع دقائق من الجلوس مع أمك ، لو كنت مكانك ما استيقظت قط » .
ولكن كأنها تراقب ابتسامته وتعرف نواياه جيدا ، فيعدل من نظارته وشفتيه وينظر من جديد لمنقذه الوحيد في هذا البيت .
إنها الجريدة .
فهم راغب رسالة أبيه وابتسم في خبثٍ قائلاً : حسناً يا أبي .

بعدما فرغ الجميع من الطعام و جلسوا إلي التلفاز ، ينظر راغب إلي ساعة الحائط ويتابع حركة عقاربها دقيقة بدقيقة ، ترقبه أمه جيداً واضعة يدها علي خدها مستندة إلي ذراع أريكتها ، بينما يشاهدهما »حمدي» في صمت ، تارة ينظر إلي ابنه ، ينظر إلي

زوجته تارة أخري .
دقت الآن الثانية عشرة ظهراً ، تحرك »راغب« بخطي واسعة إلي الشرفة ، بينما عقبت أمه علي هذه الحركة تنظر إلي »حمدي« في شيء من الغيظ : إنه موعد السندريلا »حياة« .
أضاف حمدي في هدوء : لِمَ تشغلين بالك بهما ! ، دعيه وشأنه ، تعلمين أنه ينتظر هذا اليوم حتى يحظي بهذا اللقاء .
أزالت ميرفت يدها المستندة علي الأريكة وتحركت إلي الأمام قليلاً قائلة : وتعلم أنني لا أحب هذه الـ »حياة« مذ أن انتقلت إلي هنا مع أمها .
رد عليها حمدي في شيء من الثبات قائلاً : أعلم ذلك ، ولكن ما جدواه ، »راغب« حر في حياته ، لم يعد طفلاً نتسلط عليه ونختار له هذا وذاك ، إنه في الرابعة والعشرين من عمره الآن يا عزيزتي.
تحول لون ميرفت إلي الأحمر من شدة غضبها ولكنها تحاول أن تهدئ من صوتها : حر في حياته ولكنني أمه وأعلم منه بمصلحته.
حمدي : لم تتمكني طوال حياتك من التحكم في حياة الكبير وتحاولين تعويض ذلك الآن مع المسكين راغب ! ، إن الأمومة ليست بخنق أحلامهم ، آمل ألا تؤذي ابنك .

انتقلت حياة مع أمها إلي العمارة المقابلة لعمارة راغب وهي في سن العاشرة ، وقتها كان »راغب« في الحادية عشرة من عمره،

عرفا بعضهما ونشأ حبهما منذ الصِغر ، بل ازدهر بعدما دخل «راغب» كلية الهندسة ولحقت به «حياة» ، والآن قد تخرج «راغب» والتحق بالجيش وعلي وشك إنهاء مدته فيه ، و«حياة» قد انتهت من امتحانات عامها الجامعي الأخير وتنتظر النتيجة النهائية .

*****

بعيداً عن هذا الكم من الغضب ، «راغب» في شرفته ينظر إلي الشرفة المقابلة وينتظرها ، فاستهلت بنورها ببطء وعلي استحياء تام ، يعم وجهها بابتسامة تغزو الروح من شدة صفاءها ، بشاشة روح و بساطة في النفس تكفيان لإصلاح أي خراب يحل بالداخل علي تلك الأريكة ، إنها حياة وهي فعلاً حياة .
لم يستطع راغب السيطرة علي ابتسامته حينها بل اتسعت حدقتا عينيه جداً من شدة إعجابه بطلتها الجميلة قائلا : أتعلمين شيئاً ؟
نظرت لأصابع يدها المرتبكة ولا تقدر علي النظر في عينيه وقالت مبتسمة : ماذا ؟! .
تابع راغب بنفس الحماس قائلاً : تبدأ حياتي فقط في اللحظات التي أخرج فيها إلي هذه الشرفة .
ارتبكت حياة أكثر وأكثر ولم تجبه ، فقط أجاب احمرار وجنتيها نيابة عنها ، ومازالت لا تستطيع النظر إلي عينيه وهو بالتأكيد مستمتع بهذا الخجل كثيراً حيث ينعم هو بالنظر إليها بكل

تفاصيلها الجميلة والرقيقة .
كانت ترتدي فستاناً طويلاً لونه أسود مطرز ببعض الورداتالصغيرة البيضاء البارزة وكأنها كزهور الياسمين الناصعة البياض طارت من نباتاتها لتلتصق بصاحبة القلب الأبيض مثلها ، وحجاب من اللون الأسود أيضاً ، وكأي رجل لا يعلم ما اسم هذا الرداء لكنه كان شيئاً جميلاً أصبح أجمل بارتدائها إياه ، وجهها . . وما أدراك ما وجهها ، كطبق من نور ، كتجمع دائري لمياه عذبة غاية في النقاء والشفافية ، فقط قطرة منه تروي ظمأك قرناً من الزمان، كالبدر في تمامه يتوسط الليل الغامق ويضيف إليه الحياة، لوحة فنية متكاملة . . أعذر الآن أخي عمران في جولاته وركضه وراء المنظر البديع ، بل اشعر بميول للرسم في هذه اللحظة أمام هذه الفتاة التي خطفت قلبي منذ الصِغر .
راغب : كم أفتقد أيام الجامعة حينما كنت أشرح لكِ ، ألا يقف عليك شيء في الدراسة ؟ .
ضحكت حياة ضحكة هادئة : دراسة ماذا يا راغب ؟! ، إنني أنتظر النتيجة النهائية .
ضحك راغب محاولاً إخفاء ضعف ذاكرته كعادته : صحيح ، أنسي كل شيء فقط حينما أقف أمامك .
أرادت التهرب من هذا الحديث الذي يخجلها باللعب في وريقات نباتاتها الصغيرة قائلة : وكيف حال الجيش ؟ ، حدثني عنه قليلاً .

ضحك راغب من تهربها قائلاً : حسناً . . ليس أسوأ من مارينا والساحل الشمالي يا حياة . .

*****

بعدما انتهي حليم وعمران من صلاه الفجر في المسجد المجاور لمنزلهما المتواضع ، جلس حمزة وأصدقائه أمام بيته يتحدثون قليلاً كعادتهم دائماً في بداية كل يوم وطلبوا من الشابين الانضمام لهم للحديث عن رحلتهما وكيف ستكون برفقة حمزة الدليل الذي كلفه حسان بالأمر .

نسي عمران هاتفه المحمول في المنزل فاستأذن ليذهب ويجلبه ويعود علي الفور .

وبينما ينعطف باتجاه المنزل ، اصطدم بأحدهم .

قال عمران في ارتباك : آسف . . لم أقصد . .

وكأن صدي صوتٍ قد تردد في نفسه قائلاً :

»يا الله ! ما هذا الجمال ! « .

فتاة بعينين فائقتي الجمال داكنتين ، سوادهما أكثر من سواد الليل ظلمة ولكنها ظلمة من نوع خاص ، سواد يخطف الأبصار حقاً ، إنهما دامعتان .

ارتبكت الفتاة كثيراً وأمسكت جيداً بوشاحها الذي تخبئ به نصف وجهها ، ثم أسرعت بعيداً عن المنازل ، لم تنطق بكلمة ولم تنظر ورائها حتى ، حتى أنها لم تهتم بمن لم ينقطع نظره عنها ، ولكنها

أخذت نفس الطريق الذي أخذته الفتاة التي رآها عمران من السطح ، نفس الزى ونفس الهرولة . ظل متسمراً مكانه يرمي بنظره ورائها فعلي بعد خطوات أمامه رأي شيئاً لامعاً قد كشف سره شعاع من أشعة الشمس ، إنها قطعة صغيرة من الفضة .

*****

قضي يومه حائراً ، مشتعل الفكر ، تري من هذه الفتاة ؟ ، لو كانت من هذا الحي فلِمَ تسرع هكذا وكأنها لا تريد أن يرها أحد ؟! .

أصر ألا يخرج من المنزل في هذا اليوم ، ظل جالساً علي السطح ناظراً إلي المسجد في ترقب ، ينزل في كل صلاة ثم يصعد مرة أخري .

يبدو من زيها وطريقة تغطيتها لوجهها ونظراتها هنا وهناك أنها تختبئ من أحد ، إذاً فمن المؤكد أنها لن تجتمع بهم في مواقيت الصلاة ووقت رواج الشوارع علي حسب ظني .

لم يبقَ إلا وقت ما بعد صلاة العِشاء ، ولكن الشباب والرجال دعونا لنجتمع معهم كعادتهم أيضاً يجتمعون خارج منازلهم في الليل ويتسامرون .

حليم : ما بك يا صديقي ؟ ، لاحظتك اليوم إما تجلس بمفردك أو تكون قليل الكلام معنا ، هل أصابك الشوق لأهلك بهذه السرعة؟! .

عمران : بالطبع أشتاق لهم ولكن . . لا أعلم ، ربما لم أتأقلم مع البلدة بعد .
حليم : ربما ! ، هيا نتناول العشاء إذاً .

*****

مرت ساعات قليلة حتى عاد لفكره المشتعل وسرح فيها مرة أخري . . هذا الجمال ، عيناها ، سبحان الله ! . . مثل هذه العيون لا تستحق الدمع أبدا ، قضي ليلته مع أوراقه وألوانه وزاد عليهما ضيف جديد ، إنه قِرط (حلق) من الفضة ، ما وقع منها وقت هرولتها من أمامي و انشغالها بوشاحها حتى لا يسقط .
كانت فردة القرط من الفضة فريدة من نوعها حقاً ولم أتخيل أن يكون هناك قرطاً بهذا الشكل ، كانت علي شكل فتاة صغيرة جداً لها جناحان وتمسك بيدها عصي سحرية بطرفها نجمة صغيرة ، كأنها تحقق الأمنيات .
أفضي إلي لوحته كل ما يدور في ذهنه ، من كثرة تأمله وتحديقه بقرطها قد رسمه كما هو تماماً ، حتى داهمه النوم . كانت أحلامه في هذه الليلة عنها هي فقط ، عن تلك النظرة ، تلك العيون المميتة من شدة جمالهما وحزنهما أيضاً .

*****

بعد فجر اليوم الثالث وحديث الرجال ، حاول عمران ألا يتأخر

معهم وتظاهر ببعض التعب وأنه بحاجة لقليل من النوم بعد ، بينما كان كل ذلك خيفة أن يتأخر عن موعده المنتظر ، ذهب مع صديقه لمنزلهما وحاول التظاهر بأنه يريد النوم لعل حليم يفعل مثله فيتمكن عمران من الخروج خلسة ، ولكن كيف وحليم شخص نشيط للغاية لا يؤثر فيه حيل صديقه الكسول ، ما كان من عمران إلا أن انتهز فرصة دخول صديقه للحمام فوضع مكانه الوسادة وقام بتغطيتها بالكامل علي أنها هو ثم خرج .
إنه النهار ! . لا أحد في الشارع ولا في المسجد أيضاً ، ماذا ! ، ألن تأتي اليوم؟!.
استند إلي باب المسجد ناحية مصلي الرجال يختلس النظر إلي أول طريق المنازل ، رأي من بعيد أحد ما قادماً باتجاهه فسرعان ما دخل إلي مصلي الرجال علي الفور ، فربما لو رأته لخافت وذهبت أو لا تعود ثانية .
دقائق قليلة ، وقد تأكد من أنها هي حين سمع صوت باب مصلي النساء يُفتح ببطء ، ولكن كيف يراها أو يسمعها في المصلي ؟، إنه للسيدات فقط . حاول التقرب من الجدار الفاصل بين المصليين لعله يسمع شيئاً ، من بساطة تكوين المسجد ضعف أركانه وجدرانه أيضاً ، ليست سميكة إلي الحد الذي يحجب الصوت بين المصليين .
نعم . . إنها هي ، فتاة تبكي وتتحدث مع الله ! . »يا الله نجني

مما أنا فيه » ، »يا الله نجني مما أنا فيه». . ثم توالي بكاءها الذي يُدمي القلب ، وتكرر ثانية » أرجوك يا ربنا نجني مما أنا فيه . . سامحني يا الله » .

هذا كل ما كانت تقوله إلي الله ! . تري ما الذي تريد أن ينجيها الله منه ؟! ، ولِمَ تطلب السماح من الله هنا بالذات ؟! ، هل تأتي إلي هنا فقط لتدعو الله وتطلب السماح منه ؟! ، أيخفي عليها أن الله في كل مكان مطلع وسميع الدعاء في كل وقت وحين ؟! ، حقاً عجبت لأمركِ يا فتاة ! .

وقف مكانه للحظات تائه في هذا الموقف الذي اقشعر بدنه منه ، ذلك الصوت العذب المتكرر مع البكاء والآهات التي تذبح الروح ، تذكر تلك العيون البديعة المليئة بالدموع ، »يا الله نجني مما أنا فيه» ، فجأة تنبه إلي انقطاع صوتها وبكاءها فخرج من المصلي يلقي نظرة ، رآها تبتعد سريعاً وتختفي .

لم يدرِ ماذا فعلت له حتى يلحق بها مهرولاً هو الآخر ، كان سريع الجري فهي رياضته المفضلة ، جري سريعاً لأول الطريق حتى رآها ثم أخذ يمشي بخطوات حذرة ، تعمد ألا تراه ورائها إذا التفتت ، أخذت تدخل هنا وهناك بين الأشجار والسهول والصخور، وكأنها طريق مختصرة تعرفها جيداً ، كان يختبئ وراء الأشجار كلما أحس بالتفاتها ، نجح في ذلك وتمكن من رؤية المكان الذي دخلت إليه ، » مقهى السعادة » . . هذا ما كُتِبَ علي لافتة أمام المكان ،

ولكن كأنها دخلت من جهة أخري وليس من باب المقهى ، حاول النظر من كافة الجوانب حتى تكتمل الصورة في ذهنه ، كأنه مقهى كبير يلتصق ببيت صغير ، نوعاً ما يغلب حوله اللون البني أكثر من اللون الأخضر ، وكأنه مختبئ من العالم المحيط حيث لا منازل حوله ، فقط الأشجار التي تبعد عنه قليلاً ، يبدو مخيفاً من الخارج ، فيا تُري كيف يبدو من الداخل ؟! . أسرع عائداً إلي صديقه قبل أن يكتشف غيابه ويعرف بأمر قضيته الجديدة .

*****

دخل الغرفة ونظر حوله فلم يجد صديقه ، تسلل إلي سريره ليكشف الغطاء وينم مكان الوسائد ، فإذا بالمفاجأة تحت الغطاء.
حليم : تري ما المصيبة التي تنتظرنا هنا يا رجل ؟! ، علمت أنك تدبر لشيء ما .
تلعثم عمران في الكلام : ماذا ؟! ، مصيبة ماذا يا رجل ؟! ، ماذا تفعل تحت غطائي ؟! ابتعد ، لم أستطع النوم فخرجت أتمشي قليلاً .
قال حليم في شيء من الخبث :
تتمشي ! ، حسناً يا عمران ، ستفوح رائحة طعامك بعد يومين فقط يا صديقي .
ضحك عمران قائلاً : حسناً ، بمناسبة الطعام ماذا ستطبخ زوجتي اليوم ؟! .
ضربه حليم بالوسائد كعادتهما مع الضحك المستمر:

أيها الفاشل ! ، لولا أنني أجيد الطهي لما كنت ستجد ما تأكله .
ضحك عمران محاولاً تفادي الوسائد قائلاً : تذكرني بما قالته أمي قبلاً » ما حاجتك للزواج طالما تجد من يطبخ لك » . . كانت تقصدك يا رجل ! .
ضحك حليم واستمر بضربه بالوسائد : كانت محقة أيها الفاشل الكسول .

*****

خرجت حياة من غرفتها متوجهة نحو والدتها : صباح الصفاء لأمي صفاء .
ابتسمت الأم قائلة : صباح الخير يا عزيزتي ، مازلتِ تصرين علي هذه التحية .
حياة في شيء من التودد تلف يديها حول عنق والدتها وتقبلها في خدها : نعم أمي ، صباح أمي يختلف عن صباح الآخرين ، فأينما توجد أمي »صفاء» يوجد الصفاء دائماً ، فتصبح تحيتي »صباح الصفاء» . تُري ماذا لدينا في فطور اليوم ؟ .
الأم : لدينا كل ما تحبين يا صغيرتي .
حياة في نبرة اللهفة للطعام : سلمت يدا أمي الجميلة ، ولكن تصرين علي دعوتي بالصغيرة وها هي أيام قليلة وأتم عامي الثالث والعشرين أمي ! .
أضافت الأم ابتسامة صافية مثلها تماماً : أنت لا ترين نفسكِ كما

أراكِ يا صغيرتي . . إنها عين الأم ، كفاكِ حديثاً وتناولي فطورك .
أخذت والدتها تتأملها في هدوء وكأنها تعلم سبب فرحتها ، تلك أيامها السعيدة التي تنتظرها ، عندما يأتي راغب .

*****

حليم : عمران ! ، ألن تأتي معنا أنا وحمزة ؟! .
كان عمران منشغلاً بلوحاته وألوانه المتناثرة حوله حينما أجابه: لا ، اذهب أنت معه ، أنا مشغول اليوم يا صديقي كما تري .
حليم : وهل أتيت لأجوب البلاد وحدي يا فنان ! ، أمامنا أقل من شهرٍ هنا ، و مهرجاناً و مسابقة في » لندن » خلال أشهر هل نسيت ؟! .
عمران : لم أنسَ ، ها أنا أقوم بذلك .

*****

إنها الواحدة ظهراً ، وهناك من ينظر إلي عقارب الساعة متوسلاً يخاف أن يتحرك ثانية أخري ، يهاب الظلام كثيراً ، فكل شيء يُرهِب القلب يحدث في الظلام ، ولكن لابد منه ، لو أن الزمن يقف علي النهار فلا يأتي الليل أبداً ! . . ولكن هيهات ! .
خطت خطواتها اليائسة إلي الغرفة المجاورة حيث أمها »حسناء» ، تلك الحسناء التي لم يكن قدرها بقدر حُسنها الأخاذ ، احتضنها فراشها طوال عشر سنوات ، ألم تكتفِ بهذا القدر من الزمن أيها

الفراش ؟! ، لِمَ تطمع في المزيد من أمي أيها المرض اللعين ؟! ، أحقد عليك كثيراً يا فراش أمي ، قد أخذت كل أحضانها وحدك وتركتني لا يحتضنني أحد ، ما كان لي في هذا الزمن من البشر سِواها لأستند عليها فأصبحت هي من بحاجة للسند .
فتحت باب الغرفة برفق وحاولت ارتسام بعض المرح علي وجهها الجميل : أمي . . الغداء جاهز ، أعددت لكِ قطع الدجاج كما تحبينها مع الأرز وبعض الخضار المسلوق . وضعت الصينية جانباً وأخذت تساعد أمها في سحبها من الفراش والاستناد إلي بعض الوسائد حيث كانت تعاني شللاً كاملاً في قدميها ، ولا تتكلم ، بالكاد تحرك ذراعيها حركة خفيفة جدا .
طوال هذه السنوات لم يتخلَ الأطباء عن قولٍ واحدٍ عن حالة حسناء « إنها آثار صدمة ما والحزن الشديد » ، لم أكن أعلم ما سبب هذه الحالة التي وصلت إليها أمي بالضبط ، فحينها كنت في عامي الرابع عشر، ولكن كنت علي يقين أن ورائها رجل واحد فقط ، زوج أمي »نصار« . .
جلست علي كرسي بجانب السرير وأخذت صينية الطعام قريبة منها لتساعد أمها علي تناول الطعام وتطعمها بنفسها ، ولكنها أشاحت وجهها عن تناول الطعام .
قالت ليلة في تودد واستعطاف لأمها : أمي ! . . أرجوكِ . . تناولي طعامكِ . .

ولكن حسناء مازالت ترفض وتبدأ عيناها باللمعان .
ليلة : أرجوكِ أمي ، تعلمين أن هذا العالم بدونك لا يعني لي شيئاً ، ليس لديّ غيرك فيه ، تناولي الطعام من يدي حتى تتمكني من أخذ دوائك ، كيف ستتعافي بما تفعلين ؟! .
ابتسمت الأم في سخرية وعيناها تلمعان من أثر الدمع المحبوس بهما منذ زمن ، كأن في ابتسامتها قولها لفتاتها » وهل أفاد ذلك بشيء طوال تلك السنوات الماضية يا عزيزتي ؟! « . كانت ليلة تفهم حركات عينيها وابتسامتها وملامح وجهها وتعبيراتها جيداً ، فقد اعتادت الأمر عشر سنوات ، لم تنفذ يوماً رغبة زوج أمها بأن يأتي بأحد ليتولي أمر رعاية الحسناء وأصرت هي علي القيام بكل احتياجات والدتها ، لقد خلقها الله لهذا الأمر وهي علي أتم اليقين بذلك ولن تتخلي عنها أبداً ، توقفت عن الذهاب للمدرسة منذ ذلك الوقت وإكمال تعليمها فقط لتقوم علي خدمة والدتها ، غير أنها تخاف عليها من ألاعيب ذلك الزوج الدنيء الخائن ، فكيف تستأمنه علي كل ما تملك ! . . علي أمها ! .
أجابتها ليلة بحب شديد : يفيد أمي ، يفيد بأنه يبقيكِ إلي جانبي في هذا العالم المُوحِش ، يفيدني حين أسمع أنفاسكِ بجانبي فتشرح صدري حتى وإن ضاقت عليّ دنياي ، الأمان حينما أنظر في عينيكِ ، الحب الغائب عن حياتي حينما أري ابتسامتك لي ، ألا يكفي ذلك لجعلك تشفين من تعبك يا صاحبة الحُسن ؟ .

ما كان من حسناء إلا أن ابتسمت وكأنها قد وجدت مفتاح شهيتها ، أخبرت نفسها سِراً » أعيش من أجلكِ يا عزيزتي حتى وإن كانت الحياة سُماً وعلقماً » ، تمنت لو أنها تسمع ما قالته للتو في نفسها .

*****

جلس حليم في أحد الوديان يحيط به اللون الأخضر من كل جانب ويلعب علي مقربة منه بعض أطفال الحي منهم »مراد« البالغ من العمر تسعة أعوام وهو الابن الأكبر لحمزة ، طفل وسيم يتسم بالذكاء الملحوظ عن بقية أصحابه والفضول في تعلم الأشياء الجديدة واكتساب المهارات ، فإذا به يترك أصحابه ويقترب من حليم قائلاً في بعض التنهيدات من أثر اللعب : هل تعبت ؟ .
ابتسم حليم مجيباً : لا ، فقد استرخ وأنظر ، أتأمل وأستمتع بهذا الجمال الخلاب يا مراد .
جلس مراد بجانبه : إنك محق ، أنت في مثل هذا السن تستمتع بالتأمل بينما نحن الأطفال نستمتع بالركض واللعب ، لكل منا طريقته في الاستمتاع .
نظر إليه حليم في إعجاب : ماذا تريد أن تصبح حينما تكبر يا مراد ؟! .
مراد وكأنه رجل كبير يتحدث : لا أعلم بالتحديد ، أحياناً أرغب في أن أصبح رائد فضاء وأذهب بمركبتي الفضائية

لأكتشف النجوم والكواكب ، وأحياناً أرغب في أن أصبح مهندساً لأصنع تلك المركبة بنفسي ، مازلت أكتشف العالم .
ابتسم حليم وقد ازداد إعجابه بالطفل قائلاً : في كلتا الحالتين تريد الفضاء ، فلماذا الفضاء بالتحديد يا صديقي الصغير ؟! .
مراد : إنني طفل الآن وحينما أكون بعمر رائد الفضاء أو المهندس سأكون قد اكتشفت اليابسة جيداً ولعبت فيها بما يكفي ، حينها يأتي وقت الفضاء واكتشاف العالم واللعب بمركبتي الفضائية هناك . .
ضحك حليم قائلاً : هكذا إذاً ! ، ربت بيده علي شعر الطفل ناظراً للسماء قائلاً في ثبات » ليت العالم مكان للعب فقط يا صديقي » .
التفت إليه مراد : كم عمرك يا عمي حليم ؟! .
حليم : أنا في السادسة والعشرين من عمري يا صديقي .
مراد : وعمي عمران كم عمره ؟! .
حليم : مثلي تماماً .
مراد في تفكير : أمممم . . يعني أنكما أكبر مني بسبعة عشر عاماً ! .
حليم : نعم يا صديقي .
مراد وكأنه قد وصل لشيء من هذا : إذا لماذا لم يتزوج أحد منكما بعد ؟! .
ضحك حليم : حسناً . . ربما لم يئن الأوان بعد يا صديقي .
مراد : ولكنني حينما أكون في عمركما سأكون قد تزوجت ومعي

أطفال أيضاً .
حليم وقد زاد انتباهه : حقاً ! . . وهل تخطط لهذا الأمر من الآن يا رجل ؟! .
مراد في ثبات : نعم بالطبع ، فزميلتي »رهف« يجب أن أتزوجها قبل أن يتزوجها أحد غيري تعالت ضحكات حليم : هكذا إذاً . . خيراً ستفعل يا رجل . .
مراد : لديّ فكرة لك .
حليم : وما هي ؟! .
مراد : لماذا لا تتزوج من هنا ؟! .
حليم : إن الزواج ليس بهذه البساطة يا صديقي ، حينما تكبر ستفهم ما أقصده .
مراد في إصرار : ولكن أعرف فتاة جميلة لتتزوجها وتقيم معنا هنا .
ضحك حليم قائلاً : حسناً سأعرض الفكرة علي عمك عمران .
قال مراد في بعض الغيظ : لا ، إنني أتحدث عنك الآن وأريد أن أزوجك من بلادنا ، حينها ستعلمني كيف أستخدم الكاميرا وأصور المناظر الجميلة مثلك .
حليم وقد تفهم فكرته : هكذا إذاً ، ما تريد الوصول إليه هو الكاميرا ولا يهمك أمري كما كنت أظن يا رجل ! .
مراد : لن أكذب في أنني أحببت الكاميرا الخاصة بك كثيراً يا عمي

، ولكن عمتي »خديجة« جميلة جداً أيضاً وهادئة مثلك تماماً ،ولكن ليست مثل عمي عمران .
حليم : عمتك ! ، ولكني مازلت شاباً يا مراد ! .
مراد : لا ، إن عمتي صغيرة وجميلة ، إنها تدرس في الجامعة .
قال حليم ضاحكاً : حقاً ! ، مازالت تدرس ، لقد أفزعتني يا رجل .
دعنا من هذا ولأعلمك قليلاً علي الكاميرا كما تريد يا صديقي الصغير .
فرح مراد بذلك كثيراً ونهض من مكانه مسرعاً نحو الكاميرا ليتعلم شيئاً جديداً .

*****

أوشكت الشمس علي الغروب وها هي تظلم ومازال صاحب الألوان والفرشاة جالساً لم ينتهي من لوحته بعد ، مازال هناك تفاصيل مفقودة لم يظهرها ، إن هذه التفاصيل لا تشبع شغفه كرسام أكثر من إشباعها لجوع حدس المحققين بداخله ، ولا غرابة في ذلك فوالده كان محامياً بارعاً لابد أنه أخذ من بعض صفات عمله .
بدأ يجهز بعض أنواع الطعام السهلة التي أعتاد علي تجهيزها سواء هو أو حليم ، نوعين من الطعام أو ثلاث كما يعتاد أي رجل يعتمد علي تجهيز طعامه بنفسه بلا مساعدة أمه أو أخته أو زوجته كالبيض المقلي أو المسلوق وبعض الفول وبعض الخضار

المقطع أيضاً ، لكنه ليس ببراعة حليم في هذا الأمر .
»هل هي محبوسة في مكان ما يا تري ؟! » ، هكذا كان يسأل نفسه وهو يقلب البيض ،
وهل المحبوسون هذه الأيام يخرجون في الصباح الباكر ثم يعودون إلي مواقعهم يا عمران ؟! ، هل أثرت رائحة البيض علي عقلك يا رجل أم أن البطن الخاوية تشوش علي تفكيرك ! ، ربما إذا امتلأت البطون فكرت العقول ، لم ينتبه إلا لرائحة البيض تزداد قد أوشك علي الاحتراق فقلبه بسرعة ووضعه في الطبق وجهز مائدته الصغيرة البسيطة ، مائدة رجلان أعزبان وحيدان في غربتهما .
استجمع أغراضه من جديد وأخذ يكمل بعض التفاصيل في لوحته منتظراً صديقه حليم حتى يأكلان سوياً . .

*****

في شرفة منزل راغب يجلس كل من ميرفت وحمدي وأمامهما كوبان من الشاي ، علي رغم السكون الذي يبدو عليهما إلا أن نظرات ميرفت المرتكزة علي ذرات الهواء كانت تبشر بقدوم العاصفة .
» لم أعد أحتمل هذا الأمر أكثر من ذلك » ، هذا ما قالته ميرفت وهي ترتشف من كوب الشاي استعداداً لرمي بعض السهام .
نظر إليها حمدي مدركاً ما تؤول إليه هذه الكلمات لكن لا مانع

من بعض الخبث المتخفي بثوب الحذر من هذه السهام القاتلة .
»ماذا تقصدين يا ميرفت ؟! » .
وضعت ميرفت كوب الشاي فجأة واستعدت للإطلاق وللأسف سيكون حمدي هو المستهدف الوحيد وكأنه لم يفلح في حذره ، حسرة عليك يا حمدي . .
ألا تعرف ما أقصده حقاً ؟! ، أقصد هذه المهزلة ، مهزلة أبناءك اللذان تتركهما علي هوائهما لا يعرفان مصلحتهما ولا يوجههما أبوهما لشيء ، فقط يكتفي » أفعل ما تحب يا بني . . ما تراه مناسباً لك يا عزيزي . . هذه حياتكما وأنتما أحرار فيها » ، أهكذا تكون الأبوة يا حمدي برأيك ؟! اعتدل حمدي في كرسيه مستعداً للدفاع عن نفسه وأبناءه ، فقد كان في سابق عهده محامياً بارعاً يقدر بحكمته علي نزع اللقمة من فم الأسد دون إراقة نقطة دم واحدة ، وما الخطأ الذي ارتكبته في ذلك ؟! .
لا أبداً ، لم ترتكب أي خطأ ، إن حياتنا جميلة حقاً ، لديّ أبنائي حولي بزوجتيهما اللتان اخترتهما والأطفال حولنا في كل أرجاء البيت لا يكفون عن اللعب والصراخ . .
حمدي : زوجتيهما اللتان اخترتهما ؟! ، وهل ستفرضين عليهما زوجتيهما ؟! ، عن أي حياة تتحدثين إذا كانت بهذا الشكل ؟! ، قلت لكِ قبلاً إنهما أحرار في اختياراتهما وهذه حياتهما وهما أحق أن يختارا كل شيء فيها .

و أين هذه الحياة إذاً ؟! ، أين ابننا الكبير عمران الآن ؟! ، ترك وظيفته المرموقة في البنك حتى يذهب هنا وهناك ويجوب البلاد حاملاً بعض الأوراق والألوان لا أراه إلا في المناسبات ، حتى أنه قد رفض ابنة أختي كزوجة له ، وها هي قد تزوجت بآخر وحاملاً في طفلهما الأول ، ألا يحق لي أن أراه بجانبي وأن أري أحفادي أنا أيضاً ؟! .

أضاف حمدي مندفعاً وكأنه في ساحة المحكمة الآن : وظيفته المرموقة ! . . نعم بالطبع وظيفته المرموقة ، ولكن ما الجدوى منها إذا كانت لا تشبع شغفه ؟! ، الرسم موهبته وإبداعه منذ صغره ، ماذا لديّ الإنسان إذا ترك الأشياء التي يحب جانباً ؟!، هل يترك ما يشبع روحه فقط من أجل ما يشبع شكله في المجتمع؟! ، من أجل ما يشبع البطون فقط ؟! ، هل النقود هي كل شيء ؟! ، هل هذه هي الحياة يا مربية الأجيال ؟! .

ميرفت : يترك يا حمدي يترك . . لابد أن يعيش المرء حياة توفر له كل احتياجاته ، النقود هي ما توفر كل شيء .

حمدي : لا . . وسأظل أقولها لكِ دائماً ، لا بالوظائف ولا بالنقود ولا بالمراكز الاجتماعية ، إننا نعيش مرة واحدة فقط ، النقود نحن نصنعها ونأتي بها بأنفسنا ، لا قيمة للذهب إذا الإنسان قد ذهب من يصرفها إذاً ؟! ، الوظائف هي من تتحكم بنا تلتهم شبابنا بنهم ثم تتركنا حينما نهرم فقط ، فنكون قد فقدنا شغفنا

في الحياة ، أما المراكز الاجتماعية فلا فائدة منها إذا كانت العقول قد أكلها غبار التعالي والمظهرة والقسوة وظلم الضعفاء .

إن الحياة رضا ، رضا النفس والقناعة بما آتانا الله من رزق مقسوم ، شغف ، حلم وصبر وإصرار، سعي نحو تحقيق الذات وليس الملذات فقط ، ترك الأثر الباقي في نفوس خلق الله حتى بعد رحيلنا ، إيمان بالموهبة التي منحها الوهاب لنا وأنها ليست من فراغ ولا صدفة ملقاة في طريقنا ، تصديقاً للحقيقة بأن لقمة العيش تعطينا القوة لنعيش لكنها وحدها في النهاية ليست هدفاً لاستمرار الحياة .

لم تكتفِ ميرفت بكل هذه المرافعة الجبارة من حمدي فما كان منها إلا أن تثيره أكثر فكما تعلم هي أن إلام النفوس يجعل الألسنة تصمت ولو لبعض الوقت ، طبعاً لا عجب في قولك هذا ، المحامي المحترف الذي ترك وظيفته ومركزه خوفاً من التخلي عما يقوله الآن وكأن ما قاله للتو قد نفعه فيما سبق بل ويعلمه لأبنائه أيضاً .

وقف حمدي من مكانه وحاول إمساك نفسه عن ارتكاب الشر، وقال كلمته قبل أن يتركها وحدها في الشرفة ، حمداً لله أنه لم يجعلكِ تفسدين عقولاً أخري بتدريسكِ هذا ويا أسفي علي من أفسدت عقولهم سابقاً يا مربية الأجيال ، ثم ذهب إلي غرفته يتمتم في نفسه » الآن أعلم أن أولادي أكثر مني حظاً ، أحدهم

يجوب البلاد والآخر في الجيش ، ما ذنبي أنا هنا يا الله !» .

*****

بينما تشتعل النيران خارجاً ، إلا أن راغب لم يعلم عنها شيئاً ، إنه فقط هائم في شيء آخر ، شيء استهوي قلبه لسنوات طوال . . أما صحيح الهوى غلاب ! . .

جالساً علي سريره محدقاً في صورة تضم راغب و حياة وعمران في حفلة عيد ميلاد حياة الخامس عشر ، حينها كان راغب في عمره السادس عشر بينما عمران كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، صورة تضم المرح والتفاؤل في ضحكات راغب وعمران وابتسامة حياة المليئة بالحياة والبراءة ، المعني الحقيقي للأخوة بين كلا الصبيين ، معني الصداقة و الجيرة بين عمران وحياة ، وأخيراً براعم الحب بين كل من راغب وحياة .

أذكر جيداً أن في هذا اليوم لم نذهب أنا وأخي إلي الحفل سالمين من كلمات أمي وغضبها ، ولكن أبي العزيز قد تولي الأمر كعادته وتصدي لهذه القنابل المسيلة للدموع وقتها ، كم أنك عظيم يا أبي حقاً . .

*****

أذكر هذا اليوم كأنه البارحة ، كانت في الثانية عشرة من عمرها حينها ، تنتظر أمام باب العمارة المقيمة بها وتنظر لبوابة العمارة

المقابلة تنتظر وتنتظر ، حتى نزل أخيراً ، راغب الكسول . .
حياة : مرحباً أيها الكسول ، إنها السابعة والنصف ، ثم أشارت إلي ساعتها .
راغب لا يتمكن من التحدث من كثرة تثاؤبه : أمممم . . مرحباً ، مازلنا مبكراً جداً يا حياة !
حياة في نبرة غضب : مبكراً ! . . وماذا أنتظر من كسول مثلك غير هذا ؟! .
يكمل أثناء تثاؤبه : قلت لكِ أنا لست كسولاً .
حياة وهي مربعة يديها : أمممم نعم . . واضح . . هيا نذهب سنتأخر أكثر .
هكذا كانت في صغرها نشيطة علي عكسي أنا ، يبدو عليها القوة أحياناً كنت أخاف من النقاش معها مع أنها أصغر مني سناً ، لكن حمداً لله أنها تغيرت الآن وأصبحت رقتها فوق كل الحدود ، والأهم من ذلك خجلها واحمرارها اللذان أعشقهما كثيراً ، كما يجب للأنثى أن تكون .

*****

حسناً . . ماذا فعلت اليوم يا حليم ؟ . . هكذا بدأ عمران كلامه مع صديقه . .
حليم : فاتك الكثير يا رجل ، تجولنا بين السهول والوديان وانتظرت غروب الشمس أيضاً، أخذت لقطات رائعة اليوم ، سبحان خالق

هذه الأرض . .
عمران : عمل موفق يا صديقي . . مع من ذهبت إذاً ؟ .
حليم : مع مراد ابن حمزة وأصحابه ، طفل زكي ما شاء الله .
عمران ضاحكاً : مراد ! . . انتهي بك الأمر بصحبة الأطفال إذاً ! .
حليم : لا تستقل بمراد . . إنه يعرف عن بلاده ما لا نعرفه ، غير انه طفل زكي متطلع يريد تعلم كل شيء ، أنا حقاً فخور به وسأشجعه علي الأمر في الفترة التي أتواجد فيها هنا .
عمران : جميل . . أعلم أن هذا النوع يجذب انتباهك كثيراً . . الله معكما . .
حليم : نعم . . إن التنشئة السليمة تبدأ من هذا السن ،ف ما تعود طفلك عليه الآن سيرسخ في عقله ونفسه طوال عمره وبالتالي سيورثه لأطفاله فيما بعد ، لعل البشرية تتحسن أكثر من ذلك في أيامنا القادمة ، جعلنا الله سبباً في ذلك إن شاء الله.
عمران منتبهاً : التنشئة السليمة ! . . أري فيك أب مثالي يا رجل ، إذاً هل نزوجك ؟! .
ضحك حليم : لم يئن الأوان بعد يا رجل ، فقط شعرت بشيء جميل وأنا بصحبة الأطفال اليوم وخاصة مراد ، تمنيت حقاً لو أن لديّ طفل مثله وفكرت ماذا كنت سأفعل معه وكيف سأربيه وعلام أعوده وهكذا ، إنه إحساس جميل حقاً .
عمران : إذاً فكر في أمر الزواج .

ضحك حليم : وهل ستفعل مثل مراد اليوم ! ، لقد عرض عليّ الزواج من فتاة من القرية حتى يضمن استقراري هنا وأعلمه التصوير .
ضحك عمران : حقاً فعل ! . . طفل ذكي يسعي وراء هدفه ما شاء الله ، ومن تلك الفتاة ؟! .
حليم : وهل جئنا للعمل أم للزواج ؟! ، لدينا عمل علينا إنهائه ومسابقة لابد من ربحها أولاً ثم بعد ذلك إذا أراد الله السترة لنا حينها نفكر في الأمر .
عمران في إصرار : لديك حق . . لم تجبني هل رشح لك فتاة ما ؟ .
حليم يغلبه التثاؤب : نعم . . يقول عمته »خديجة» .
تعالت ضحكات عمران : ماذا ؟! . . عمته ؟! . . هذا ما كان ينقصك يا رجل . .
حليم في ابتسامة خفيفة : لقد فزعت مثلك تماماً في بادئ الأمر حتى قال أنها مازالت تدرس في الجامعة .
عمران : حقاً عمته صغيرة هكذا ! . . جميل . . وماذا . . . .
تثاءب حليم تثاؤباً طويلاً ثم قطع كلام عمران قائلاً : ما بك يا رجل ! ، ما هذه الثرثرة في الثانية عشرة ! ، دعك من الأمر أشعر بالنعاس الشديد ، لقد تعبت جدا اليوم ، دعنا ننم الآن حتى نلحق صلاة الفجر إن شاء الله .
عمران : حسناً لا تغضب كنت أتحدث فقط ، طابت ليلتك يا

رجل .
التفت كل منهما إلي وسادته وسرعان ما غطي حليم في النوم من التعب ، أما عمران فيخاف النوم فيحلم ثانية بتلك الفتاة التي طار عقله بها ، أو يبقي مستيقظاً فتسيطر علي تفكيره ويجن جنونه أكثر . . ما عاد النوم راحة ولا اليقظة تفيد .

*****

(الرابع من أغسطس)

بعد أداء صلاة الفجر خرج الشباب ومعهم عمران وحليم إلي أمام بيت حمزة حيث تسود المودة والمحبة والأخوة بين سكان هذا الحي حقاً ، يحاولون بقدر الإمكان الحفاظ علي عاداتهم الخاصة المتمثلة في تجمعهم بعد صلاة العشاء بعضاً من الوقت حيث السمر والسهر بين الرجال وأيضاً بين النساء مجتمعات داخل البيت يعدون بعض المقبلات والمشروبات المناسبة لسمر رجالهن وحديثهن الطويل كذلك ، ولا ننسي جلسة الأطفال أيضاً حيث اللعب واللهو الخاص بهم ، لا يمضي الكثير من الوقت حتى يحين موعد النوم ، كذلك تجمع الرجال أيضاً في صلاة الفجر وبداية يومهم بكوب من الشاي الفاخر بعد أداء الصلاة ثم ذهابهم إلي حقولهم وأعمالهم و تحضيرات النساء كل منهن في بيتها استعداداً لليوم الجديد ، هكذا وكأنهم يستقبلون بعضهم بتحية الصباح

ويودعون بتمني الأحلام السعيدة في المساء . إطار أسري مترابط وصداقة وجيرة مختلفة عن نظائرها ، جد واجتهاد وتعاون في العمل بين أسر هذا الحي الصغير كان كل من حليم وعمران يحسدوهم علي ذلك .

بدأ حمزة حديثه في نبرة تردد واعتذار للشابين قائلاً : حقاً أعتذر منكما ، لن أقدر علي أن أكون أنا الدليل كما اتفقنا مع اتفقنا مع حسان، إنه فصل الصيف وستشغلنا الزراعة والاهتمام بالمحاصيل ، كما تري إنه موعد حصاد التفاح و الزيتون هنا ونحن مشغولون هذه الفترة ، أعتذر منكما ثانية .

أجاب عمران في حيرة من أمره : ولكن يا حمزة أمامنا أقل من شهر فقط وسنعود ديارنا ! ، لم يكن ذلك في اتفاقنا ، ألا يمكنك ترك أعمالك لبعض الرجال وتأتي معنا ؟! .

أجاب حمزة في بعض الخجل : لا أستطيع يا عمران . . أنا حقاً أعتذر منكما . . لكن لديّ حل لهذه المشكلة وأنا واثق أنه سيكون الحل الأمثل إن شاء الله .

قال حليم متسرعاً : وما هو ؟! .

حمزة : أستطيع القول أن لديّ الدليل الأمثل لكما خلال رحلتكما إن شاء الله .

*****

انتهي حديث الرجال وطلع النهار وذهبوا لحقولهم ومحاصيلهم،

كذلك اتجه كل من حليم وعمران إلي منزلهما يفكران فيما قاله حمزة للتو . .
علي عتبة المنزل حاول عمران الرجوع للمسجد متظاهراً بأنه نسي ساعته هناك أثناء وضوئه ، فصعد حليم للغرفة بينما أخذ عمران يسرع في خطواته للمسجد .
رآها عمران علي بعد خطوات من المُصلي وقد بدأت في هرولتها قبل أن يراها أحد ، ولكنها لم تخفَ عن عين هذا المحقق الجديد في المنطقة . .
اقترب عمران منها بخطوات واسعة ثم نطق أول كلماته : من أنتِ ؟! . .
تجمدت الفتاة في مكانها تماماً ولم تحرك ساكناً للحظات ، لم تكن تتوقع أن يراها أحد هنا أو حتى أن يحدثها أحد ، تمسكت بوشاحها محاولة تثبيت يدها المرتعشة ، ثم انطلقت وكأنها قد صعقت بموجات كهربائية .
بدأ برفع صوته قليلاً بينما تبتعد عنه الفتاة : توقفي! ، لم أقصد أن أضايقك ، انتظري رجاءً . . فتنبه من علو صوته وخشي أن يسمعه احد وينتبه لأمره ولأمر الفتاة فسكت . . اختفت عن المنازل فدخل عمران إلي منزله .
وجد حليم جالساً علي سريره هادئاً ، فجلس هو الآخر في نفس الهدوء.

حليم : ماذا سنفعل يا رجل ؟! .
أجابه عمران في شيء من الضيق : تقصد في أمر الدليل ؟ .
حليم : نعم . . إنها خديجة ، فتاة ! ، هل ستقودنا فتاة أصغر منا حتى ! .
عمران ساخراً : ستتحقق رؤية مراد لك إذاً .
رد حليم متضايقاً : لم تكن كلمة قالها طفل صغير يا عمران ! ، كن جاداً يا رجل .
عمران : لم نعرفها بعد ، ولكن حمزة يشيد بها ومن كلامه عنها أعتقد أنها ستفيدنا ، في الأخير هذه بلادها وهي أعلم منا بكل كبيرة وصغيرة فيها .
حليم : لكنها صغيرة علي أن تكون دليلاً لنا ! .
عمران : ليس بالسن وإنما بالخبرات يا صديقي ، وقد قال أنها تعمل في هذا الأمر منذ مدة ، كانت دراستها في الجامعة بكلية الآثار متعلقة بهذا الأمر ، كما أنها ليست المرة الأولي التي تكون فيها دليلاً لأحد علي حسب كلام أخيها .
تفاجأ حليم من ردود عمران : من هذا الذي يتحدث معي؟! ، هل هذا عمران الذي لا يحب حتى سيرة الفتيات ؟! ، لمأعهدك بهذه الحكمة منذ زمن يا صديقي ، مر وقت طويل حتى سمعتك تشيد بفتاة والأغرب أنك لم تعرفها بعد .
عمران في شيء من الهدوء وكذلك التنهيد الحارق : نعم . . مر

وقت طويل يا صديقي .
تفهم حليم الأمر جيداً وعلم أن هذه السيرة تفتح شيئاً من جرح عمران القديم فقال في هدوء : هل ذكرتك بها يا صديقي ؟ . .
أجابه عمران بنبرة حزن : نعم يا صديقي . . إنها نفس سن » حياة » . .
قال حليم متنهداً : سيمضي يا رجل . . حتماً سيمضي يوماً ما . .
عمران : نعم . . يوماً ما . . لابد أن يمضي . .

»إن أكثر ما يوجع في الحب هو التضحية . . ولكنه ليس شيئاً بدون هذا الوجع . . نضحي بأشياء كثيرة فقط كي ننال من نحب . . أو حتى ننال لحظة معهم . . كي ننال رضاهم أو ابتسامة منهم. . وما بين طرفة عين وانتباهها نكتشف أننا في غير مواضعنا . . فيأتي الوجع الأكبر والأعظم . . حينما نضحي بهذا الحب نفسه . . ليس فقط لأجلهم . . بل ولأجل من يحب من نحبهم . . وتجد الكارثة الكبرى حينما يعنيك الطرفين معاً أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم . . »

*****

مازال قلبها يرجف خوفاً وجسدها يرتعد من هذا الغريب الذي اكتشف أمرها ، وكأن صوته مازال يتردد في أذنها ، كأنه مازال خلفها ويلاحقها ، من هذا يا تري ؟! ، هل له علاقة بنصار أو هو

أحد حراسه ؟! ، لا لو كان من حراسه لعرفها فوراً ، لابد أنه جديد في المنطقة ، ما شأنه بها إذاً ؟! .
حاولت أن تتمالك نفسها وذهبت إلي غرفة أمها للاطمئنان عليها ، مازالت نائمة من أثر الأدوية التي تأخذها ، ذهبت » ليلة » إلي غرفتها وأحكمت غلقها من أثر خوفها ، جلست علي الأرض مختبئة خلف سريرها وقد ضمت رجليها إليها وأحاطتهما بيديها ، وضعت رأسها فوق ركبتيها وأخذت تبكي بشدة ، تعلم أن لا أحد سيسمعها الآن ، أمها نائمة في غرفتها ، أما عن زوج أمها » نصار » فمازال نائماً هو الآخر في أحد الغرف داخل المقهى ، ذلك البيت الكبير المخيف الذي حوله إلي مقهى ليلي ، ليس متعباً من تأثير الأدوية كما هو حال زوجته المسكينة وإنما نائم ومتعب من تأثير الخمور والسهر ، إن البلاء الذي أصابنا أنا وأمي من » لبنان » يتلخص في زوج أمي » نصار » . .

*****

العاشرة صباحاً . . موعد ذهاب راغب إلي الجيش مرة أخري حيث تودعه كل من أمه وأبيه فيسلمان عليه ، كان حمدي يكره لحظات وداع أبنائه فكان لا يطيل فيها علي عكس ميرفت كانت تحب أن تطيل ولاسيما إذا علمت أن » حياة » تنتظر وداع » راغب » أمام مدخل عمارتها كعادتها عند رحيل » راغب » ليودع كل منهما الآخر ، ولكن حمدي كان يعلم بنوايا الأم جيداً.

حمدي :هيايا ميرفت سيتأخر.
قبل راغب يدها قائلاً : حسناً يا أمي
سأفعل كل ما نصحتني به ، بقي فقط بضعة أشهر وسأنتهي من الجيش إلي الأبد وأكون معكِ هنا طوال الوقت .
عقبت ميرفت في فرحة : هذا هو ابني الرحيم بأمه ، حماك الله وحفظك يا بني .
انطلق راغب ينزل الدرج بدل الدرجة درجتين حتى لا يطيل انتظار حياة أمام الباب .
لم تستطع حياة السيطرة علي فرحة عيناها حينما وقعتا علي راغب في بذلة الجيش التي تحبها عليه كثيراً ، ولكنه سيودعها الآن ويذهب ، فحزنت حينما تذكرت الأمر . لم يدرِ راغب ما يقوله فكان محاولاً إيجاد كلمات فقط لترد عليها حياة ويسمع صوتها العذب : آسف أني تركتك تنتظرين كثيراً . .
ردت عليه حياة في خجل : لا بأس ، في النهاية أعلم أنك ستأتي .
راغب : وكيف لا آتي ؟! ، لابد أن أراكِ قبل ذهابي ، إن النظرة التي آخذها منكِ قبل رحيلي هي أمل العودة ثانية بالنسبة لي يا حياة .
أدارت وجهها قليلاً وقد أحمرت خجلا لا تدري ما تقول . .
قال راغب محاولاً التقاط بعض الكلمات منها : ألن تقولي شيء؟!
سيطر عليها الخجل كلياً فمدت يدها إليه تعطيه مظروفاً وقالت : هذا لك ، ربما يقول بعض مما لا أستطيع قوله .

أخذه راغب من يدها فرحاً وزادت فرحته حينما أمسك بيدها وفيها المظروف غير مصدقاً ما يحدث . كانت يدها ترتجف في كل مرة تلامس فيها يدي بل وتحاول سحب يدها مني بسرعة في كل سلام بيننا لكن هذه المرة قد اختلف وداعنا ، لم تكن يدها ترتجف ، ولم تسحبها أيضاً ، بل أمسكت بيدي وضغطت عليها قليلاً كأنها تقول شيئاً ، كأنها تقول سأشتاق إليك ، هذا ما شعرت به حقاً ، لم تكن الأرض تسعني فرحاً ، أقسم أن قلبي كان يرقص في تلك اللحظة ، سأذهب ومعي هذه اللحظات في ذاكرتي لتهون عليّ تلك الأيام في غيابها ، كان حلماً جميلاً جداً انتهي حينما تركت يدها من يدي ، ولكن هذه هي الحياة . . لا طعم للحلوى في فم اعتاد علي العسل ، لابد من بعض الفراق حتى نعرف حلاوة اللقاء . .

نظر كل منهما للآخر مودعاً، لا يرغب في أن يدير ظهره لها ويمضي ولكن قد حان وقت الرحيل ، أدار ظهره آسفاً خاذلاً نداء قلبه بالبقاء ، ولكن هناك نداء آخر لابد من تلبيته ، بعض الخطوات والتفت إليها ، وجدها لم تحرك ساكناً فحزن ، ارتفعت حرارة الحب والشوق بداخله أكثر وأكثر ، ولكنه سيأخذهما معه لا شك ، غاب عن ناظريها فتحركت حينها حاضنة يدها التي أمسكت بيده . .

لقد كان فيها شيئاً غريباً عن كل مرة ، كأنها حياة جديدة ، إنها

دائماً مفعمة بالجديد ، حياة وهي كالحياة حقاً وإن كان يغلب عليها الجمال طوال الوقت ، لم أرَ منها إلا كل جميل ، علي عكس الحياة متقلبة بطبيعتها، رغم جهلي لسبب تغير الأمر هكذا إلا أني كنت سعيداً جداً بهذا التغيير ، إحساس الحب المتبادل ، شيء رائع حقاً ، يبعث فيك الروح من جديد ، أشعر باهتمامها ، حنانها ، وأنها ستفتقدني ، أشعر بخوفها حينما ضمت يدي بيدها ، إنه الخوف ، أجمل شيء بالنسبة للرجل هو الشعور بخوف أنثاه ، هنا تكمن قوته ، نعم شعرت بخوفها ، كصوت بداخلها يهمس في أذني » أحتاجك » ، ولا تعلم أني في أشد الحاجة إليها ، إلي اللقاء يا حياة . .

*****

بعد أداء صلاة الظهر أخبر حمزة كل من حليم وصديقه بأن خديجة علي وشك الوصول من العاصمة ، ومازالا لا يعرفان موعد انطلاقهم ، فدار بين الرجلين حديثاً آخر حول هذا الأمر .
عمران : حسناً يا حليم . . لن آتي معكما في هذه الرحلة .
قال حليم متعجباً : ماذا ؟! . . لماذا يا رجل ؟! .
عمران : غايتك هي المناظر البديعة الطبيعية لتصويرها ، أما أنا فغايتي أحد الأشخاص لأمثله في لوحاتي كسلسلة أو كقصة قصيرة، أعتقد أني قد وجدته هنا ، فلا حاجة لي بالتجوال بعيداً عنه . .
رد حليم في هدوء : تقصد وجدتها . .

تعجب عمران من رده ولم يجبه أكتفي فقط بملامحه المندهشة .
حليم : لقد رأيت لوحتك ، لم أقصد التطفل ، رأيتها صدفة بالأمس حينما وضعت الوسائد تحت سريرك لأختبئ مكانها ، وحينما ذهبت لجلب ساعتك من المسجد كنت قد وجدتها أنا هنا فوق وسادتك ، أتيت لأخبرك بذلك فلمحتك تقف خلف فتاة ما في زى الصلاة بينما هي كانت تسرع منك ، علمت أنها نفس الفتاة في اللوحة من نفس طريقة ارتدائها للوشاح حول رأسها ، ما الذي تخطط له يا صديقي ؟! .
أجابه عمران متنهداً : إن فيها أمر غريب ، عرفت منذ اليوم الأول الذي رأيتها فيه أنها ما أبحث عنه ، ولابد أن أبقي هنا بجانب غايتي ، اذهب أنت مع دليلك ولننهي ما أتينا من أجله يا صديقي . . ثم صافح كل منهما الآخر .
بينما الرجلان يتحدثان إذا بمراد يطرق الباب ففتح له عمران . .
قال عمران مُرحباً : أهلاً أيها الصغير . . كيف حالك ؟! .
مراد : أهلاً بك عمي عمران أنا بخير ، وصلت عمتي خديجة وسترتاح قليلاً ثم تنطلقوا في رحلتكم في تمام الساعة الخامسة إن شاء الله ، هل لديكما مشكلة في هذا الموعد ؟! .
حليم : لا يا صديقي ليس لدينا مشكلة ، أخبرها سنكون جاهزان في الموعد إن شاء الله .
ثم انطلق مراد ليخبر أباه وعمته بالأمر .

حليم : الخامسة ! . . موعد مناسب حتى نلحق غروب الشمس,
قال عمران في بعض الاستغراب : لا أفهم حمزة هذا يا رجل ، كيف يرسل أخته مع رجلين في رحلة في مناطق ربما تكون وعرة بالنسبة للفتيات ؟! .
حليم : قال أنها معتادة علي هذا العمل وأنها أفضل منه في ذلك ، من يدري ! ، ربما تكون بارعة في الأمر حسب ما يقول .
ضحك عمران قائلاً : نعم من يدري ؟! ، ربما ستكون زوجة أخي عما قريب ، أشعر بأن نبوءة هذا الصبي ستتحقق يا رجل .
ضحك حليم : كفاك يا رجل ، إنه طفل صغير لا تكن مثله ، هيا جهز معي ما يلزم لهذه الرحلة القصيرة .

*****

انتهت » ليلة » من مساعدة والدتها في تناول طعامها وأخذ دوائها ثم أخذت حماماً لتريح أعصابها من توتر اليوم ، كان لها حمام خاص ملاصق لغرفتها تماماً ، خرجت تجفف شعرها بالمنشفة متجهة إلي غرفتها فإذا بمن يفاجئها في الغرفة .
ليلة : ماذا تفعل في غرفتي ؟! ، أخرج ، هيا . .
أجابها نصار في برود تام : أردت فقط الاطمئنان عليكِ ، كيف حالك بعد ليلة البارحة يا ليلة ؟.
قالت ليلة متضايقة : لا تناديني بهذا الاسم ، أكرهه بنفس قدر كرهي لك ، كما أكره هذا المكان بكل ما فيه يا نصار .

اقترب منها نصار قائلاً في سخرية : بكل ما فيه ؟! ، هل نسيتِ أن أمكِ الحسناء تنتمي لهذا المكان ؟! ، هل تكرهين أمك يا ليلة؟! .
تحاول ليلة الابتعاد عنه : لا تقترب مني ، ولا تلفظ اسم أمي علي لسانك يا نصار .
حاول الاقتراب أكثر وأكثر حتى اصطدم ظهرها بالحائط حيث لا مهرب منه قائلاً : كم أحب أسمي حينما يخرج من بين شفتيكِ الورديتين الجميلتين يا ليلة .
قالت في غضب ولا يمكنها الحراك بعيداً عنه : نعم ، نصار الحقير ، هل يعجبك هكذا ؟! .
أمسكها من رقبتها وثبتها بالحائط : نعم يعجبني ، يعجبني غضبكِ ، يعجبني كل شيء منكِ ، يعجبني ما صنعته بكِ أيضاً ، ولكنكِ ستظلين ليلة ، ليلة بألف ليلة وليلة في عمر كل رجل أعرفه عليكِ ، هل يعجبكِ هذا أيضاً ؟! ، ها ! ، جاوبيني . .
نزعت يده من علي رقبتها وقالت بكل غضب وسخط : إذا بقيت ليلة فهذا لأنك نصار الحقير وستظل هكذا دائماً ، أخرج من غرفتي أيها الحقير ، ثم دفعته من صدره بعيداً عنها . .
شاط وجهه غضباً : لم ترِ إلا وجه واحد من نصار ، ستندمين علي ذلك . . يا ليلة . .
خرج من الغرفة وأغلق بابها فجلست ليلة علي الأرض وأخذت تبكي بشدة ، ثم تذكرت أمها في الغرفة الأخرى فأخذت تكتم

بكاءها ، مثل كل يوم وكل ليلة . .

*****

لم يخيم البكاء علي فنيدق فقط فقد خيم علي الإسكندرية أيضاً ، ولكن لم يكن لنفس السبب ، إحداهن تبكي من أثر الكره الذي احتل قلبها منذ زمن بعيد ، وأخرى تبكي بسبب الحب الذي صاحبها منذ الصغر وتخاف أيضاً ، ولكن تخاف من فقدانه بعدما يطمئن له قلبها . .

جلست حياة في غرفتها باكية خائفة من أبواب قلبها التي تجهل كيف تتحكم فيها ، تعلم أن راغب قد دخل منها منذ أول شجار له مع زميلها الذي ضايقها وخطف منها كتاب الرياضيات وجري ، منذ أول قطعة خبز تشاطراها معاً في استراحة الحصص ، منذ أول يوم استطاع أن يضحكها فيه بمزحه ومرحه ، منذ أول هدية أهداها إليها في أول عيد ميلاد أقامته لها والدتها بعد انتقالهما إلي هذا الحي فكان راغب هو أول من تم دعوته للحفل ، في كل صباح كانت تنتظر فيه راغب الكسول ويذهبا للمدرسة ، وحتى حينما كان يشرح لها ما لا تفهمه من محاضرات ودروس .

لقد تربع راغب في قلبها وعزم علي ألا يخرج منه أبداً ، وكذلك هي لم تنوِ يوماً أن تخرجه منه ، ولكن مخاوفها كانت تساورها دائماً ، إنه الخوف من الفقد بعد التعلق ، إن كل ما تتعلق به يرحل ، تعلقت بوالدها فرحل وهي في سن السابعة بسبب الثأر

، تعلقت بجدتها فرحلت وهي في سن العاشرة بسبب المرض ، لا تعرف شيئاً عن أقاربها منذ تركها للصعيد مع والدتها ، ليس لديها أية أخوة حتى ، بعض الأصدقاء فقط ولكن لكل منهن حياتها في آخر الأمر ، لا تملك من الدنيا سوي أمها ، أمها التي لا تحبها ميرفت وتسميها » الهاربة « ، فقط لأنها كانت تحمي طفلتها وأرادت لها حياة هنيئة بعيداً عن مشاكل الثأر والدماء والكراهية ، لم ترد لابنتها فقد آخر يوجعها فجاءت بقدميها إلي من تخاف فقده ، تخاف حتى مصارحة نفسها بحبه فتحبه أكثر ، ربما أرادت أن تبادله مشاعر الحب منذ زمن لكن هذا ما كان يمنعها ، لقد بادلته اليوم ببعض مما تشعر به ، ربما هذا ما يضايقها الآن ويزيد من خوفها . .

إنها بحاجة لما شعرت به حينما أمسكت بيد راغب وضمها بيده ، شعور الأمان ، إنه أهم من الحُب نفسه . .

*****

اقتربت الساعة من الخامسة ، جهز حليم كل ما سيحتاجه في هذه الرحلة القصيرة ، ما بقي إلا أن يتعرف علي خديجة ويعرف كيف ستكون رحلته .

ربت عمران علي كتف حليم وقال : حظاً موفقاً يا أخي ، سأفتقدك هنا .

ابتسم حليم قائلاً : نعم وستفتقد الماء البارد أيضاً .

ضحك عمران : لقد نسيته يا رجل ، ألا تلاحظ أنه قد مر أكثر من ثلاثة أيام دون أن تمسني قطرة واحدة علي غير عادتنا ! ، لقد تغيرت يا رجل ، ربما أصلحني هواء لبنان .
غمزه حليم في جنبه : نعم ألاحظ ، منذ بدأت بملاحقة الفتيات ، بل تقصد إنها من طيرت النوم من عينيك أيها المحقق .
ضحك عمران : حسناً دعك مني الآن ، هيا لنرَ زوجتك المستقبلية تنتظرك للرحيل لا تتأخر عليها منذ أول لقاء ، أتمني ألا تكون عاثر الحظ في هذه أيضاً . .
ضحك حليم : الله يستر من كلامك هذا يا عمران .

*****

حمزة : مرحباً بالرجال ، أين أشياءك يا عمران ؟! .
أجابه حليم في بعض التردد : عمران لن يأتي معي ، سينهي عمله هنا .
تظاهر حمزة بالمفاجأة : حقاً ؟! ، لم تخبراني هذا في الصباح ! .
عمران : نعم . . لقد قررنا الأمر حديثاً ، إن الرحلة ستفيد حليم أكثر مني أما أنا فعملي سيكون في منطقة قريبة من هنا .
قال حمزة في بعض الثقة : حسناً . . كنت أتمني مرافقتك يا حليم لكن ما باليد حيلة ، ستقوم خديجة بأفضل مما كنت سأقوم به صدقني ، إنها فتاة صغيرة لكنها بألف رجل وتعلم ما يجب فعله تماماً ، لا أخاف عليها مطلقاً حتى لا تساورك بعض الأفكار بما أنكما ستذهبان بمفردكما . .

حينها نظر حليم وعمران لبعضهما البعض كأن حمزة كان يعلم ما فكرا فيه بالضبط .
نظر حمزة إلي داخل البيت منادياً : هيا يا خديجة .
خديجة : آتية يا أخي ، حسناً . . كيف حالكما يا شباب ؟ .
وكأن جبل من جبال فنيدق قد وقع علي رأس كل من حليم وعمران في الوقت ذاته ، هل هذه خديجة ؟! ،همس عمران في أذن حليم قائلاً : هنيئاً لك يا أخي ، لقد تبدل حظك الآن ، أتمني من كل قلبي أن تتحقق رؤية مراد لكما . .
فهمس حليم هو الآخر وكان مبحلقاً بها : وأنا أيضاً ! ، أحم أقصد بخير . . كيف حالكِ ؟ .
خديجة : بخير . . من منكما حليم ومن عمران إذاً ؟! .
عمران مبتسماً : أنا حليم وهذا عمران . . يا ليت . .
استغرب حمزة من مزحته بينما غمزه حليم في جنبه قائلاً : إنه يمزح ، أنا حليم وهو عمران . خديجة : حسناً لا بأس . .
هيا بنا إذاً .
كانت خديجة علي عكس ما تحدث عنه حليم وعمران في غرفتهما . . فتاة غاية في الجمال . . الجمال اللبناني علي حق . . وجه ناصع البياض . . عينان تميلان للون السماء في صفاءها وهدوءها بعد عاصفة ضربت الأرض وانتهت فلم يبقَ إلا السكينة فقط . . شعر مائل إلي اللون البني تماماً كلون جبال فنيدق . .

لكنها كانت تغطيه بقبعة شبابية فلا يظهر منه إلا خصلة صغيرة تتمايل مع نسمات الهواء فوق وجهها الذي لا يظهر كاملاً من ظل القبعة عليه . . كانت ترتدي بنطلوناً من الجينز مع تي شيرت بنصف أكمام وحذاء ليس كأحذية الفتيات . . بالطبع كان هذا ما يناسب رحلتهما والمشي الطويل . . فتاة يغلب عليها الطابع الجبلي الفخم . . مع حلاوة هدوءه ومشهده . .

نظر الرجلان للحقيبة التي كانت تحملها خديجة ، إنها كبيرة جداً بالنسبة لحجم فتاة مثلها ، والغريب أنها تقف بثبات تام ولا تظهر أي تعب ، حتى أن حقيبتها أكبر من حقيبة حليم . لاحظت خديجة تحديقهما بالحقيبة فقالت : إنها حقيبتي الخاصة بالتخييم ، لقد اعتدت عليها في رحلاتي ، وضعت فيها كل ما سنحتاجه لا تقلقا .

رد عمران : أنا لا أقلق ، ولكن السؤال لحليم وحده الآن فهو من سيأتي معكِ ، ثم همس ثانية في أذن حليم «في الحقيقة سأقلق عليك أنت يا أخي . . لا تقترب من هذه الحقيبة . . أنا متأكد أن لديها كل أسلحة لبنان بداخلها . . كان الله معك يا رجل » ، فغمزه حليم مرة أخري حتى لا يقلق حمزة منهما .

ردت خديجة : حسناً لا بأس ، ستكون رحلتنا هذه مفيدة أكثر وأسرع بالنسبة لك يا حليم كمصور ، هيا بنا إذاً

حتى لا يفوتنا غروب الشمس في أول مكان سنذهب

إليه ، عن إذنك يا أخي ، إلي لقاء قريب إن شاء الله .

رد حمزة : تفضلي يا أختي ، إلي لقاء قريب إن شاء الله ، حظاً موفقاً يا حليم . .
حليم : شكراً لك يا حمزة . . إلي اللقاء . . إلي اللقاء يا صديقي .
عمران غامزاً لحليم وهامساً في أذنه : إلي اللقاء يا صديقي ، احترس من حقيبتها يا رجل ، لا تنسَ أن تحمل هذا الجبل عن النملة وإلا لحق بنا العار . .
ضحك حليم هامساً في أذن صديقه : حسناً . . وأنت أيضاً احترس من نفسك أيها » المحقق كونان» ، لا تفتعل المشاكل في غيابي يا رجل ، قالها وهو يغمز لعمران بعينه وقبل أن يلتفت للذهاب قال عمران بصوت عالي قليلاً ضاحكاً : ركز علي رؤية الطفل يا صديقي .
نظر له حمزة بتعجب قائلاً : من هذا الطفل الذي ذكرته ؟! .
حاول عمران كتمان ضحكته : لا شيء . . أقصد أن يركز علي تصوير الأطفال في رحلته ، تعلم أن الأطفال تجمل كل شيء حتى الصور ، عن إذنك يا حمزة ، قالها ثم هرب من أمامه قبل أن ينفجر بالضحك .

*****

لم يكن يعلم من أين يبدأ حديثه معها بالضبط رغم أنه رجل زكي، ولكن ما كان ينقصه هو خبرته في الحديث مع الفتيات ، للأسف كان بعيداً كل البعد عنهن .

حليم : هل سنمشي كثيرا ؟! ، أقصد هل سنركب أي شيء في هذه الرحلة ؟! .

ردت خديجة في الحال كأنها قد جهزت الرد منذ البارحة : لم نتخطَ أول شارع بعد يا حليم ، لقد تجولت مع مصورين عدة ولكن لم يسألني أحد هذا السؤال قبلاً ! ، برأيك ما الذي ستفوز به إذا ركبت سيارة أو دابة ما ؟! ، أيها المصور . .

أحس حليم بنفس إحساس الماء البارد الذي يغرق به عمران في الصباح الباكر ، لقد جربه الآن بعد إجابتها تلك ، كنت أحاول فتح أي موضوع يا فتاة ! . .

قال حليم محاولاً المزاح معها ساعياً لإخفاء قصف جبهته : حسناً، كنت أقصد أنكِ ربما تتعبين سريعاً من المشي والتجوال بما أنكِ فتاة .

لم تثر كلمته غضبها كما كان يظن فأجابته في هدوء مع بعض لؤم الفتيات : شكراً علي اهتمامك ، لكن لا تقلق أنا معتادة علي ذلك وأستطيع التحمل ، في النهاية إنه عملي اخترته بنفسي وأحبه كثيراً، ربما أحب التصوير أيضاً لكن لست بارعة فيه مثلك بالتأكيد .

أحس حليم ببعض الراحة ورد الاعتبار بعد هذه الجملة ثم أجابها : لا عليكِ ربما أعلمك إذا تسني لنا الوقت إن شاء الله .

ردت خديجة في بعض الانتصار : أتمني ذلك . . إن شاء الله .

حليم : لِمَ لا تعطيني حقيبتك ؟! ، تبدو ثقيلة عليكِ وكبيرة .

ابتسمت خديجة قائلة : لا أبداً ، أنا معتادة عليها كذلك ، ربما لو شعرت ببعض التعب أعطيها لك إذا كنت لا تمانع طبعاً .
ابتسم حليم قائلاً : بالطبع لا أمانع أبداً ، ولكن كما تحبين .

»إن طبيعة الرجال ليست مُحيرة كما طبيعة النساء ، كل ما يريده الرجل هو الإحساس بأنه رجل ، قائد وقدوة ، الإشادة به في كل وقتٍ ودون داعٍ ، إرضاء غريزته بأنه قوّام ، أما فِعل عكس ذلك فربما يتسبب بموته أثر سكتة دماغية وهذا نادر الحدوث ، أو بموت المرأة التي أمامه طعناً أو شنقاً والشائع في الأمر حرقاً بنظراته المُلهبة ، فإذا انطبقت هذه الأشياء علي جميع الإناث ، فلا تنطبق علي خديجة ، ولكن لا مانع من إدعاء بعض السذاجة واللؤم إذا تطلب الأمر ذلك أو ربما تداعياً للأمان . . »

*****

حمزة في بيته مع زوجته التي تكبر خديجة ببضع سنوات وتعتبرها كأختها الصغرى وتهتم بشأنها كثيراً ، تسأله عما دار بالخارج بينه وبين الرجال . .

رباب : هل ذهبوا ؟! .

حمزة : نعم . . خديجة وحليم .

رباب : وعمران ؟! .

حمزة : لم يذهب ، قال أن عمله هنا في مكان مجاور .

قالت رباب متضايقة : استغربك كثيراً يا حمزة ، كيف تدع الفتاة مع الرجال هكذا وتصر علي ألا يذهب معهما أحد ؟! .
حمزة : ربما يكونان غريبين لكن أعرف أختي حق المعرفة ، وأثق بها كثيراً ، لن يحدث شيء إن شاء الله ، إنها مهمة لبعض الوقت وستنتهي .
رباب : آمل أن تنتهي علي خير ، وألا يصيب فتاتنا أي مكروه من ذلك الغريب .
حمزة : إن حليم ولد عاقل ومهذب يهتم بعمله فقط ، كفاكِ قلقاً من فراغ يا رباب ، إنها قادرة علي حماية نفسها ، وإلا ما كنت سمحت لها بإكمال دراستها والعمل مع الرجال أيضاً ، سأذهب لإكمال عملي فالرجال بانتظاري .

*****

كان حمدي عائداً من عند الجزار فقابل » صفاء » أمام مدخل عمارتها مصادفة ، يبدو أنها كانت عائدة من السوق المجاورة وتحمل في يديها أكياس الخضار . .
قال حمدي مُرحباً : كيف حالكِ يا أم حياة ؟ ، وكيف حال حياة؟
أجابته صفاء بالترحيب أيضاً : بخير الحمد لله يا أستاذ حمدي ، كيف حالكم جميعاً وحال أم عمران ؟ .
حمدي : الحمد لله كلنا بخير ، إن عمران يبلغك سلامه ، دائماً يسألني عنكما .

صفاء : بارك الله لك فيه ، بلغه سلامي أيضاً ، متى سيعود ؟ .
حمدي : ربما في آخر الشهر إن شاء الله ، هذا ما يقوله .
صفاء : نلقاه بالسلامة إن شاء الله ، عن إذنك أستاذ حمدي .
كانت صفاء تحاول الإسراع في إنهاء حديثهما قبل أن تراهما ميرفت ، حتى لا يحدث أي مشاكل بسببها ، لكنها لم تعرف أن ذلك المنظار قد التقطهما معاً بالفعل من الشرفة ، يا لسوء حظك يا حمدي . .

لم يكد حمدي يدخل من باب الشقة ويغلقه ورائه حتى رآها واقفة له بالمرصاد تستعد لخناقة جديدة . .
قالت ميرفت في غضب : ماذا كنت تفعل مع صفاء ؟! .
حمدي محاولاً تفادي الخناق فيضع الأكياس من يده علي السفرة: لا شيء ، كنت أسألها عن حالها وحال ابنتها فقط ، وهي أيضاً سألتني عنكِ وعن حال الأولاد . .
ميرفت وهي مربعة يديها : حقا ؟! ، لا أريد سؤالها هذا ولا أريدها أن تقترب منك ولا من أبنائنا حتى . .
حمدي : ما بكِ ؟! ، لم نرَ منها أي مكروه أو مشكلة أبداً ، لماذا تكرهينها إلي هذا الحد يا ميرفت ؟! ، وما ذنب الفتاة ؟! .
ميرفت : أنا لا أكره أحد ، ولا أريد علاقتها بأي أحد منا ، إنها ترسم فقط حتى تدبس راغب في ابنتها . .

حمدي متعجباً : تدبس راغب ! ، لا اطمئني ، إنها لا تريد تدبيس راغب كما تقولي ، بل راغب هو من يريد ابنتها منذ طفولتهما وأنتِ تعلمين ذلك ولكن تعاندين ، إن ابنكِ يحب ابنتها ويريدها .، إلي متى سنظل نقولها يا ميرفت ؟! .

زاد غضب ميرفت إلي حد الغليان : و أنا لا أريد هذه الفتاة ولا أريد أمها حماة لابني ، لا نعرف عنها ولا عن ماضيها شيئاً ، سأزوجه بالفتاة التي أكون راضية عنها فقط . .
حمدي يحاول أن يكون بارداً حتى ينهي هذا الأمر : حسناً . . افعلي ما ترينه مناسباً لكِ واكسري بقلب ابنك الذي يعد السنوات حتى تخرجا و يتمني أن ينتهي من الجيش اليوم قبل الغد حتى يتقدم لوظيفة مناسبة ثم يفاتح أمها في موضوع الخِطبة . .
بدت عليها المفاجأة : ماذا ؟! . . هل أخبرك راغب بهذا ؟! .
لم يجد داعٍ للإنكار فقد فُضِح سر ابنه الصغير : نعم . . أخبرني بهذا قبل أن يذهب ، وأتمنى ألا تكوني سبباً في تحطيم حُلم طفولته أو حرمانه من الفتاة التي يحب .
ما كان من ميرفت إلا أن خيم عليها السكوت ، لكن سكوتها عن القول لا يعنِ سكوتها عن الفعل أيضاً ، بالتأكيد ستخطط لشيء ما . .

*****

خرجت حياة من غرفتها فوجدت أكياس الخضار علي السفرة، بينما تخرج والدتها من الغرفة وقد بدلت ملابسها للتو .
حياة : لماذا لم توقظيني يا أمي ؟! ، لقد نمت كثيراً .
جلست صفاء علي السفرة تفرز الخضار : لقد حاولت لكنِ فشلت في إيقاظكِ ، ما كل هذا الاستغراق في النوم يا تري ؟! .
جلست حياة علي كرسي هي الأخرى : لا أعلم ، لم أنم جيداً بالأمس، لم أشعر بالوقت ولم يكن في بالي أني سأتأخر إلي هذا الحد .
قالت صفاء مع الغمز بالعين : لابد أن هذا الضيق لأن راغب قد ذهب اليوم .
أحمرت حياة قليلاً لكن الضيق مازال مستمراً : ربما .
سألت ضاحكة : هل بلغتيه سلامي أم أنكما لم تذكراني حتى ؟! .
ابتسمت حياة : وكيف لا نذكرك ! ، يبلغكِ سلامه أيضاَ يا أمي .
لكن هذا الضيق لا يذهب بمجرد ابتسامة فقط ، فبدأت بقول ما بنفسها لأمها .
حياة : أمي ! .
صفاء : نعم يا صغيرتي .
حياة : حدثيني عن أقاربي .
وقعت الكلمة علي مسمع صفاء كوقع الصاعقة : ما الذي ذكركِ بهم الآن يا حياة ؟! .

حياة : أريد أن أعرف أي شيء عن عائلتي يا أمي ، هل هم أناس تخجلين منهم لهذه الدرجة حتى تتجنبي الحديث عنهم دائماً ؟!.

صفاء : لا يا عزيزتي ، إن عائلتكِ من أعيان الصعيد ، ولم أخجل منهم أبداً ولا مرة ، كل ما في الأمر أني أريدكِ أن تعيشي بسلام كما تحبين وكما أردتِ أن تعيشي دائماً .

حياة : وهل يختفي السلام بالقرب من عائلتي ؟! ، هل العداوة والكراهية بينهم إلي هذا الحد ؟!.

صفاء : لا يا ابنتي ، ولكن لو كنا معهم الآن ما كنتِ كما أنتِ ، و ربما ما كنت أنا معكِ .

حياة : ماذا تقصدين يا أمي ؟! .

تركت الأم كل شيء من يدها : حسناً يا عزيزتي ، لقد كبرتِ الآن وستفهمين ما سأقوله لكِ طالما أنكِ تريدين ذلك ، بعد وفاة والدكِ ، أقصد بعد مقتله علي يد أحد أفراد العائلة المعادية لعائلتكِ ، خفت عليكِ كثيراً وأصررت علي الذهاب إلي جدتكِ ، كنتِ وقتها في السابعة من عمركِ ، أرادوا أن يأخذوكِ مني غصباً حتى أعود إليهم ولا أتزوج من خارج عائلتهم ، احتميت بجدتكِ حينها وبقينا معها وأقسمت لهم أني لن أتزوج لكن لا يأخذوكِ مني ، ثلاث سنوات عشناها مع جدتكِ حتى سيطر عليها المرض تماماً ونال منها وتوفاها الله ، حينها أتوا إليّ وفي أشد أوقات حزني علي أمي والتي أشعلت حزني علي زوجي من جديد طلبوا مني

الزواج من عمكِ ، بل قرروا ذلك ولم يطلبوا موافقتي حتى ، لم أكن لأتزوج بأي رجل قط بعد أباكِ ولاسيما من عمكِ الذي صمم علي الأخذ بثأر والدكِ ثم أعلم أن الثأر سيكون منه يوماً ما ، فلِمَ أعيشكِ في هذا العذاب والفقدان طوال عمركِ ؟! ، ما وجدت حلاً إلا الهرب منهم ، جئنا إلي هنا وكنتِ في العاشرة من عمركِ وقتها ، ومنذ ذلك الحين ولم يجدنا أحد منهم ، وأحمد الله علي ذلك ، مرّ ثلاثة عشر عاماً دون أن أعرف عنهم شيئاً ، حتى أنني أخاف التفكير فيهم وأخاف سيرتهم ، أعلم أنهم سيعاقبونني علي فعلتي ويأخذوكِ مني ، وبالتأكيد سيقومون بتزويجكِ من داخل العائلة أيضاً .

بدت الصدمة علي ملاح حياة وبدأت عيناها تدمع : كل هذا يا أمي ! ، كم تحملتِ من الألم والفقد والخوف بسببهم ، الآن فهمت لماذا لا تتحدثين عنهم وتهربين من سؤالي دوماً طوال السنوات الماضية . .

قالت الأم وقد بدا عليها الحزن لما تذكرته ولدمع ابنتها الوحيدة : إنه قدري يا عزيزتي ، لا مهرب مما كتبه الله لنا ، فقط أسأل الله دوماً أن يحفظكِ لي ولا يصلون إلينا أبداً . .

حياة : وماذا عن أقاربكِ أنتِ ؟! ، ألم يكن لكِ أحد غير جدتي ؟! ، لماذا لم تحتمِ بأحد منهم ؟! .

قالت الأم وقد زاد حزنها : لم يكن لديّ سوي أخت واحدة ، كانت

أكبر مني بعامين . .
حياة : ماذا ؟! . . لديّ خالة ؟! .
الأم : حياة ، كان اسمها حياة ، أسميتكِ علي أسمها .
قالت حياة في صدمة : لم تخبريني عنها أبداً ! ، أين هي ؟! ، لماذا لم أرها ولا أتذكرها ؟! .
الأم : ذهبت منذ زمن ، بعد زواجي من والدكِ بأشهر قليلة و كنت حاملاً فيكِ حينها .
حياة : أين ذهبت ؟! ، هل تقصدين أنها . .
أسرعت الأم مجاوبة : لا ! لا تقوليها ، أتمني أن تكون بخير ، ذهبت بعيداً ، هربت مع من تًحِب وتزوجا ، هذا ما أبلغتني إياه في أحد المكالمات وقالت أنها تعيش حياة هنيئة معه وطمئنت جدتكِ أيضاً ، من وقتها لم نعرف عنها شيئاً ، حتى أنها لم تعرف بوفاة جدتكِ التي كانت ترغب برؤيتها كثيراً في شدة مرضها لكن لم نستطع الوصول إليها . .
حياة : هربت مع من تحب ؟! ، تخسر أمها وأختها من أجل من تحب ؟! .
قالت الأم مدافعة عنها : لم يعرف أحداً أن جدتكِ هي من دبرت لها الأمر ، لم تكن ترغب بأن تكسر قلبها وتحرمها ممن تحب ، أو تتزوج غصباً بذلك الرجل الذي أختاره لها جدكِ كما فعل معي أيضاً . .
حياة : جدتي؟! . . هل حرضتها علي ذلك ؟! ، لا أصدق ! .

الأم : إنه قلب الأم يا عزيزتي ، ستتفهمين ذلك فيما بعد .
حياة : وماذا عن جدي ؟! ، ألم يفعل شيئاً بعد هروبها ؟! .
الأم : أصابته الصدمة من جراء ذلك ، تبرأ من خالتكِ ومن الفضيحة التي فعلتها ، زاد مرضه وتوفاه الله بعدها بشهور قليلة .
حياة : وهل غصبكِ جدي علي الزواج من أبي ؟! .
قالت الأم مبتسمة مع دمعة لامعة في عينيها : نعم . . والحمد لله أنه غصبني ، كان أجمل شيء حصل لي في حياتي ، أحببت والدكِ كثيراً حد العشق ، وهو أيضاً أحبني كثيراً ، كان يفعل كل شيء وأي شيء أحبه فقط لإرضائي ، لم يكن يعلم أن رضاي يكمن في وجوده بجانبي فقط ولا أريد أي شيء غير ذلك ، كان أفضل رجل علي وجه الأرض في نظري ، أقسمت بعد مماته ألا أشم عطر رجل غير عطره ، ألا يحتضنني صدر غير صدره الواسع الحنون الدافئ ، وألا يلمس طرفي رجل غير والدكِ يا عزيزتي . . حينها نزلت تلك الدمعة الثمينة التي كانت تتوهج في عينيها . . ولا تنزل إلا علي ثمين . .
ما كان من حياة إلا أن قامت من مكانها وقبلت رأس أمها واحتضنتها بشدة ، فزاد بكاء الأم كثيراً ، كأنه بركان خامد منذ زمن وقد حان موعد ثورته ، لكنه لا يؤذِ سوي نفسه ، فحممه الملتهبة تأكل بعضها ، وغليانه داخلياً فقط . .

»إنه الفقد بعد الحب ، أن تعطي كل ما تملك لمن تحب ، فحينما يذهب ، يذهب معه كل ما ملكت ، فلا يعد لديك شيء لأحدٍ جديدٍ ، ولا حتى لنفسك ، ربما تندم علي ما أعطيت دفعة واحدة ، لكنك تتذكر ما أخذت أيضاً فيهوّن عليك الأمر ، لكنه أيضاً لا يهوِن كثيراً صدقني . . »
»تحزن ، و يستمر ذلك الحزن لفترات فيأخذ حقه منك كما يجب ، ربما لا يطول الحزن كثيراً عندما تعلم أنه يتذكرك مثلما تتذكره ، عندما تعلم أنه مازال يتنفس بعض الحب من ذكراكما ، ولا شك سيقتص الحزن منك إذا لم تجد أنفاسه في الدنيا ، فإن القتل برصاصة في القلب مباشرة أسهل بكثير من انتظار الموت الذي يأتي علي دفعات متباطئة ، ولا تستخف بذلك الندم الذي سيحرقك حياً إذا كان لرئتيه الوجود في مكان ما من هذا العالم ، لكنهما خاويتان من أي ذرة أكسجين تشاركتما فيها يوماً . . »

*****

» سبحان الخلاق فيما خلق وأبدع » هذا ما كان يردده حليم طوال خطواته ، أصابته الحيرة فيما يصور ، لكنه كان يصور كل شيء ، كل منظرٍ يدهشه ويدهش قلبه كان يصوره ، اندمج في عمله كثيراً ، يتحرك هنا وهناك ، يجرب الصورة من كل الزوايا ، لا يكل ولا يمل ، إنها طبيعة الله وأرضه ، لو أمكنه تصوير كل شبر فيها لفعل ، استغربته خديجة كثيراً ، لم تكن تعرف أنه جاد

إلي هذا الحد ، فحواره الأول معها لم يعبر عما تراه الآن ،أو ربما هذا هو السبب وراء عدم براعته في الكلام مع الفتيات ، انشغاله بعمله ، لقد نسي وجودها أيضاً ، غطت براعته واندماجه علي كل شيء ، استهوائه للمناظر والأشياء من حوله جعلها تضحك أحياناً لكنه لم يلاحظها بتاتاً ، حتى أنه لم يعتق الخراف والأغنام المارة في انسجام حيث استغل راعيها هدوء البلدة وفراغ طرقاتها وطقسها المعتدل ، » أعلم أن طبيعة بلادي بديعة جداً ، لكن هذا الفتي بدا بديعاً أيضاً . . لا أنكر الأمر» . . هذا ما قالته خديجة في نفسها .

من علي سفح أحد التلال استطاع حليم التقاط أروع صورة لغروب الشمس ، لقد تنقل في المكان أكثر من عشرين مرة ، جرب كل الزوايا ، حتى أنه كاد أن يسقط أكثر من مرة حتى نبهته لذلك ، وكل هذا لالتقاط مشهد الغروب ، قابلت مصورين عدة لكن لم يكن أحد منهم مثل هذا الفتي ، إنه تماماً كما أخبرني عنه أخي ، مع أنه قد حذرني من عمران لا أعلم لماذا ، لكن أدركت الآن أن لا خوف من حليم ، لكن لا بأس ببعض الحذر أيضاً ، مازلنا في أول الطريق وفي بداية رحلتنا ، الحمد لله أني لم أقم بتأجيل الرحلة بعد وصولي اليوم أكثر من أربع ساعات ، بالطبع حليم بحاجة لسنة كاملة وليس شهراً واحداً حتى يتمكن من السير للأماكن

التي اخترتها له ، ولو أصر علي تصوير كل حجارة تقابله أو كل شاه وخروف يظهر أمامه فبالتأكيد سنحتاج خمسة أعوام هنا ، كم أنه ظريف في طريقة أداءه لعمله . .

قالت خديجة مازحة : إذاً . . كم خروفاً صورت اليوم ؟ .

حليم وكأنه جاد : لا أذكر . . في الحقيقة لم أقم بعدهم .

خديجة : حسناً . . عدهم حينما تشاهد الصور في مصر .

حليم : وكأنكِ تمزحين ! . . صحيح ؟! .

خديجة : كنت أمزح بالفعل . . لكنك كنت جاداً جداً .

حليم : لم أعتقد أنها مزحة .

خديجة : إنك بارع يا حليم . . لكن براعتك هذه سوف تودي بك إذا لم تنتبه لنفسك .

ضحك حليم : تقصدين عندما كنت سأسقط ؟ .

خديجة : بالتأكيد . . لم تكن مرة واحدة . . لم أرَ أحداً تسيطر عليه الكاميرا إلي هذا الحد مثلك
أنت . .

حليم : نعم . . حينما يبدأ العمل أنسي كل شيء .

خديجة : لقد فعلت . . ونسيتني أيضاً .

حليم : ماذا ؟! ، أعتذر منكِ لو أني تصرفت أي تصرف غير لائق .

أجابت خديجة بابتسامة صغيرة : لا اقصد تصرفاً غير لائق ، ما قصدته انك نسيت وجودي منذ أخرجت الكاميرا ، إنك مشغول

بالتصوير جداً حتى نسيت أمر الطعام أو التخييم ، لابد أن نعد الخيمة وبعض الطعام ، قد حلّ الليل يا حليم .
أخذ حليم الحقيبة وأخرج الخيمة وأخرجت خديجة بعض الساندويتشات التي أعدتها في المنزل ، وضعتها علي جنب ليأكلاها بعد الانتهاء من تركيب الخيمتين .
بعدما انتهيا من إقامتها وإشعال النار بالقرب منها لإبعاد أي شيء يحاول أن يأتي أو يقترب ، جلس حليم وخديجة بجوار النار يتناولان الساندويتشات ويحيط بهما صوت كصوت المياه المتدفقة من أعلي..
حليم : ما مصدر هذا الصوت حولنا ؟! ، كأنه صوت ماء متدفق .
خديجة : نعم . . إنه شلال علي مقربة منا .
حليم : إذاً أين نحن الآن وإلي أين سنتجه ؟! .
خديجة : قضينا وقتاً طويلاً في مسافة قصيرة بالنسبة لما سنقطعه من مسافات ، هذا المكان يسمي » عيون السمك«، اعتقدت أننا سنصل إليه باكراً ، لكن علي أية حال جهزت لك بعض الأماكن الجميلة النادر ما يزورها أحد مثلك ، علي حسب ما فهمته عنك من أخي طبعاً ، تريد أماكن غير معروفة من قبل المصورين أو الزوار ولكن جمالها أخاذ بالطبع . .
حليم : تماماً . . هذا ما أبحث عنه ، عذراً لو كنت تسببت لكِ بالتعب أو الإرهاق .
خديجة : لا أبداً ، بل استمتعت كثيراً ، ليس عليك أن تعتذر بهذه

الكثرة .
ابتسم حليم للباقتها في الحديث ثم قال : عيون السمك ؟! . .
هل هذا اسم المكان ؟! .
خديجة : نعم . . مكان رائع به العديد من الأنهار الجارية و الشلالات ، أسمها هكذا لوجود نبعين كبيرين شبيهين بعيني السمكة ، وآخرون يقولون أن سبب التسمية هو أنه كانت توجد أسماك ذات عيون جميلة في أنهارها الكبيرة .
حليم : جميل . . بالمناسبة شكراً لكِ علي هذا العشاء الجميل .
خديجة : لا شكر علي واجب ، إنها بعض الساندويتشات ليس إلا .
حليم فرحاً : لكنها لذيذة ، هل تجيدين الطهي إذاً ؟! .
خديجة : نعم . . أحب طهي بعض المأكولات بنفسي عادة عندما أذهب للتخييم أو في رحلات كهذه ، لقد علمتني زوجة أخي .
ابتسم حليم قائلاً : خيراً فعلت ، شكراً مرة أخرى .
خديجة : عفواً . . بالصحة والهناء .
خديجة : حسناً . . أرجو ألا تتحرك كثيراً في الظلام فالمكان ملئ بالمياه بحيرات وأنهار وشلالات ، أتمني أن تصبر حتى الصباح . . تصبح علي خير .
حليم ضاحكاً : حسناً سأصبر ، تصبحين علي خير .
باتت الفتاة داخل خيمتها الصغيرة وبات حليم داخل خيمته أيضاً ، وظلت النار مشتعلة أمام الخيمتين حماية لهما حتى أكلت

بعضها وانطفأت مع بداية الصباح .

*****

شخص آخر لن يستطيع النوم هذه الليلة طالما أن القضية تناديه ، لم يجلس مع حمزة والبقية كعادتهم بعد صلاة العشاء ، بل أكتفي بالإنفراد مع لوحاته وألوانه فهناك قصة لابد لها أن تكتمل ، لم يكن يشعر بأن الواجب الذي علي عاتقه وكُلِفَ به هو من يدفعه لذلك ، بل شيء آخر ، شيء ما يجذبه نحو الفتاة بشدة ، منذ أول مرة رآها فيها وقد التهب هذا الشعور بداخله حينما سمعها في المُصلي تناجي ربها بكل هذا الصدق ، ربما يكون هو نجاتها ! .

خيّم الظلام علي كل شيء الآن إلا علي حدسه ، استعد للخروج من المنزل وأخذ ينظر هنا وهناك متأكداً أن لا أحد يراه . . فخرج .

أخذ نفس الطريق الذي سلكه خلف الفتاة لاحقاً بها في ذلك اليوم ، لم يكد يصل إلي منتصفه حتى فاجأته يد تمسك بذراعه وتسحبه بقوة تحاول منعه عما ينوي فعله ، لم يعرفه من شدة الظلام لكن صوته المألوف قد كشف عن هويته . . ماذا تفعل هنا ؟! .

عمران : حمزة ! . . لا شيء . . فقط كنت أتمشي .

حمزة : في هذا الظلام ؟! ، تعال معي إذاً ، سأمشي معك ولكن من اتجاه آخر .

لحق عمران بيد حمزة التي كانت تسحبه بقوة وكأنه يسحبه من ناحية شرٍ لن يقدر علي إخماده إذا أشعله .
جلس الرجلان في مكان قريبٍ من منازلهما وبعيدٍ أيضاً عن وجهة عمران . .
حمزة : لم أتفاجأ بأنك لم تذهب مع صديقك ، فعلمت ماذا تنوي أن تفعل .
عمران : لا أفهمك ! .
حمزة : لقد رأيتك تلاحقها في ذلك اليوم .
حاول عمران تضليله بعض الشيء : ألاحق من ؟! ، لا أفهم عما تتحدث ! .
رد عليه حمزة واثقاً من كلامه : بل تفهمني جيداً يا عمران ، تلك الفتاة التي تأتي إلي مسجدنا مع شروق الشمس . . » ليلة « . .
بدت علي ملامح عمران المفاجأة : ليلة ؟! . . هل تعرفها ؟! .
حمزة : نعم . . رأيتها مراراً تأتي إلي هنا في غياب الجميع ، كذلك رأيتها قبلاً بين السهول تبكي وتدعو ، أرجو ألا تقحم نفسك في المشاكل هنا وتقضي رحلتك علي خير يا عمران.
لم يعلق علي كلامه وإنما ركز علي أسألته فقط : إنك تعلم من تكون ! ، ما قصة هذه الفتاة ؟! .
حمزة : وما شأنك بها ؟! ، إنه باب شر لا نريد أن نفتحه ثانية .
عمران : لماذا باب شر ؟! ، وماذا تقصد بثانية ؟! ، وضح لي الأمر

أرجوك إنه يعنيني .
حمزة : ولماذا يعنيك كثيراً هكذا ؟! .
عمران : إنها الشخص الذي سيخدم لوحاتي ومسابقتي ، رجاءً قص عليّ حكايتها كاملة .
حمزة : ولم تجد إلا هذه الفتاة يا رجل ! ، إنها لعنة لمن يلحق بها ، طريق شر لا نهاية له ولا خلاص منه .
عمران : ولكن لماذا ؟! ، لن أترك الأمر حتى أفهمه ! .
حاول حمزة السيطرة علي غضبه قائلاً : إنها ابنة » حسناء » ، كانت راقصة في ذلك المقهى الذي رأيته . . ثم أخذ يروي قصتها . مرّ أكثر من عشرة أعوام ولم يرها أحد ، لا نعرف عنها إلا أن المرض قد تمكن منها ، والآن ابنتها ليلة من أخذت مكانها ، وذلك بأمر من » نصار » زوج أمها ، رجل حقير استغلها كما استغل والدتها أيضاً . .
عمران : راقصة ؟! . . تحت قبضة هذا الحقير ! ، ولكن لماذا لا تهرب منه ؟! .
حمزة : أعتقد أنه يُبقي علي والدتها وهذا ما يجعله يسيطر علي الفتاة ، لو كانت تستطيع الهرب لهربت منذ زمن ، ربما تحاول التخلص من هذا الذنب بمجيئها إلي مسجدنا كل صباح ، أعلم أنها تأتي فأشغل الرجال عنها حتى لا يراها أحد .
عمران : لماذا لم تحاول إنقاذها ؟! .

حمزة : إنه » نصار » النار التي تحرق ولا تُبقي ، يستطيع هدم قريتنا بأكملها إذا أراد ذلك ، ولا أريد الشر لأحد من قريتي يا عمران . .
عمران : الشر الذي لا تردعه يولد شروراً أكبر منه بكثير ، لماذا لم تحاولوا الاتحاد وإنقاذ هذه المسكينة وأمها ؟! .
أجابه حمزة في أسي : حاول أحد منا من قبل ، إنه الآن تحت التراب .
عمران : ماذا تقول ؟! .
حمزة : نعم . . صديقنا » أمين » رحمه الله .

*****

(الخامس من أغسطس)

إنه ضوء النهار قد تسلل إلي خيمتهما وأصوات بعض الطيور الجميلة التي تحيي الصباح الباكر وسط الطبيعة الخلابة ، كانت كافية لإيقاظ حليم ، فتح باب خيمته الصغيرة ونظر إلي الجمال البديع ، أخذه التأمل لدقائق حتى انتبه إلي الفتاة التي معه ، إن خيمتها مفتوحة ، وقف مكانه وأخذ ينظر هنا وهناك ، تخطفه النظرات إلي عوالم أخرى يعشقها كثيراً ولا يريد الاستيقاظ منها أبداً ، ولكن لابد من إيجادها ، إنه لا يعتبر نفسه في صحبتها وإنما هي من في صحبته ولابد أن يعيدها إلي أهلها سالمة ، بالطبع إنها طبيعة الرجال المعروفة . .

مضي بعض الخطوات ففوجئ ببحيرات وشلالات و الثوب الأخضر في كل مكان ، مزيج من الأخضر والأزرق والأبيض والبني ، ما هذه اللوحة البديعة ، سيطير عقلك يا عمران وستندم عندما تشاهد صور ما رأيته أنا في الحقيقة يا رجل .

وقع نظره علي شيء ما يتحرك في تلك البحيرة علي بعد أمتار قليلة منه ، إنها هي ، يا ويلي مما أري ! ، إنها أيضاً من خلق البديع جل شأنه فلا عجب في هذا الجمال الذي يقتلك بسحره ، شعر طويل بني اللون مفرود علي ظهرها قد بلله الماء فجعله في نظمٍ انسيابيٍ تطير فيه عقول الحكماء ، جسد مغطي ببعض الثياب الخفيفة يرتفع من الماء رويداً رويدا فيسحب الروح معه كلما ارتفع أكثر وأكثر ، حتى تنال منك تلك الشهقة التي ندعوها بشهقة خروج الروح من الجسد حينما التفتت مغمضة العينين تزيل بيديها بعض شعرها عن وجهها وتمسح برفق ونعومة قطرات الماء عن عينيها تتأهب لفتحهما ، فتلقي بسهامهما الساحرة عليك ، حينها يجب أن تبتعد عن نظرها قبل أن تتحول عينا القطة الزرقاء إلي عيني نسرٍ سيقتلع قلبك من مكانه إذا التقطك . .

هرب حليم إلي أمام خيمته حتى لا تراه أو تكتشف أمره ، بينما هي بالتأكيد ستستعد لارتداء بقية ثيابها ثم تأتي إلي مكانها ، بالتأكيد استغلت استغراقي في النوم حتى تحظي ببعض الخصوصية هنا ، يا ويلي إن علمت أني قد رأيتها .

أخذ يفكر فيما حدث للتو ويحدث نفسه وربما يحاسب نفسه حساب الملكين ، » ما هذا الجمال يا الله ! ، صدقني لم أقصد ذلك ، كنت أبحث عنها فقط فقد أصابني الخوف عليها ، إنها أمانة كما تعلم » ، فتجيبه نفسه الأخرى وكأن بداخله شخصان يتحاوران » لا تكذب يا حليم ! ، لماذا لم تتحرك حينما رأيتها في المياه إذاً ؟! » ، » حسناً . . لقد شُلت قدماي وشُل لساني أيضاً ، كانت ترتدي الثياب ، بالتأكيد لقد أخذت حذرها من ذلك الغريب الذي ربما يستفيق في أي لحظة » . . سامحني يا الله ! . .

اقتربت خديجة من مكان التخييم ولا تدري أن ذلك الصقر قد رآها ، كانت ترتدي مثل ثياب البارحة والاختلاف في الألوان فقط ، تي شيرت بنصف أكمام أيضاً لكن لونه أخضر فاتح ، فوق بنطلون أسود قصير بعض الشيء ، وشاح ربطته علي خصرها مزخرف بالأشجار والأغصان كأنه حفل من غابات الأمازون ، كذلك نفس الحذاء الذي لا ينتمي للفتيات لافتقاره للرقة المعروفة بعض الشيء في أحذية الفتيات ، أو ربما انتعلته لأنه مناسب لرحلات الجبال التي تقوم بها . لقد صورها بعينه الأدق من عدسات الكاميرا ، لقطة أسرع من لقطة الكاميرا ذاتها ، حتى قبل أن تصل إليه وخلال جزء من الثانية ، لا تخفي عليكم طبيعة الرجال ! .

اقتربت كثيراً وجلست في مكانها أمام بقايا نار البارحة ، تجفف شعرها الطويل بمنشفة أقصر منه ، حتى نطقت بأول كلامها لهذا

الصباح .
خديجة : صباح الخير ، هل أيقظتك أصوات الطيور ؟! .
كان حليم تائهاً في شعرها الذي تجففه لكنه حاول إخفاء ذلك بعض الشيء بإشاحة وجهه عنها ناحية الطيور قائلاً : صباح النور ، نعم صوتها جميل وتوجد الكثير منها هنا ، وأنتِ ؟! .
خديجة : أنا معتادة علي الاستيقاظ في هذا الوقت وربما أبكر من ذلك ، إنها طبيعة عملي .
ابتسم حليم لكلامها دون أن ينطق بحرف ، كان يدعو في نفسه أن تنتهي من تجفيف شعرها وتعيده كما كان تحت قبعتها الأشبه بقبعات الشباب ، عرف أنه كان من الأفضل لهما أنها لا تتصرف كالإناث منذ رآها ، حتى يكون هو في مأمنٍ من سحرها الفتاك . .

*****

بعدما انتهي عمران من مكالمة والديه والاطمئنان عليهما ، جلس يفكر في كل ما قاله له حمزة بالأمس ، إن هذه الفتاة لا تغيب عن باله أبداً ، بل ويحلم بها أيضاً ، ربما ألقاه القدر في طريقها كي يخلصها مما تدعو الله بالخلاص منه ، »نصار« ! ، أي إنسان هذا الذي يفعل كل ما حكاه حمزة ! ، إنه ليس إنساناً بالفعل . إن ما يشغله الآن هو هذه الفتاة ، الفتاة فقط ، »ليلة« . .

*****

بالعودة إلي الجمال والهدوء ، قد حزم كل من خديجة وحليم أمتعتهما القليلة بعدما تناولا شيئاً خفيفاً كان باقياً من عشائهما ، ثم أخذا في التجوال حول المكان . .
إنها » عيون السمك » ذات البحيرات السبع ، تتمتع بالطابع الشجري الضخم ، تلك الأنواع المعمرة كالصنوبر والسنديان وغيرها الكثير من الأشجار التي أضافت للبحيرة بُعداً جمالياً خاصاً ، تبلغ مساحة البحيرة نحو خمسة وأربعين إلي خمسين ألف متراً مربعاً ، وبعمق سبعة عشر متراً أو ما يقرب من ذلك ، تنتشر بهذه البقعة الصغيرة الشلالات الخلابة فلا يسعك الالتفات هنا وهناك لالتقاط هذا المنظر أولاً أم هذا الآخر الذي يناديك ، ذلك المكان جميل حقاً ومناسب لمن يهوي المشي ، فالطرقات هنا ليست مهيأة للسيارات بسبب ضيقها وبسبب الصخور أيضاً ، ما أجمل المشي والتخييم في أماكن كهذه ، هكذا تحس بحلاوتها حقاً ، كان لخديجة الحق في مجيئنا إلي هنا . .

لم نحس بانقضاء النهار من حلاوة الوقت الذي مرّ كالسيف ، ولكن عصافير بطني أخبرتنا بذلك ، ذهبنا إلي أحد المقاهي المشرفة علي الشلالات والأنهار ، قضينا بعض الوقت فيه وأكلنا ألذ الأطباق علي الإطلاق ، لا أعرف ما اسمها المهم أنها كانت لذيذة جداً ، أطباق تحتوي علي اللوز وغيرها تحتوي علي الجبن

والزيتون ، حيث هنا أبناء البلدة يعيشون حياة ريفية معتمدين علي زراعة اللوز والزيتون والحمضيات وأيضاً صناعة المربي وماء الزهر ، وها هي تحفة الغروب مرة أخرى . .

*****

ما بين المغرب والعشاء اجتمع حمزة وعمران علي غير عادتهما ولكن عن قصدٍ من حمزة حتى يعلم ما ينوي عمران فعله .
عمران : لم تأتِ هذا الصباح ، انتظرتها ولم تأتِ .
حمزة : ليس أمراً غريباً . .
عمران : لماذا تأتِ إلي هذا المسجد بالذات ؟! .
حمزة : إنها قصة طويلة ومحزنة . . كان صديقنا » أمين « رحمة الله عليه إماماً لهذا المسجد ، قمنا ببنائه بأنفسنا وحسب رؤيتنا البسيطة ، كانت رؤية أمين في الأساس وفكرته حتى نحافظ علي تجمعنا وترابطنا الأسري كما تري وكما عملت جاهداً علي ذلك من بعده ، بالتأكيد أخبر حسناء عنه ، تعرف عليها حينما رآها صدفة في أحد السهول أثناء عملنا فأخذها كلامه العذب عن الله وقصصه الدينية التي كان يرويها لنا ، بعدها أصبحت تأتي إلي هنا في بعض أوقات الصلاة أثناء غياب زوجها في العاصمة لأداء أعماله ، جاءت معها ابنتها الصغيرة في بعض المرات أيضاً ، لم يخفَ الأمر علي نصار طويلاً بل و تمردت حسناء علي عملها كراقصة وطلبت منه الطلاق ، رفض وثار وغضب ، حاولت الهرب

منه مراراً فهددها بابنتها وأخذها منها ، بعدها حدث ما حدث لأمين ، بالطبع كان نصار الفاعل وقد أخفي جميع الأدلة ، رحمة الله عليك يا أمين ، بعدها لم نسمع شيئاً عن حسناء غير أن المرض أصابها من أثر الصدمة أو لا نعلم حقاً إن كان قد فعل لها نصار شيئاً ، توقف المقهى عن العمل بعض الأشهر ، حاول نصار جلب فتيات أخريات تقوم بعمل زوجته ، مرّت بضع أعوام ثم تفاجئنا من أحد السكان يخبرنا أن الفتاة الصغيرة أصبحت هي الراقصة في المقهى وسرعان ما ذاع صيتها لجمالها . .

قال عمران في صدمة وأسي بالغ : هل بلغ ظلمه إلي هذا الحد ؟!.

حمزة : تقصد أن ظلمه لم يكن له حد .

عمران : هل مازالت الفتاة ترقص في ذلك المقهى ؟! .

حمزة : نعم .

عمران : وأنتم ! . . ماذا فعلتم بعدها ؟! .

حمزة : أغلقت القضية لعدم كفاية الأدلة أو الأصح لعدم وجودها من الأساس . .

عمران : وهل انتهي أمر أمين هكذا ؟! . . ماذا عن عائلته ؟! .

حمزة : لم يقدر والديه علي فعل شيء ، دفعهما خوفهما علي ابنهما الصغير » رابح » إلي الانتقال بعيداً من هنا ، ومن يومها لا نعرف عنهم شيئاً .

خِفنا جميعاً من ذلك المكان وشر صاحبه ، حاولنا بشتى الطرق

إبعاد من يعنينا أمره عن شِراك هذا المجرم ، حتى لا نفقد أميناً آخر ، فأتيت أنت الآن . .

كان عمران يستمع للقصة باندهاش شديد وصدمة كبيرة في الوقت ذاته ، لم يكن حمزة يعلم بأنه بهذه القصص يزيد من حماسة عمران بتخليص هذه الفتاة من هذا الدنيء ونصب الفخاخ له وإبعاده عن القرية بأكملها ، ثم فاجئهما آذان العشاء وقاما لأداء الصلاة . .

بعد الانتهاء من الصلاة ومن وقت السمر ، لم يكن ليهدأ عمران حتى يذهب إلي هذا المكان مرة أخري ،استعد للذهاب دون علم حمزة الذي قام بالتحري عن نصار وعلم أنه قد ذهب للعاصمة بيروت ، وسيذهب كثيراً بين الحين والآخر لأنه أغسطس وقت الصيف ووقت رواج نشاط نصار هناك ، نشاطه الغير مشروع . .

*****

في تمام العاشرة مساءً استعد حليم وخديجة للتخييم لليلة الثانية في » عيون السمك »، فيبدو أن حليم لم يشبع منها بعد ، سيقضيان الغد هنا ثم يعودان في الليل إلي منازلهما لقضاء بعض الراحة والاستعداد لزيارة مكانٍ جديد .

دخل كل منهما إلي خيمته لكن أحدهما لم تغفل عيناه ، إنه حليم ، يفكر في تلك الفتاة التي طيرت عقله بجمالها ، بل يفكر

في كلمات مراد حقاً ، » وماذا إن حدث يا حليم ؟! ، إنها فتاة متعلمة يعتمد عليها ، ذكية ومتفهمة أيضاً ، طاهية ماهرة ، بل وجمالها يفوق الحدود » ، فتجيبه نفسه الأخرى » لكنها من بلاد غير البلاد ، وليس الوقت مناسباً لأخذ هذه الخطوة ، العمل أولاً ، ثم لابد أن تتأكد من مشاعرها تجاهك يا حليم ! ، ماذا إذا كانت تحب أحداً من هنا ؟! » ، لا أعلم . . لقد طار عقلي ، وقلبي علي وشك الطيران أيضاً ، الله يستر يا حليم . .

*****

علي مقربة من المقهى وقف عمران حيث انتشر الرجال حول المكان ، ذهب من بين الأشجار إلي زاوية قد رحل عنها الرجل الذي يحرسها وذهب إلي أصدقاءه أمام المقهى . . اقترب من هذه الزاوية واختبأ في شجرة هناك ناحية المنزل الذي دخلت إليه الفتاة ، وجد نافذة مفتوحة وضع عليها قضبان حديدية ، كان يتضح منها نور الغرفة وبابها ، فتح أحدهم باب الغرفة ودخل ، كانت فتاة ملامحها غير واضحة له وتحمل شيئاً بين يديها كأنه وعاء طعام ثم دخلت وقفلت الباب ورائها ، أخذت كرسياً وحركته بجانب شيء ما وكأنه سرير ثم غابت عن ناظريه ، كان يلتفت حوله في هذا الوقت ليري إذا جاء أحد من الرجال أو اكتشف أمره ، مرّ بعض الوقت ثم وقفت الفتاة مرة أخرى من مكانها بيدها وعاء الطعام ثم خرجت وأغلقت الباب.

أتي الرجل مرة أخرى إلي مكانه فحاول عمران التسلل من بين الأشجار وساعده الظلام علي ذلك ثم عاد إلي منزله .

*****

(السادس من أغسطس)

مرّت ساعات من التفكير والأرق علي ذلك الشاب ، مع أول شعاع للنهار خرج من خيمته وذهب لإحدى البحيرات ليستحم ، كانت خديجة نائمة في خيمتها فانتهز الفرصة . .

مياه كهذه لا يجب لأحد أن يفوتها ، رميت بجسدي إلي البحيرة ناسياً كل شيء حولي ، كنت مسترخياً في المياه تماماً حتى كأني نسيت أطرافي فلم أعد أشعر بهم من روعة المياه وشدة استرخائي ، نسيت الفتاة مرة أخرى . .

استيقظت خديجة وخرجت من خيمتها فوجدته في البحيرة أمامها مغمض العينين وكأنه مستغرق في نوم عميق . . ما أعجبني في حليم حقاً هو كيفية استمتاعه باللحظات ، تأمله لكل شيء واهتمامه بأدق التفاصيل في عمله ، وهنا الآن في غير عمله أيضاً ، قليل ما نجد رجل من هذا النوع هذه الأيام ، مُحِب للحياة وللطبيعة ذاتها ، ليس فقط من أجل العمل وإنما من أجل نفسه أيضاً ، حتى طريقة استمتاعه بالطعام ، إنه ظريف أيضاً ، وجدت فيه بعض الصفات المُحببة لا أنكر ذلك . .

أخذت أتأمله في صمت وهدوء ، وهو لا يشعر بوجودي أبداً ، كان ليظل هكذا طوال اليوم لولا شيء ما سقط من الشجرة في البحيرة بفعل الطيور لما كان تيقن استيقاظي ومشاهدتي له . لا أنسي خجله في تلك اللحظة ، وكأنه فتاة عارية التقطها أحد ما في المياه ، علمت بعدم خبرته في التحدث مع الفتيات ولكن لم أتوقع منه كل هذا الخجل .

تمالك نفسه واستعد للخروج من المياه ، في الحقيقة لقد أسئت فهمه في هذه اللحظة ، اكتشفت أنه لم يسيطر عليه الخجل مني ، بل كان يخجل من طبيعة الفتاة التي ستجري من أمامه حينما تراه نصف عارياً ، كان يخجل لي ، جسد رياضي بدأ يظهر من المياه وأنا لا أحرك ساكناً ، كلما صمدت مكاني كان يزداد ثقة في الخروج حتى خرج كلياً من الماء مرتدياً قطعة ثياب داخلية فقط ، مازلت لم أحرك ساكناً حتى اقترب ، بدأ يقترب أكثر وأكثر ، إنه يقترب من المكان الذي أقف فيه ، فجأة مد يده أرضاً بجانب قدماي ، ارتعد قلبي كثيراً بل نزل في أنامل أصابعي أعترف بذلك ، لم أعرف أني كنت واقفة بجانب منشفته بالضبط ، التقطها ثم نظر إليّ مبتسماً » صباح الخير » فرددت له التحية » صباح الخير» ثم ذهب بمنشفته إلي حيث ملابسه.

التقت عيوننا للحظة ، عيناه البنيتان الغامضتان لهما رهبة من نوع خاص تسببتا في ارتعاش قلبي ، لم أتخيل أني ضعيفة لهذه

الدرجة ، أو من بين جميع الرجال هو وحده من جعلني أشعر بذلك . .

*****

وعلي صعيد آخر ، مرة أخرى حاول عمران الذهاب لمنزل الفتاة في الصباح الباكر، بما أنها تخرج في مثل هذا الوقت دون أن يراها أحد معني ذلك أن رجال نصار يكونون غير موجودين .
وقف خلف الشجر يراقب الأجواء في حرص فوجدها خالية تماماً من الرجال ماعدا أمام المقهى ، إذاً لابد أن الفتاة كانت تتسلل دائماً من ناحية المنزل ، فذهب إلي حيث النافذة التي رآها منها قبلاً فوجدها مقفلة ، تجرأ علي التحول للجهة التي لم يذهب إليها بالأمس مختبئاً في الأشجار فوجد نافذة أخري مفتوحة وبها قضبان حديدية أيضاً ، تيقن أنها غرفة الفتاة فظل مراقباً لها لبعض الدقائق ، إنها الفتاة تقترب من النافذة ، نظرت حول المكان جيداً ثم قامت بخلع الحديد من النافذة ووضعته جانباً ! ، هذا هو مخرجكِ إذاً ! .
نزلت من النافذة بكل سلاسة وبخفة الفراشات ثم وضعت الحديد مجدداً ، إنها هي ، بنفس الوشاح الأسود ولكن بدون زى الصلاة ، عرفتها من عينيها الداكنتين ، وكيف لي أن أنساهما وقد بت أحلم بهما ليلاً نهاراً ، فتاة يافعة حقاً وجميلة جداً ، ليس ذلك الجمال اللبناني الذي عرفناه في خديجة وإنما جمال مألوف

، لكنه يأسرك من أول نظرة ، إنها بثياب الفتيات التي تساعدها في الحركة وبالطبع القفز من النافذة بسهولة . . لاشك أن طبيعة لبنان تحرم الفتيات من التمتع بكونهن فتيات . . أو ربما إلي الآن فقط . .

*****

في الصباح الباكر وبفرحة كبيرة لا حد لها أسرعت حياة إلي منزلها لتخبر والدتها بهذا الخبر الذي انتظرته طوال خمس سنوات .
في فرحة بالغة احتضنت أمها وأخذت تدور حول نفسها : أمي . . أمي . . أمي . . نجحت بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف يا أمي ، سأصبح معيدة في كلية الهندسة يا أمي .
قالت الأم بفرحة مصحوبة بالدمع : حقاً ؟! . . الحمد لله يا ابنتي ، الحمد والشكر لك يا رب ، ثم احتضنتها كثيراً هي الأخرى وأخذت تزغرد وتزغرد .
سمعها كل من في المكان ومنهم حمدي في شرفته ومعه الجريدة ، حضرت ميرفت إلي الشرفة هي الأخرى .
ميرفت : ما الأمر ؟! . . من يزغرد ؟! .
حمدي : أعتقد أن الزغاريد آتية من منزل حياة .
ميرفت في عجب : حقاً ؟! . . أتمني أن تكون قد تم خطبتها إذاً .
أجاب حمدي في شيء من الضحك : ولكن كيف وراغب ليس هنا؟! .

اغتاظت ميرفت كثيراً من إجابته ولم تجب هي . . فقط ضربت الجريدة في يده .
خرجت صفاء إلي الشرفة وأخذت تزغرد ، وكأنها تعلن للناس جميعاً عن فرحتها وعن فخرها بابنتها ، إنه أفضل صباح علي الإطلاق ، فأخذ الجميع في سؤالها فأجابتهم و انهالت عليها المباركات من الجيران وبما فيهم حمدي أيضاً .
حمدي : مبارك لكِ يا أم حياة ، مبارك لكِ يا عزيزتي ، بالنجاح والتوفيق دوماً إن شاء الله . صفاء : شكراً لك يا أستاذ حمدي .
حياة في خجل : شكراً لك يا عمي حمدي .
نظر الجميع لميرفت التي لم تقل شيئاً فغمزها حمدي في يدها التي بجانبه فقالت في كل برود : مبارك لكما إن شاء الله .
أجابتها صفاء بنبرة الفرح : سلمتِ يا أم عمران .

*****

أخذ حليم الكاميرا من جديد ، كان يمشي متنبهاً لخديجة هذه المرة ، لكنه كان يخفي الأمر ، لا شك قد أعجبه ارتعاشها في الصباح عندما اقترب منها نصف عارياً ، لا ينسَ عيناها الزرقاء لحظة التقاءها بعينيه إلي الآن ، كان يعرف أنها لن تتحرك من أمامه حتى وإن رأته هكذا ، لكنه حاول هزّ مشاعرها قليلاً وتذكيرها بأنها فتاة . . تذكيرها بطبيعتها . .
إنه يوم حار ، خاصة أنهما يرتفعان علي تلٍ لالتقاط صورةٍ مميزة

، لم يتحمل حليم ثيابه فخلع قميصه وبقي بتي شيرت بدون أكمام فوق الجينز وربط القميص علي خصره فيتمكن من التحرك بالكاميرا ، أما خديجة فلم تكن تطيق الأمر أيضاً ، ضايقها شعرها كثيراً تحت القبعة الصبيانية تلك فخلعتها ، كانت بعيدة بخطوات عن حليم تدير ظهرها له وتنظر إلي أسفل التل وتوجه نفسها للهواء ، لكن كيف لحليم أن يفوته منظر جميل كهذا ، ودون أن تنتبه قد التقط لها بعض الصور أيضاً ، كانت تحلق بذراعيها في الهواء بينما يداعب الهواء شعرها الطويل ووشاحها الذي ربطته علي خصرها ، كأنها تطير ، إنها فتاة مفعمة بالحيوية والحرية . .

*****

هربت الفتاة بعيداً عن المنزل وأنا أتبعها بحذر حتى وصلت إلي غابة مليئة بالأشجار الضخمة والعالية ، جنة خضراء ربما لا يعرف عنها سوي هذه الفتاة ، قد يصل طول الشجرة إلي الثلاثين متراً تقريباً ، أما عن محيطها فتوجد أشجار يصل محيطها إلي ستة أمتار مما كان يسهل عليّ الاختباء منها ، فلما اطمئن قلبها خلعت وشاحها مسكته بين يديها خلف ظهرها ، شعرها أسود مثل سواد الليل بل أغمق منه ، شعر كثيف وطويل ملفوف بنظم جميل ، تماماً كما موجات البحر التي تأخذك بعيداً دون أن تشعر ، لكنها الموجات المظلمة الغامضة التي تخاف الاقتراب منها ليلاً ، فلا شك

ستُهلك . .
أخذت تطوف بالهواء وتدور حول نفسها ، تدور بين الأشجار ، كأنها طائر هرب من قفصه للتو فحاول استكشاف العالم ، تحلق و تدور وتدور، تدندن مثل العصافير ، تتحرك سريعاً ثم ببطء ثم سريعاً مرة أخرى ، حتى جلست مسندة ظهرها إلي شجرة كبيرة تخبئها بالكامل وأخذت تبكي بشدة ، لم أكن أعلم ما الذي عليّ فعله ! ، هل أذهب إليها فتفزع مني وتهرب ثانية ! ، أم أكتفي بصوت بكاءها الذي لا يفارق أذني منذ سمعته ذلك اليوم ، لكنه مرتفع جداً اليوم ، البكاء والبكاء ، ما رأيتكِ ولا مرة بغير بكاء يا فتاة ! . .
»إن البكاء لا يصلح الجراح ، بل يدميها أكثر وأكثر » ، هذا ما قاله عمران .
أصابتها المفاجأة من صوته لكنها لم تركض كما فعلت في المرة السابقة . .
ليلة : وماذا تعرف عن جراحي حتى تتحدث عنها ؟! ، لا أملك شيئاً في الحياة سوي البكاء . . حاول عمران الاقتراب منها ببطء فجلس مستنداً إلي شجرة مقابلة لها : تملكين نفسكِ .
ليلة : نفسي ؟! . . إنها أكثر شيء لا أملكه .
عمران : الطائر السجين يظن ذلك أيضاً ، يجهل أنه حتى وإن خسر عالمه وحريته فمازال بإمكانه التحكم بصوته ، بغنائه العذب ،

بيده أن يغني أو لا يغني ، فمازال لديه بعض الحرية
ضحكت ليلة ضحكة بائسة : حرية ؟! . . لحظة واحدة ! . . أشعر أني سمعت صوتك قبل ذلك .
أجابها عمران : أنا من ناداكِ عند المسجد .
وقفت ليلة من مكانها : أنت ؟! . . وهل تلاحقني ؟! .
عمران : إنكِ من تلاحقينني . .
ليلة : ألاحقك ؟! . . أنا لا أعرفك حتى . . من يلاحق من الآن برأيك ؟! .
عمران : تلاحقين أحلامي كل ليلة منذ رأيتكِ في المُصلي .
ليلة : أحلامك ؟! . . ماذا تريد مني ؟! .
عمران : لا أعلم . . هناك شيء بكِ يجذبني ولا أعلمه . .
ليلة : إنه نفس ما يجذب كل رجل إليّ ، لقد سئمت هذا الشيء . . أتمني أن أتخلص منه ومن نفسي علي الفور ، لكن كما قلت لك ، حتى هذه لا أملكها ، أدارت وجهها ثم بدأت بالذهاب .
عمران : سمعت نداءكِ في المسجد .
توقفت ليلة فجأة ونظرت إليه في دهشة ومازال أثر الدمع علي خديها . .
عمران : إنكِ من وقتها لا تفارقين أحلامي ، أجدكِ دائماً تناديني، أفيق دوماً علي صوت بكاءكِ ، أخبريني أنتِ بما تريديه مني .
ليلة : لا أريد شيئاً من أحدٍ ، ابتعد عني وإلا أخذوا روحك أنت

أيضاً .
رد عمران في جرأة كبيرة : لا يأخذ الروح إلا خالقها .
تعجبت ليلة من كلامه وجرأته التي خطفتها للحظة ثم استفاقت : إنك لا تعرف نصار ورجاله فلا تتحدث عنهم . .
عمران : لكنِ أعرف الله جيداً . . وما نصار ورجاله الذين تتحدثين عنهم سوي عبيد لله مثلنا ، لكنهم قد تناسوا وجود الله ، أما نحن فنؤمن بقدرته عليهم وقدرته علي كل شيء . .
ليلة : أتعلم أن لا أحد يجرؤ علي الاقتراب مني أو التحدث معي إلا بإذن منه ، إنك أول رجل يخالف هذه القاعدة ، كلما بقيت أكثر كلما اقترب موتك .
وقف عمران وحاول الاقتراب قائلاً : أخالف ، أنا دائماً ما أخالف القواعد ، لا أسير علي قواعد أحد ، ولن يكون موتي إلا في موعده وبالطريقة التي يحددها الله فقط .
لقد كان أول رجل يقترب مني فعلاً إلي هذا الحد ، أول رجل يتحدث معي دون إذن من نصار أو حتى بمعرفته . . علي الأقل إلي الآن . .
ضحكت ليلة قائلة في سخرية : صدقني لا تعرف ما تتحدث عنه ، إن كنت في نظرك طائراً ، فالكلام في وجه الطيور غير الكلام في وجه الضباع والذئاب . .
اقترب منها عمران بجرأة كبيرة وكأنه قال ذلك متحدياً : إن كان

المتحدث أسداً ، فلا فرق بين أي منهم ، لا الطيور ، و لا الضباع ، ولا الذئاب تقف في وجه الأسود . .
اندهشت ليلة من ردوده الجريئة واستغربته كثيراً ، لأول مرة يجذبها الحديث مع رجل بهذا الشكل المُلاحظ .
فجأة أمسك عمران بيدها وسحبها بكل قوته و ألقي بها وأسندها إلي الشجرة كأنه يخبئها من أحد الطغاة ثم وقف أمامها ووضع يده علي فمها لإسكاتها ، هناك شيء ما يتحرك خلف شجرة قريبة منهما ، ماذا لو كان أحد رجال نصار يتبعها إلي هنا ؟! ، تريث قليلاً وإذا بذلك الطاغي يخرج من خلف الشجرة . . إنه سنجاب!
نظر إلي الفتاة التي ألقاها بكل قوته فإذا بها كأنها تفقد وعيها من أثر رميته لها ، فزع عمران لما حدث وأخذ يحاول معها لتفيق ، لقد كانت رمية عنيفة حقاً يا رجل . .
فتحت الفتاة عيناها فوجدته قريباً منها جداً كأنهما يتقاسمان نفس الهواء ، ما هذه اللهفة في عينيه ! ، لم يسبق أن رأيت أحداً متلهفاً عليّ إلي هذه الدرجة ، لم أرَ في عيون الرجال إلا شهوةٍ أو رغبةٍ ، إلا هذه العيون ، إنها نظرات خائفة وقلقة ، هل هذه النظرات لي أنا ؟! .
حاول عمران التقاط أنفاسه من أثر قلقه قائلاً : أنا حقاً آسف ، هل أنتِ بخير ؟! ، لم أقصد صدقيني ، ظننت أن أحداً ما يتبعك إلي هنا ، هل تأذيتِ ؟! .

حاولت ليلة استجماع قواها وحركت رأسها قليلاً ، نظرت إلي حيث موضع عيناه تماماً لتري من هذا الطاغي يا تري ! ، إنه سنجاب ! . .

كانت نظرات تعجبها لعمران كافية لأن يجري من أمامها ، لكنه لم يفعل .

ليلة : إذا سمحت ! ، أشارت له بالابتعاد ، فابتعد في الحال .

قالت ليلة في بعض السخرية : ماذا كنت تقول عن الضباع والأسود؟! ، لماذا لم نذكر السناجب في حديثنا ؟! .

فهم عمران قصدها فحاول توضيح الأمر : خشيت أن يكون هناك أحد يتبعك فكنت أحميكِ حتى لا يراكِ !.

ليلة : يراني أنا ؟! . . أيها الأسد ! .

وضع عمران يده علي الشجرة وكأنه يحتجز الفتاة واقترب منها : نعم يرونكِ أنتِ ، أيتها الهاربة من النافذة ! . . فهمت ليلة ما يقصده بهذه الجملة ، ولكن عيونهم التقت ثانية ، هذه المرة لم تكن نظرات خوف وقلق ، بل نظرات تحدٍ و قوة من كليهما ، استمرت بعض اللحظات ولكن كأنها سنوات .

سحب عمران يده من علي الشجرة قبل أن تطلب هي ذلك ، وكان يبدو أنها لم تكن لتطلب الأمر ، هذا ما تبين لعمران بعدما سحبها .

تحركت ليلة بعض الخطوات للأمام ثم التفتت إليه قائلة : ما

اسمك ؟! .
أجابها عمران في ثقة واعتزاز : عمران . .
ليلة : إلي اللقاء يا عمران .
عمران : معني ذلك أننا سنلتقي ثانية ؟! .
ليلة : ربما .
عمران : متى ؟! .
ابتسمت ليلة : إذا تسني لي الهرب من النافذة مرة أخري .
ابتسم عمران هو الآخر . . فقد وصلت الرسالة بالمكان والزمان . . إذاً إلي اللقاء يا نهار .
قالت ليلة متعجبة : نهار ؟! . . لا أفهمك ! .
عمران : كل مرة رأيتكِ فيها كانت نهاراً . . إنكِ » نهار» .
ابتسمت ليلة فقد أعجبها ما قاله للتو ، ثم التفتت إليه ثانية قائلة في بعض الخبث : هذه غابات العذر التي تعج بالسناجب ، إنك قريب من مخبأ أحدهم ومكان تخزينه للطعام ، وهذا لا يبدو جيداً ، ثم أشارت إلي الشجرة المقابلة التي خرج منها السنجاب وضحكت ومضت .
فهم عمران قصدها فبادلها الابتسامة حتى مضت ، نظر للشجرة قائلاً : أيها السنجاب ! ، كنت أسداً للحظات حتى جعلت مني قِطاً أمامها ، علي أية حال ما ذنبك أنت ! ، في الحقيقة لو رأيت ما رأيته أنا لحسدتني كثيراً ، شكراً لك علي أي حال . . ثم رحل

هو الآخر .

*****

جلست صفاء تصلي في غرفتها ركعتي شكر لله علي نجاح ابنتها وفرحتهما ، طرقت حياة باب الغرفة ثم دخلت ، جلست بجانبها علي الأرض وضعت يديها حول عنق والدتها قائلة : أمي . . تمنيت لو كان راغب هنا فعرف .

ابتسمت الأم : سيأتي يا صغيرتي وستخبرينه بنفسكِ .

ابتسمت حياة لكلمات والدتها ولتفهمها ، قبلتها في خدها ثم قاما يعدان الغذاء .

*****

لم يكن نهاراً كأي نهار بالنسبة لها ، بل أجمل نهار في عمرها كله ، إنها أربعة وعشرون عاماً الآن و لا تذكر أنها فرحت مثلما فرحت اليوم ، ما أحسته اليوم ، تلك الرجفة في الروح كأنها زلزال أعادها إلي تلك الفتاة التي كانت بداخلها منذ زمن ، مازالت تذكر نظراته لها واقترابه منها ، حينما فتحت عيناها فوجدته يتنفس من هواءها ، خوفه حينما أغشي عليها ، رميته لها بقوة كأنها طائرة ورقية بين يديه . .

إنه حقاً قوي جداً ، مازال ظهري يؤلمني قليلاً ، جذاب وجرئ ، أول رجل أتحدث معه بإرادتي ، كان لي كامل الحرية في ذلك .

» حتى الطائر السجين في قفصه لديه الحرية بأن يغني أو لا يغني » . . أعاد لي نفسي بكلماته ، أشعرني بحريتي التي فقدتها منذ زمن ، أعطاني اسماً جميلاً علي العكس من كل شيء أعيش فيه ، لطالما كانت حياتي في الليل والظلام ، وحده من منحني النهار واسم النهار ، يا لعينيه الداكنتين الجريئتين ، بشرته المائلة للسمار ، قبضته القوية التي مازال معصمي يشعر بها إلي الآن ، كل شيء ، كل شيء كان جميلاً وكأن لي الحق في بعض السعادة مثل الفتيات . .

ذهبت إلي والدتها تطمئن عليها وتطعمها فلاحظت عليها تلك الفرحة التي لم تعهدها من قبل ، ذلك الثغر الباسم الذي ربما لم تره باسماً منذ نجاحها الأخير قبل تركها للمدرسة .

قالت ليلة في بعض البهجة الغير معتادة : إنه وقت الطعام يا حسناء ، سأتناول معكِ اليوم ، عليكِ أن تأكلي جيداً اليوم وإلا أكلت أنا كل الطعام ، أشعر أني يمكنني أكل طعام خمسة أفراد دفعة واحدة .

أخذت تناول أمها الطعام وتأكل معها هي أيضاً ، كأنها من فرط فرحتها تطعمها السعادة في كل ملعقة ، حتى أنهيا الوجبة كلها، وضعت حسناء يدها علي خد ابنتها مبتسمة وكأنها تقول لها

» مرّت أزمان وأزمان منذ رأيتكِ فرحة تضحكين هكذا يا ملاكي »

فهمت ليلة نظرات والدتها : نعم أمي ، أشعر بالفرح اليوم وربما لأول مرة ، ابتسمت لي الحياة أخيراً .
وكأنها تريد سؤالها » ما سر هذه البهجة يا ابنتي ؟ « .
ليلة : لقد رأيت شاباً اليوم لم أرَ مثله في حياتي ، شاب بعيد كل البعد عن نصار وعن عالم نصار ، حتى أنه لا يهابه ولا يكترث لسيرته كما يفعل الكل ، أحسست بكل شيء جميل يا أمي ، لأول مرة أشعر أني فتاة ، لأول مرة أشعر أني حية أرزق ، بل وأتنفس .
انقبض قلب حسناء وتغيرت ملامحها إلي الحزن وكأنها أيقنت أن نفس السيناريو الذي حدث معها ومع أمين رحمه الله سيتكرر الآن مع ابنتها ، أشارت لها بأصبعها » لا « .
قلقت ليلة هي الأخرى : لا أعلم يا أمي ، لكنه شعور جميل حقاً لم أعهده طوال حياتي ، تأكدي أني لن أتسبب في أذيته كما حدث مع عمي أمين سابقاً ، مازلت أذكره وأذكر ما حدث معه من نصار ورجاله .

*****

قبل بلوغ الثالثة عصراً حاول حليم التكفل بوجبة الغداء اليوم رداً علي ما أحضرته خديجة من طعام لهما ، استغل بقاءها في خيمتها ثم توجه لأحد البحيرات لصيد السمك ، هذا ما كان يبرع فيه أيضاً بصبره الكبير وتأمله . .
خرجت خديجة من الخيمة فرأته جالساً أمام البحيرة هادئاً

وصابراً جداً وكأنه يسكن هنا منذ آلاف السنين .
خديجة : أتحب الصيد ؟! .
حليم : أكثر مما تتخيلي بكثير .
خديجة في إعجاب : يبدو أنك متعدد المواهب وليس التصوير فقط ، وماذا أيضاً ؟! .
قال حليم مبتسماً : أعشق السباحة وأنسي نفسي حينما ألتقي مع المياه .
ابتسمت خديجة وهي تنظر أمامها مباشرة قائلة : نعم ، رأيت ذلك بنفسي .
نظر إليها حليم ليعرف ما يساورها من أفكار حينما قالت هذه الجملة ، لكنها كانت متعمدة أن تخفي عينيها عنه في هذه اللحظة بالذات وتنظر للمياه ، ربما أجابه احمرار خدها المقابل ناحيته ، وربما قد بدأ تطور مراحل إعداد الأنثى بداخلها .
نظرت إليه قائلة : هل تعتقد أن الحظ سيحالفنا أيها الصياد ؟! .
حليم : سنكتشف الأمر ، لا خسارة من المحاولة .
خديجة : ولكن ربما نخسر بعض الوقت دون أن نكسب أي سمكة .
نظر إليها حليم قائلاً في هدوء كأنه واعظ قد هبط من السماء خصيصاً ليعطيها هذه الحكمة قائلاً : » وإن يكن ، خُلِق الوقت كي نخسره يا خديجة ، لابد من استغلاله في فعل شيء ما بدلاً

من أن يستغلكِ بعدم فعلك لأي شيء ، ما أفضلها خسارة حينما تحاولين ».
نظرت إليه خديجة في إعجاب بما قال : نعم . . لديك حق ، لنحاول .
حليم : هدوء . . نحتاج لبعض الهدوء من فضلكِ .
ابتسمت خديجة ثم سكتت حتى لا يهرب منهما غداء اليوم .

بعد صبر وهدوء وتأمل ، تمكن الصياد الماهر من اصطياد أربعة سمكات مختلفة الحجم ، ساعدته خديجة في مراحل إعداد النار والشواء ، كم كان طعمها لذيذاً . .
إنها الساعة الخامسة موعد انطلاقهما للعودة للمنزل بعد انتهاء اليوم الثاني لهما في رحلتهما الاستكشافية والترفيهية في وقت واحد ، وصلا إلي منازلهما قبل بلوغ السادسة واستقبلهما حمزة وعمران أمام بيت حمزة ، بالطبع قد صورا كل شيء في الطريق وهما ذاهبان ، فلم يترك حليم نملة لم يصورها ، لذلك استغرق الطريق منهما وقتاً أقل في العودة ، إنه فقط وقت السفر مشياً علي الأقدام نظراً لضيق الطرق .
استقبلهما حمزة وعمران أمام بيت حمزة ولم يطيلا عليهما فدخل كل منهم إلي منزله ، حكي الرجلان لبعضهما ما حدث معهما في هذين اليومين بالتفصيل .

حليم : إذاً رأيتها وتحدثت معها ؟! .
عمران في وضع الاسترخاء علي وسادته : نعم . . يا لغرابتها وغرابة قصتها يا رجل . .
حليم : وماذا عن هذا المجرم ؟! ،عليك الانتباه منه جيداً يا عمران ، أرجو أن نعود سوياً كما جئنا سوياً يا رجل .
عمران : لا تقلق ، أنا أثق بك يا صديقي وأعلم أنك لن تحدث حمزة عما دار بيننا الآن ، إن الأمر فقط من أجل العمل وسيتم وينتهي بإذن الله ونرحل بسلام من هنا .
حليم : أرجو ذلك ، ولكن ما حكيته لي عن زوج أمها لا يبشر بالخير أبداً ، أتمني ألا تؤذي نفسك دون أن تشعر يا صديقي وإلا أخبرت حمزة ليمنعك ، إنه فقط العمل .
عمران : لن يحدث إلا الخير إن شاء الله . إذاً كيف وجدت الفتاة؟! .
ضحك حليم قائلاً : فتاة ! . . أشك أنها تجهل كونها فتاة ، تتصرف كتصرفات الرجال بالضبط ، لم أشعر بغيابك كثيراً فقد كان معي صديق آخر .
ضحك عمران : إلي هذا الحد يا رجل ؟! ، هل تقصد كونها جادة معنا ؟! .
قال حليم سارحاً في سقف الغرفة : » نعم . . في حديثها وجدت الجد والكلام دوماً عن العمل والانطلاق . . لم تبتسم نصف

ابتسامة حتى . . مختلفة عن طبيعة الفتيات تماماً . . خاصة بتلك الحقيبة التي تحملها علي ظهرها دون شكوى بل اعتادت عليها . . يحق لحمزة ألا يخاف عليها . . الآن فهمت لماذا يطمئن هكذا علي أخته التي تذهب مع رجل غريب وربما لأيام في رحلاتها الاستكشافية . . بالمناسبة لم تكن الحقيبة مليئة بالأسلحة كما اعتقدت » قالها ضاحكاً فضحك صديقه أيضاً . . ثم عاد ليسرح من جديد في سقف غرفته ولكن محدثاً نفسه هذه المرة دون أن يسمعه عمران . . »جامدة تماماً كما جبال فنيدق ، وقد علمت السبب ، إنها تُخفي أنوثة قاتلة خلف كل هذا الجمود ، الحذاء والكاب الصبياني واختيارها للملابس أيضاً ، طريقتها الجادة كذلك ، كل هذا ما يتطلبه عملها مع الرجال بالتأكيد ، ومن الأفضل لي أن تظل هكذا ، فلا أهلك بجمالها الفتاك » .

بات ليلته يفكر بها ، عينيها وشعرها ، عندما ألقي بها إلي الشجرة فاغشي عليها . .

لم أكن أقصد إلا حمايتها ، لكن غاب عن بالي أنها فتاة ضعيفة علي هذه الرمية ، حينما استفاقت وغاصت عيناي بعينيها الداكنتين لم أدرِ كم مرّ علينا ونحن هكذا ، لكن ليته طال أكثر .

شفتاها الورديتين ، لا أدري كيف منعت نفسي عن حبتي الكرز، إن الله سترنا بفضله لا شك ، أما حينما نظرت إليّ في تحدي بكل جرأة وشجاعة في المرة الثانية ، لم تكن لتتحرك لو لم أتحرك

أنا وأنزل يدي من علي الشجرة ، عيناها كأنهما نطقتا بذلك ، ابتسامتها عندما أخذت منها موعداً آخر ، حقاً يليق بها الابتسام والفرح . . يليق بكِ النهار يا «ليلة» . .

«يُقال أن الرجل يُحِب بعينيه ، بالطبع لا يقدر علي منع قلبه من الخفقان لشيء جميل ، إنها إشارة العين التي تُبعث لقلبه بدل أن تُرسَل للمخ ، ما يتنافي مع الطبيعة البيولوجية للجسم ، ولكن ما يُفزِع في هذا الأمر هو استهوائه لكل جميلٍ يراه ، فبقدر ما يري من جميل بقدر ما يقع في حبه تماماً ، لذلك علي المرأة الذكية التي ترغب في الانفراد بحب شريكها أن تقتلع كلتا عينيه ، ربما هكذا تضمن عدم وقوعه في حب غيرها من النساء ، ربما . . »

*****

(السابع من أغسطس)

جاء الصباح بموعده المنتظر فذهب عمران إلي نفس المكان ونفس الشجرة ، بضع دقائق وقد طلت بنورها البراق .

ليلة : هل صادفك نفس سنجاب البارحة ؟ .

عمران مبتسماً : ليس بعد ، ربما ينتظر قدومكِ أنتِ .

ليلة : ربما ، أصادف منها العديد في كل مرة . . أعتبرهم أصدقائي.

عمران : إذاً . . هل تأتين إلي هنا كثيراً ؟ .

ليلة : نوعاً ما . . كلما تمكنت من الهرب .

عمران : لِمَ هذا المكان ؟! .
ليلة : لا اعلم . . ربما لأنه مكان ترتاح فيه روحي كثيراً . . إنه يشبه الجنة التي أجهل شكلها . . »غابات العذر« .
عمران : نعم إنه مكان أشبه بالجنة فعلاً .
التفتت إليه ليلة قائلة : إذاً . . ما قصتك ؟! .
تنهد عمران قائلاً : لا أعلم . . ربما تُكتب قصتي الآن .
ابتسمت ليلة : لا يبدو أنك من لبنان . . صحيح ؟! .
عمران : نعم . . جئت في رحلة عمل مع صديق لي وسنرحل بانتهاء هذا الشهر إن شاء الله . . إنني من مِصر . . الإسكندرية.
ليلة : عروس البحر .
عمران مستغرباً : نعم ! . . عروس البحر .
فهمت نظرات التعجب لديه قائلة : لا تستغرب كثيراً . . أخشي القول أنني من مِصر أيضاً .
نظر عمران باندهاش : ماذا ؟! . . وكيف أتيتِ إلي هنا ؟! .
ليلة مع تنهيدة طويلة : إنها قصة طويلة وغريبة نوعاً ما . .
ابتسم عمران : أحب القصص والاستماع إليها . . طبعاً إذا كنتِ لا تمانعين ! .
ابتسمت ليلة هي الأخرى ، أصبحت لا تدري ما الذي تفعله هنا أو مع من تتحدث ، لكن سرعان ما أجابته ولا تدرِ كيف تسير الأمور هكذا وبهذه السرعة لكنها تسير ! .

إن أمي مصرية تزوجت من أبي رحمه الله مصرياً خالصاً وأنجباني هناك .
حاول عمران استنتاج بعض الأمور قائلاً : بعدها تزوجت والدتكِ من رجل لبناني وأتي بكما إلي هنا ! .
ليلة : نعم . . توفي والدي في حادث أثناء عمله وأنا في عامي الثالث ، بعدما بلغت عامي ، كنت في عامي الخامس حينما التقت أمي بنصار ، حاول استمالتها بشتى الطرق وأقنعها بالزواج منه والسفر معه إلي لبنان ، فأتينا إلي هنا من وقتها .
حاول عمران الاعتذار عن الأمر قائلاً : آسف لأني ذكرتك بذلك .
ليلة في لا مبالاة : لا أبداً . . لا عليك . . أنا حتى لا أتذكر أبي ، فقط روايات أمي لي عنه .
عمران : ولكن أين والدتكِ الآن ؟! .
لم تجبه ليلة عن سؤاله بل سألته مضللة إياه قائلة : ما العمل الذي أتيت إلي لبنان من أجله ؟! .
فهم عمران تحفظها في الكلام فلم يعقب علي ذلك ، أخذا يتبادلان الحديث ولم يشعرا بمرور الوقت عليهما ، سألته الفتاة قائلة : غريب أنك لم تسألني عن اسمي إلي الآن يا عمران ! .
قال عمران في بعض اللؤم : أسمُكِ « نهار» ، أخبرتكِ بذلك البارحة
ليلة : وما قبل البارحة ؟! ، إنه حقيقتي ، سكتت للحظات ونظرت في الأرض في بعض الحزن ، فبادرها عمران بكلماته : أعلم

أن اسمكِ »ليلة» .
ابتسمت ليلة في سخرية قائلة : كأنك تعلم الكثير عني ! .
عمران : ليس كثيراً ، وإنما ما يعرفه غيري هنا .
تنهدت ليلة قائلة : » ملاك » . . هكذا كانت تناديني أمي .
عمران : » ملاك » ، أسم جميل .
ليلة : أبي هو من أختار لي هذا الاسم وأصر عليه كثيراً ، اشتري لي قرطاً صغيراً من الفضة علي شكل ملاك حتى أضعه حينما أكبر ، لكن لسوء الحظ أضعت واحداً منه ، بحثت عنه ولم أجده .
أسرها عمران في نفسه وكأنه لم يجده .
نظرت ليلة أمامها قائلة في حزن : حتى لو كنت تعلم الكثير يا عمران ، فأنت حتماً لا تعرف كل شيء ، وإلا لما كنت موجوداً هنا الآن .
وقفت من مكانها تستعد للرحيل ، يمكنك أن تسأل العم حمزة عن حكايتي وحكاية أمي ، أعتقد أنك حين تعرفها لن أجدك هنا غداً ، وأتمنى ذلك ، لمصلحتك فقط ، رحلة موفقة لك ولصديقك في بلادنا ، ثم استدارت وذهبت دون أن ينطق عمران بكلمة .

*****

جلس حمزة في هدوء علي أريكته الخاصة داخل منزله مستمتعاً بكوب من الشاي أعددته له زوجته رباب بكثير من الحب والرضا فيستريح من عمله ، كان واضحاً عليه التركيز في أمر ما يشغل

تفكيره .
أما عن خديجة ورباب فكانتا في المطبخ يجهزان طبقاً متنوعاً من الفاكهة اللذيذة ، ولا يخفي علينا حوارات النساء في مثل هذه المواقف خاصة إذا غابوا عن أعين رجالهن لبعض الوقت .
كانت رباب تغسل بعض ثمرات التفاح وغيرها من الفاكهة اللذيذة بينما خديجة تقطع هذه الثمرات ، نظرت رباب للفتاة المستغرقة في التقطيع ولم تتكلم خمسين كلمة علي بعضها منذ رجعت من رحلتها مع هذا الغريب ، ربما هذا يدعو لقلق رباب علي واحدة من معشر النساء اللاتي لا يتوقفن عن الحديث إلا ربما أثناء الاستغراق في النوم ، والبعض منهن لا يكف حينها .
رباب : ما بكِ يا خديجة ؟! ، منذ رجعتِ وأنتِ مستغرقة في صمتكِ ، هل أكل لسانكِ خروف من خِراف القرية ؟! .
ضحكت خديجة قائلة : لا تذكريني بالخراف ، ربما قابلتهم جميعاً في هذين اليومين وتحدثت إليهم أيضاً واحداً تلو الآخر .
رباب متعجبة : ماذا ؟! .
خديجة : إنه ذلك المصور المهووس بالكاميرا وبتصوير كل كبيرة وصغيرة في البلدة ، أتحدث عن حليم بالطبع يا زوجة أخي .
ضحكت رباب : حقاً ! . . هل فعل ذلك ؟! .
خديجة : وما الذي لم يفعله أو لم يصوره ، لا أستطيع وصف براعته في التصوير ، لم أقابل مصوراً في حياتي هكذا إلي الآن .

رباب في نظرات اللؤم : حقاً ! . . وماذا وجدتِ منه غير براعته في التصوير يا تُّري ؟! .
خديجة وقد توقفت عن تقطيع التفاح : لا داعِ لهذه النظرات يا زوجة أخي ، تعرفينني جيداً ، غير أنه شخص يحترم نفسه ويحترم عمله كثيراً ، لا يركز إلا علي العمل فقط . .
رباب : حسناً . . قالت العمل فقط ! .
خديجة : نعم العمل فقط ، جذبتني غرابته فقط ليس إلا ، لن تصدقي أنه لأكثر من مرة ومن شدة استغراقه في عمله كان سيسقط من علي حافة أكثر من تل ليلتقط صورة أعجبته .
ضحكت رباب : مسكين . . بدل أن يسقط في حب الفتاة كاد يسقط من التلال ! .
ضحكت خديجة وأمسكت السكين مرة أخري ولكنها تهدد زوجة أخيها هذه المرة كنوع من الدعابة بينهما فتعالت ضحكاتهما حتى سمعهما حمزة .
نادي حمزة من مكانه : خديجة . . خديجة .
نعم يا أخي . . توقفت خديجة وزوجة أخيها عن الضحك فجأة ، تركت خديجة السكين وناولتها رباب طبق الفاكهة وذهبت إلي أخيها تلبي نداءه .
وضعت خديجة الطبق بجانب حمزة علي أريكته الخاصة : تفضل يا أخي .

أشار لها حمزة بالجلوس بجانبه : اجلسي يا خديجة . . فجلست في هدوء وطاعة . .
كيف كانت رحلتك ؟! ، أعلم أنكِ ستبيضين وجهي أمام الرجال .
خديجة : لا تقلق يا أخي ، كانت جيدة بما يكفي وسينتهي كل شيء كما تتمني بإذن الله .
حمزة : جيد ، تعلمين أني لم أقصر معكِ في شيء يا خديجة ، وفرت لكِ الطرق المناسبة والممهدة لدراستكِ الجامعية ولعملك أيضاً ، خاصة عملك مع الرجال في معظم الأحيان وذلك لأني أثق بكِ كثيراً وأعلم كيف ربيتكِ ، تعلمين كل ذلك . . أليس كذلك ؟! .
خديجة : بالتأكيد يا أخي . . كل الفضل فيما أنا فيه الآن يعود لك بعد الله سبحانه ، وأشهده أنك لم تقصر معي في شيء أبداً بل عوضتني عن أمي وأبي بعد وفاتهما وتأكد أنك أحسنت تربيتي إلي أقصي الحدود .
حمزة : بارك الله فيكِ يا أختي ، أصبحتِ فتاة ناضجة وصلبة الآن ، لكن لا أريد أن ينسيكِ ذلك شيئاً هاماً .
تعجبت خديجة : ينسيني ماذا يا أخي ؟! .
حمزة : أنكِ فتاة يا خديجة ، وكل فتاة لابد لها من السترة والزواج يا عزيزتي .
لم يكن الحوار من بدايته مبشراً بالخير ولكن كيف تهرب من هذا الأمر الآن يا تُري . .
خديجة : ولكن لا أفكر في هذا الأمر الآن يا أخي .

حمزة في نبرة من الجد : أعلم . . ولذلك أتحدث معكِ ، أرت أن أوجهكِ للأمر ، إنه سِناً مناسباً للتفكير في هذه الخطوة ، أرجو أن تدركِ ذلك يا خديجة .

خديجة : ولكن يا أخي فإن عملي . . .

حمزة مقاطعاً : العمل ليس كل شيء في الحياة يا ابنتي ، إنكِ فتاة تذكري ذلك ، ستكونين أماً يوماً ما ، ولا أخفي عليكِ كم أتوق ليوم عُرسكِ واللحظة التي أحمل فيها صغيركِ .

سكتت خديجة ونظرت للأرض لا تجد ما تقوله لأخيها فحاول حمزة الوصول لهدفه من الحوار سائلاً إياها : حسناً يا عزيزتي، أخبريني بوضوح هل تفكرين بأحد ما ؟ ، أو هل أعجبكِ شخص ما في عملكِ حتى ؟ . . ألم يلتفت قلبكِ لأي أحد ؟! .

رفعت خديجة بنظرها إليه مسرعة في الإجابة : لا . . لا يا أخي . . لا أحد ، أنا حتى لم أفكر في الأمر قبلاً .

قال حمزة في قليل من الضحك : حقاً ! . . ألم يتمكن أي حد ممن عملت أختي معهم أن يخطف قلبها ؟! .

قالت خديجة ولم يهتز منها شعرة واحدة لسؤاله هذا : لا يا أخي ، ربما حاولوا لكن لا شك أوقفتهم عند حدودهم ، العمل هو العمل فقط تعلم ذلك .

حمزة في شيء من الاطمئنان : أعلم . . فكري في الأمر ، أريدكِ أن تمنحي نفسكِ وقتاً بعيداً عن العمل ، وقت لنفسكِ فقط وما

يخصكِ أنتِ ، وعند تقبلكِ للأمر سنري مَن من العرسان يليق بأختي الجميلة التي لا مثيل لها .
خديجة وقد نظرت للأرض من الخجل : حسناً يا أخي . . دعنا ننتهي من العمل لهذا الشهر أولاً ، بعدها سآخذ قسطاً من الراحة لنفسي فقط أفكر فيه جيداً . . أعدك .
أنار كلامها وجه أخوها : تأكدي أني لن أفعل سوي رغبتكِ في الأمر ولن أغصبكِ علي أي رجل لا تريديه ، فقط أعطيني الإشارة ببداية تفكيركِ بالأمر .
ابتسمت خديجة ونظرت لأخيها : شكراً لك يا أخي .

*****

أتي حليم بكوبين من الشاي له ولصديقه المستغرق في رسمه حتى يركز أكثر . .
عمران : شكراً لك يا صديقي ، أحتاجه حقاً .
حليم : ما أخبار عملك إذاً يا رجل ؟! ، لا تخبرني عنه شيئاً ، هل اخترت من تلك الفتاة أن تكون بطلة لوحاتك كما قلت ؟! .
عمران وهو يرتشف الشاي : نعم . . سأرسم قصتها بكل جوانبها، سيكون عملاً مذهلاً أثق بذلك إن شاء الله ، حتى أنني أفكر بكتابة هذه القصة ، ربما سأجد بداخلي كاتباً أيضاً لِمَ لا !.
حليم : جميل، ولكن قبل أن تعمل علي ذلك لابد أن تأخذ إذن الفتاة أولاً ، ربما يعرضها للخطر! ، لا تستقل بهذا الأمر أيها

المحقق.
عمران : حتماً سترفض الآن يا رجل ، لكن لن أرحل من هنا إلا بعد إخبارها بما أنوي فعله ، ربما أتمكن من إقناعها مرة بعد مرة، عليّ أن اكسب ثقتها أولاً .
قال حليم في شيء من الحرص : عمران ، لا تتلاعب بالفتاة يا رجل وأخبرها بكل شيء ، إن قلوب الفتيات ليست اللعب التي جلبها لنا آباؤنا . .
عمران في نبرة الحزم : أعلم يا رجل أعلم ! ، ومتى تلاعبت بقلب فتاة ؟! ، دعني أركز في اللوحة .

*****

أوشكت الساعة علي الاقتراب من التاسعة مساءً ولا يعرف عمران كيف يهرب من حليم هذه المرة . . لكنه متظاهراً بالانشغال في لوحته .
قال حليم في شيء من التعب : أشعر بالنعاس ، لم أنم البارحة جيداً ، هل أصبح السرير غير مريح أم ماذا ؟! .
قال عمران متخابثاً : هل هو السرير أم أنك تعودت النوم في الخيام ؟! .
.ضحك حليم قائلاً : ربما . . لِمَ لا ! ، كانت رحلة رائعة يا صديقي
عمران : بالطبع رائعة ، الطبيعة وحليم والوجه الحسن .
قال حليم ضاح

كاً : كفاك يا رجل ، دعني أحاول النوم .
مرّ ما يقرب من النصف ساعة حتى تأكد عمران من استغراق حليم في النوم ، فقام ينفذ خطته.
تنكر عمران في ثياب سائح مصري أتي إلي لبنان ، وضع قبعة ووضع شارباً أيضاً ، تغير شكله قليلاً ، بركضه السريع وصل للمقهى قبل العاشرة وجلس علي كرسي وأمامه طاولة صغيرة ، أخذ يلاحظ في سكون ما يدور حوله ، عيناه لا تثبتان علي شيء معين فهي تستكشف كل شيء حوله ، نعم تبدو كمنزل متعدد الغرف ، مليئة بالكراسي والطاولات الصغيرة وهناك مكان أشبه بمسرح صغير وبعض آلات العزف البسيطة . لاحظه بعض الرجال ولاحظوا نظراته وفي الحال تيقنوا أنه غريب عن البلدة ، مظهره وملابسه يوضحان الأمر أيضاً ، وهذه القبعة التي وضعها ربما أدخلت الريبة إلي قلوبهم تجاهه خاصة أنهم في الليل ، دفع أحد الرجال صبي المقهى الذي يبدو عليه أنه لم يطأ العشرينات ليعرف من هذا الغريب .
الصبي : مرحباً بك في »مقهى السعادة« ، لم أرك هنا من قبل يا سيدي ، هل أنت جديد في قريتنا ؟! .
قبل أن يجيبه عمران حاول أن يطرد الريبة من قلبه فقد شاهد هذان الرجلان يدفعانه نحوه ، تكلم ببعض الثقة وكأنه سائح مرّ بالبلدة فزار المقهى قائلاً :

نعم . . أول مرة آتِ إلي هنا ، أنا سائح مصري أتيت مع بعض الأصدقاء لزيارة البلدة ومررت من هنا في طريقي .
الصبي : شرفتنا يا سيدي ، أنا عاصم في خدمتك ، هل تريد شراباً ما ؟! .
طلب عمران بعض اللوز وعصير التفاح ، هذا ما يعرفه بالنسبة لكونه سائح مصري أول مرة يزور البلاد .
نادي الرجال علي عاصم . . وبالطبع أخبرهم بما قاله له فبدا عليهم الاطمئنان قليلاً ، حتى أنهم ابتسموا له فبادلهم بالابتسامة أيضاً .
بدأ عدد زبائن المقهى في الازدياد ، إنها العاشرة بالضبط ، يبدو أنه عرض مهم ،تُري متى يكون موعد عرض ليلة ؟! . . لو أنك نمت باكراً أكثر من ذلك يا حليم ! ، هل فات موعد عرضها ؟! ، لا أعلم هل سأحضر ثانية أم لا .
بدأت الفرقة بالعزف وحياها الزبائن ، سرعان ما دخلت الجميلة إلي صالة الوحوش ، فتهللت أسارير عمران الذي لم يفته العرض . . إنها ليلة . .
ارتدت بذلة علي الطراز القديم ، كانت ذهبية اللون ، تلك المكونة من جزئين ، أكمام من قماش خفيف يتطاير مع حركتها ، أرجل واسعة مع بعض القماش الخفيف المتحرك جانباً كذلك ، بدأ العزف بطريقة الأساطير ، وكأنها ليلة من طراز ألف ليلة وليلة . .

بدأت الفتاة بالتمايل بخصرها النحيل وجسدها الممشوق فهلل الجميع لها ولطريقة رقصها المميزة وذات الطابع الخاص جداً ، تمايلت بأطرافها علي كافة أرجاء المسرح كفراشة علي غصن فقير لا يستحق تمايلها ، طائر يستعرض جماله الخلاب وألوانه الممتعة لا يعير الحاضرين أي اهتمام ، شعرها الكثيف الملفوف الأسود الذي أصابهم جميعاً بالجنون وتعالت أصواتهم حينما انحنت بظهرها للخلف وأخذت تلوح بيديها ناحية السقف فحركته مع حركة أكتافها حتى لامس الأرض من طوله ومن كثرته . .
حتى لا يشك أحد بعمران قام بمناداة الصبي وسأله : من هذه الفتاة ؟! .
عاصم : إنها ليلة ، نجمة مقهانا المميزة وصاحبة العرض المميز هنا ، ينتظر الجميع موعدها كل ليلة بفارغ الصبر . .
أبدي عمران إعجابه : نعم . . إنها حقاً مميزة ، هل ستعرض شيئاً آخر لهذه الليلة ؟! .
عاصم : لا . . لا تعرض سوي عرضاً واحداً فقط في العاشرة مساءً من كل ليلة .
عمران : يا للخسارة ! ، كنت أتمنى البقاء هنا لأيام أخرى حتى أراها ، خسارة لم أعرف بالمقهى إلا اليوم بالصدفة .
عاصم : نحن في خدمتك في أي وقت تشرفنا فيه يا سيدي .
عمران : شكراً لك يا عاصم . . هذا حسابي وهذا البقشيش لك ،

سأرحل حينما ينتهي العرض فلم يعد لديّ وقت كافٍ علي رحلتي .
عاصم : شكراً لك يا سيدي . . شرفتنا يا سيدي . . عن إذنك .

أوشكت ليلة علي إنهاء عرضها الراقص ، كاد الزبائن يقطعون أيديهم من التصفيق لها بعدما انتهت ، حيتهم جميعاً في جمود تام ثم ركضت من المسرح كأنها قد فك قيدها للتو .
أسرع عمران في الرحيل بعدما انتهي العرض تاركاً عاصم مع الرجال يحكي لهم ثانية ما أخبره إياه ، ابتسموا له ثانية فبادلهم الابتسامة مودعاً ثم رحل .

وصل إلي المنزل فوجد حليم نائماً كما هو ، فأسرع بإخفاء أدوات تنكره علي الفور وبدل ملابسه بهدوء حتى لا يكتشفه حليم ويخبر حمزة بالأمر ، ولكن بدأ حليم يتقلب في فراشه وكأنه سيستيقظ ، فأسرع عمران بالاحتماء إلي سريره وكأنه يستعد للنوم . .
حليم في نبرة النعاس وعيناه مغمضتان من التعب : ألم تنم بعد يا عمران ؟! .
عمران : انتهيت للتو يا حليم ، طابت ليلتك يا صديقي .
وهكذا انقضت هذه الليلة علي عمران مستلقياً علي ظهره واضعاً ذراعيه تحت رأسه مبحلقاً في سقف الغرفة يرسم فيها

بعينيه لوحته الرائعة والنادرة الوجود ، فكانت ليلته تلك بألف ليلة وليلة . .

*****

(الثامن من أغسطس)

خرجت »ليلة« هاربة من النافذة كعادتها متوجهة لمكانها المعتاد والذي أصبح أفضل مكان لديها في كل لبنان ، بل أصبحت تحب لبنان الآن ، كانت تخطو خطواتها ببطء مع دقات قلبٍ كالناقوس ، تخاف ألا يأتي بعدما طلبت منه البارحة ، لكن جرأته كانت توحي بعكس ذلك ، هل انتهي الحُلم الجميل بهذه السرعة ؟! ، أرجو ألا ينتهي يا الله . . أرجوك .
وصلت قريبة من الشجرة التي اعتادا علي الجلوس بالقرب منها في اللقاءات الفائتة ، رمت بنظرها إليها . . لم تره ، تجمدت قدماها للحظات ، ثم استدارت خائبة الأمل مستعدة للذهاب للكابوس الواقعي الذي لن تتخلص منه ولو حتى بحلم جميل .
عمران : إن هذه السناجب بارعة جداً ، لكنها بالتأكيد ليست ببراعتي .
ابتسم قلب ليلة قبل شِفاهها ، أغمضت عيناها وكأنها تحمد الله وتتنفس الصعداء . . ثم التفتت إلي صوته ، وجدته قد تسلق الشجرة جالساً علي أحد فروعها الضخمة وينظر إليها مبتسماً .

قالت في ابتسامة واضحة أضاءت وجهها : ماذا تفعل عندك ؟! .
عمران : تأخرتِ فقررت استكشاف بيوت السناجب ، ليس الأمر خطراً كما قولتِ من قبل .
ليلة في شيء من الضحك : حسناً . . أنزل الآن . . كُن حذراً .
قفز عمران ببعض المكر محاولاً التظاهر بأن قدمه قد أًصابها شيء . . ارتمي علي الأرض . . متأوهاً .
ركضت ليلة إليه علي الفور مفزوعة قد ظهر ذلك في عينيها الجميلتين : هل أنت بخير ؟! ، أصابك شيء يا عمران ؟! .
نظر عمران إلي عينيها وغرق فيهما ولا يدرِ ما قاله ، نعم أصابني ، عمران ! ، هل يُنطق اسمي هكذا ؟! . . أول مرة أشعر بجماله! .
احمرت ليلة خجلاً وعلمت أنه بخير ، إنها فقط حركة صبيانية منه ، تذكرت ما قالته لأمها وتراجعت عنه ثم سألته في جد ، ما الذي أتي بك اليوم يا عمران ؟! .
عمران : إنه نفس السبب الذي جعلكِ ترحلين عندما لم تريني هنا
وقفت ليلة في مكانها و أشاحت بصرها عنه قائلة : خطأ . . إن كل ما يحدث خطأ يا عمران ، لا أنكر أن صدفة لقاءنا كانت بألف ميعاد ، ولكن ماذا لو انتهي الألف ميعاد وبقيت ذكري الصدفة تؤلم قلوبنا ؟! ، أخشي قدوم الميعاد الأخير ، بل أخشي توقع نهايته يا عمران .

وقف عمران خلفها في ثبات قائلاً : لو كان خطأً لما حدث ، ما الصدف إلا أقدار لابد لها من الحدوث ، يمكن أن تكون ألفاً أو تزيد إذا دعونا الله ألا تنتهي ، بالدعاء يتغير القدر فتختلف المواعيد . . ما كانت صدفتنا عبثاً يا نهار .

نظرت له ليلة في استعطاف : لن يستمر . .

لأول مرة أمسك عمران بيدها قائلاً في نبرات الحنان : ومن نحن حتى نقرر استمراره من عدمه ، أؤمن أن كل شيء في الحياة يحدث لسبب ، جئت لهذه البلدة الصغيرة لسبب ، وجدتكِ في المسجد لسبب ، سمعت ندائكِ وبكائكِ المستمر لسبب ، رأيتكِ في أحلامي تناديني وتستغيثين بي لسبب ، وفي يقظتي تتبعكِ بصري هنا وهناك لسبب ، وأقف معكِ الآن لسبب ، وأمسك بهذه اليد لسبب ، لا أعلم كيف حدث كل ذلك أو متى حدث ، لكنه قد حدث ، أليس هذا دليلاً كافياً لاستمراره ؟! ، كل ذلك مكتوب ومقدر له الحدوث ، إذاً » فلندع ما يحدث ، يحدث » .

اطمأنت ليلة قليلاً ونظرت إلي يديهما ثم نظرت إليه باسمة ، داعية الله في سرها ألا ينتهي ، بل وأن يستمر ما يحدث .

»نعم . . قد أصابها ما لم يكن في حسبانها يوماً . . حتى أغسطس لم يعد مثلما كان . .

فماذا فعلت بها . . »

*****

في بيت حياة وحيث إنه الثامن من أغسطس ، عيد ميلادها الثالث والعشرين ، لكنه مختلفاً هذه السنة ، فراغب ليس هنا . أعدت أم حياة الكيك لاحتفالٍ صغيرٍ متواضع مع ابنتها ، فلا أحد آخر سيأتي ، في الأعياد السابقة كان يأتي عمران وراغب معاً ، اختلف الأمر قليلاً بمرور السنوات وبانشغال عمران المستمر عن حضوره هذه المناسبة ، إلا أن راغب لم يفوتها ولا مرة .
جلست حياة في غرفتها تقلب في هدايا راغب لها طوال السنوات الماضية ، ولا تنسَ أول هدية أهداها لها في أول عيد ميلاد أقامته لها والدتها بعد انتقالهما إلي هنا عندما كانت في العاشرة من عمرها ، إنها دُمية صغيرة علي شكل دب صغير أبيض اللون ، أسمته راغب ، راغب الكسول ، لطالما كان مثله تماماً ، تذكر أنها في وقتها قالت في نفسها » ما هذا الدب الكسول ؟! ، أينما أضعه أجده كما هو ولو بعد مرور ساعات ، إن هديته كسولة مثله » ، وكأن الدمية الصغيرة لديها ما تفعله أو مشغولة في الكثير من الأمور مثلنا ، أو حتى بعد مرور بعض الوقت ستشعر بالملل وتتحرك في أرجاء المنزل ، كم كنت أنتقده وأتشاجر معه من فراغ ، لكن هذا لا شك هو سبب الحب بيننا ، حينما تُخفي الحُب في زى المشاجرات الدائمة ، لم يعد ناصع البياض كما كان فقد تغير لونه قليلاً بمرور السنوات وكأنه سافر هنا وهناك ، لكنه سيظل دائماً »الدُب راغب الكسول » بالنسبة لي ، سيظل مميزاً بالتأكيد.

وبينما صفاء مشغولة في المطبخ فإذا بجرس الباب يرن وتذهب حياة لتفتح الباب ، وجدت صندوق هدية كبير وعليه مظروف كتب عليه » لا تفتحه إلا حياة . . عيد ميلاد سعيد » ، إنه خط راغب ، وسرعان ما همس صوته قائلاً » عيد ميلاد سعيد يا أجمل حياة » . .

دمعت عينا حياة : راغب ! ، هل أنت هنا أم أني أتخيل ؟! ، لا أصدق ! .

قال راغب مبتسماً : هنا تماماً ، كيف لا أحضر عيد مولدكِ يا حياة؟! ، وكيف لا أهنئكِ بنفسي علي نجاحك الكبير ؟! .

ابتسمت حياة وعيناها يترقرق بهما الدمع فلحقها بمزحته قائلاً : وكيف لا تصبحين معيدة بعد أن ذاكر لكِ مهندس متفوق مثلي طبعاً ! . .

دمعت حياة قائلة : شكراً لك يا راغب ، شكراً لك علي كل شيء .

مد راغب يده ومسح الدمعة من علي خدها في رفق ، ونظر كل منهما للآخر بحب وشوق كأنه كان يجفف دمع عيناها بيده ، ولكن في الحقيقة أن نظرته تلك كانت تجفف دمع قلبها . .

راغب في نبرة من الحب والحنان قائلاً : قرأت كل شيء لم تستطيعي قوله من هذه النظرة يا حياة ، لا تخفيه أكثر من ذلك . . أمسك يدها وطبع عليها قُبلة دافئة ثم ضمها إلي صدره ناحية قلبه : إنكِ هنا . . ولن تخرجي من هنا أبداً . . أعدكِ بذلك . .

أطمئنت حياة إلي نبرة صوته ونظراته ، أطمئنت حينما لامست موضع قلبه وأحست بدقاته فابتسمت ، ابتسم قلبها أيضاً . . إنه الأمان . .

لم تدم هذه اللحظات طويلاً فقاطعتهما صفاء حينما أتت من المطبخ .

صفاء : راغب ! . . أهلاً بك يا بني . . تفضل .

أفلتت حياة يدها من يده سريعاً بينما راغب أجاب والدتها : كيف حالكِ يا خالتي صفاء ؟ .

صفاء : بخير يا بني الحمد لله ، تفضل بالدخول هل ستقف علي الباب ؟! .

راغب : اعذريني يا خالتي فمعي إذن ساعتين فقط ، سأذهب لأري أمي وأبي قبل أن أعود .

صفاء : تفضل يا بني ، الله معك .

نظر راغب لحياة مودعاً ومبتسماً . . فودعته هي الأخرى مبتسمة.

قالت صفاء متعجبة حينما رأت صندوق الهدية بين يدي ابنتها : هل أخذ الأذن فقط ليحضر لكِ الهدية ؟! .

ابتسمت حياة : نعم . . لا أصدق الأمر بعد .

حدثت صفاء نفسها مبتسمة : جعل الله لكما في بعض نصيب يا ابنتي .

*****

قالت ميرفت في شيء من الغيظ : أتيت فقط لساعتين ! ، أي كرم هذا يا راغب ؟! .

قال راغب متردداً : نعم يا أمي . . جئت للاطمئنان عليكم فحسب ، كيف حال عمران يا أبي ؟! .

حمدي : بخير يا بني ، طلب مني الاتصال به عندما تأتي ، لحظة واحدة .

أمسك راغب بالهاتف منتظراً سماع صوت أخيه فرد عليه في شيء من المرح قائلاً : أهلاً يا رجل . . ما بال هواء لبنان أفضل من أخيك ! .

قال عمران ساخراً : وهل يعقل يا أخي ، دعك من ذلك ، إنها ليست أجازتك اليوم يا رجل ، أعلم ما جاء بك .

ابتعد راغب عن المكان قليلاً قائلاً بنبرة ضاحكة : ومن غيرك يعلم السر يا أخي ، إننا نفتقدك كثيراً هنا ، ونفتقد هديتك أيضاً .

عمران : وما دخلي أنا ! ، أنا مجرد أخ لكما ، قررت ألا أكون غراباً بين عصفورين .

ضحك راغب قائلاً : وهل عرفت ذلك بعد مرور ثلاثة عشرة عاماً يا رجل ؟! .

ضحك عمران قائلاً : أمر الله يا بُني هذا العام .

راغب : حقاً أفتقد مزحك ومرحك يا أخي . . ينقصنا الكثير والله,

عمران : سآتي يا أخي ، سنجتمع كلنا قريباً إن شاء الله .
راغب : آمين .

*****

حلّ الليل وتناول الرجلان العشاء الخفيف ثم جلس كل منهما إلي سريره ، عمران مع لوحاته وحليم تائه في سقف الغرفة وكأنه مرصع بالنجوم التي احتار في عددها فيبدأ في العد من جديد كلما أخطأ .

عمران : ما بك يا رجل ؟! ، ما بال عيناك ستخترق السقف وتشق طريقها إلي القمر ! .

حليم هائماً : القمر . . إنه القمر يا عمران .

وضع عمران لوحته جانباً وقال بسخرية : ماذا قلت يا رجل ؟! ، ألم تأتِ إلي هنا من أجل العمل فقط ؟!

حليم ومازال هائماً في السقف : نعم قلت ، لكن أصابتني السهام يا رجل . . لا ذنب لي . .

عمران : هكذا إذاً ! . . وهل أصابتها سهامك يا تُري ؟! .

حليم وقد استفاق بهذه الكلمة : لا أدري ! ، إن هذا ما أخشاه يا صديقي ، أتمني أن يكون أصابها شيء مما أصابني . .

*****

لم يكن حليم وحده الذي يشق بصره إلي القمر ، شاركته في نفس

اللحظة من شرد بفكره فيها . . خديجة .
أخذت تبحلق إلي سقف غرفتها هي الأخرى فتخترق ببصرها إلي حيث النجوم ، إنه نجم من نوع خاص ، مختلف عن البقية كثيراً ، لم أعهد ذلك الشعور من قبل ، لطالما كنت قوية أمام الرجال ، أوجههم ، أدلهم ، وأصدهم أيضاً ، إلا هو ! ، وجهته فاستمتعت بوجهتي معه ، صددته فنسيني كأني لم أكن ، واجهته فأرتعش قلبي كثيراً ، هل يعقل أن يكون هو من يتحدث عنه أخيكِ يا خديجة ؟! ، هل خطف قلبي مثلما قال لي ؟! .

*****

إنها الوحيدة فيهم جميعاً من كانت تري النجوم بحق ، لا يسعها التحديق في السقوف أو في حوائط غرفتها ، فلطالما كانت حبيسة الأربع جدران ، إنها أيامها التي تخرج فيها عن ذلك السجن ، أن تنظر للسماء وتشبع منها وتتخيل وتسبح بخيالاتها بين النجوم والكواكب ، جلست علي سريرها ، أسندت ذراعيها علي طرف شرفتها ومضت في أحلامها محدثة نفسها ، من بين كل هذه النجوم لطالما آمنت بوجود نجم خاص بي فقط ، حتى وإن لم أستطع تحديده ببصري ، أحدده بقلبي ، دائماً ما أجده الأكثر لمعاناً من بينهم . . ها هو القمر أمامي الليلة ، لكنِ لا أحبه كما أحب النجوم ، إنه بأطوار متغيرة وكثيرة ، يخيفني حينما يعتريه الخسوف فأشعر باختناقه ، بل أحزن لأجله كثيراً حينما أره في

أيامه الأخيرة من كل شهر هزيلاً ضئيلاً كمن يعاني مرضاً . . أعرف شعوره جيداً كونه مِلكاً للجميع ويخطف نظراتهم ، علي عكس النجوم الدائمة التوهج التي لا ينتبه لها سوي الرحالة استرشاداً بها في رحلاتهم ، وأنا من نافذتي الصغيرة النائية هذه . . نعم أُحب النجوم أكثر وأرحل بالتحديق فيها إلي بلاد وعوالم لا أنتمي إليها ولا تنتمي لي ، بل أعشق نجمي الخاص الذي خُلِقَ لأجلي فقط .

*****

لم تنقضِ ليلة الثامن من أغسطس إلا وقد أضافت الفرح والأمل إلي نفوسهم جميعاً ، باتت حياة ليلتها تفكر في راغب ، نظراته ، لمسات يده ، نبرات صوته وكلماته ، كل شيء تعلق به ، كانت هديته مختلفة هذا العام ، وسادة حمراء علي شكل قلب كبير مرسوم عليها بالخيوط ثلاثة من القلوب البيضاء الصغيرة .

أغمضت عيناها واحتضنت الوسادة بشدة ، أخذت شهيقاً مفعماً بالشوق والحُب و زفيراً ينم عن الراحة بعد طول تعب وقلق ، لم تكن تعلم أي منهما يحتضن الآخر في هذه اللحظة ، والآن تحمل هذا المظروف منه بين يديها .

*****

حفظ راغب كل كلمة كتبتها له حياة في الخطاب الذي أعطته له يوم وداعه للجيش ، حفظها كلها عن ظهر قلب ، حتى أنه بات

يسمعها لنفسه كل ليلة كأنها تهويدة ما قبل النوم . .
» راغب . . يا أكثر شيء رغبت فيه في حياتي . . لم أقل لك ذلك قبلاً . . ربما لم يكن ذلك واضحاً كلياً في دعاباتنا المستمرة أو مشاجراتنا أو أي شيء تحدثنا عنه وقد مررنا به في طفولتنا . . و ليس معني ذلك أني لم أكن أشعر به . . بل شعرت به منذ أول يوم رأيتك فيه في طفولتنا . . ألقت بنا الأقدار التعيسة إلي هنا . . فأصبحت أجمل أقداري حينما التقيت بك . . وأصبحت صاحب قصة حبي الأولي والأخيرة . . لكنِ دوماً أخاف فقدان ما أُحِب . . وأنت أكثر ما أحببت يا راغب . . أرجو ألا تذهب كما ذهب أحبائي . . عدني بأن تبقي . . والأهم من ذلك . . هو الوفاء بهذا الوعد . . أرجوك » . . حياة .

*****

» حياة . . يا كل جميل في الحياة . . قرأت كل كلماتك بل وحفظتها عن ظهر قلب . . ربما يحمل لكِ هذا الخطاب ما أرغب في قوله لكن لا تتسنَ لي الفرصة في كل مرة أراكِ فيها . . فلتبقَ كلماتنا راسخة في هذه الأوراق كما في قلوبنا وذكرياتنا . . بدأت حياتي فقط حينما ألقي بكما القدر إلي هنا . . بداية من تلك الفتاة الغاضبة من راغب الكسول . . إلي تلك الفتاة الرقيقة النقية كزهور الياسمين التي تضعها في شرفتها فأحقد عليها حينما تراكِ بالقرب منها تداعبين وريقاتها وزهراتها بلطف وحنان . .

إن ذكريات تلك الدعابات وذاك الشجار هي ما كانت تهون عليّ غيابي عن شرفتكِ ووجهكِ المنير لطريقي . . مبارك لكِ يا فتاتي الجميلة . . تستحقين هذا التفوق والنجاح عن جدارة . . كنت أتمنى أن آتي لكِ بالنتيجة بنفسي مثل كل عام . . لكنها كانت أجمل مفاجأة حين سمعت بها من أبي . . لم أقدر ألا آتي إليكِ اليوم . . أنا أيضاً أخاف الفقد كثيراً . . لم افقد شيئاً أحببته قبلاً . لكن أخاف الآن فقد كل ما وضعته فيكِ . . إن ذهبتِ أنتِ فلا شأن لي بباقي الحياة . . فإن أخذت مني حُلوها . . لا أريد بقيتها . . حلاوة وجودكِ فقط هي ما تجعلني أحيا وأقاوم . . منذ أن رأيتكِ وقد أصبح لأسمي معني . . أصبحت في الحياة راغباً . . أصبحت فيكِ راغباً يا حياة . . أرجو منكِ أنتِ ألا تذهبي . . سأبقي . . أعدكِ بذلك . . واعدكِ بأن أفِ بهذا الوعد . . أرجوكِ أنتِ صدقي نداء هديتي لكِ . . وانتظريني » . . راغب .

*****

(التاسع من أغسطس)

مازالت أيام النعيم مستمرة طالما أن هذا المُدمِر ليس هنا ، إنها تعيش حياة هانئة مليئة بالسعادة والحُب ، تخاف فقدانهما لكنها لم تترك لنفسها فرصة التفكير في الأمر حتى ، فقط تترك ما يحدث ، يحدث . . كما أخبرها عمران أن تفعل .

ليلة : ماذا حصدت من رحلتك إلي الآن ؟! .
قال عمران في ثقة : إن الحصاد هو آخر مرحلة إن شاء الله ، يمكنكِ القول أنني مازلت أزرع .
ابتسمت ليلة قائلة : وماذا تزرع يا تُري ؟! .
بادلها عمران الابتسامة قائلاً : أزرع الأمل في نفوس أحدهم . . وربما أزرع الحُب .
أحمرت الفتاة خجلاً : أمتأكد من ذلك ؟! .
نظر عمران في عينيها مباشرة : أتأكد حينما أنظر إلي عيناكِ ، إنهما لا تخفيان الأمر .
حاولت الفتاة تغيير الموضوع بسرعة : إذاً . . ماذا رسمت حتى الآن ؟! .
عمران : أرسم كل ما هو جميل في فنيدق .
ليلة : هل يمكنك أن ترسمني إذا طلبت منك ذلك ؟ .
عمران في نبرات الغزل : بالتأكيد . . قولت للتو أني أرسم كل ما هو جميل في فنيدق فكيف لا أرسمكِ ؟! .
نظرت الفتاة في الأرض وهي تلعب بذرات التراب بيدها : حسناً سأنتظر منك لوحة لي قبل أن ترحل من هنا .
نظر إليها عمران وكأنه يريد إخبارها أنه منذ جاء إلي هنا وهو لا يرسم غيرها أساساً ، لكن كيف يقولها وماذا سيكون رد فعلها يا تُري ؟! .

سكت عمران للحظات ثم قال : رأيتكِ ترقصين في المقهى .
انتبهت ليلة لكلماته وكأنها قد صُعقت بالكهرباء ، فقط نظرت إليه في دهشة ولم تنطق .
قال عمران في نبرة الجد : نعم . . جئت متنكراً ، نجحت في الدخول وها أنا ذا أمامكِ .
استمرت ليلة في سكوتها ، فقط كانت تستمع إليه وتنظر في دهشة .
عمران : رأيتكِ وأنتِ ترقصين . . رأيت الجنون والرغبة في عين كل رجلٍ نظر إليكِ حينها . .
إنهم كُثيرون ، يتمتعون بذلك الطائر السجين الذي يغني رغم حبسه ، لم يستطع أحد منعه من الغناء أو كتم صوته ، لم يستطع أحد القضاء علي إيمانه بحريته فظل يتحرك ويدور في قفصه الصغير ، يغمض عيناه ويتحرك ويرقص ، كأنه العالم وليس قفصاً صغيراً ، كنتِ كالطائر الذي وصفتكِ به أول مرة حينما رأيتكِ تدورين هنا . . أتتذكرين ذلك الطائر ؟! .
دمعت عينا ليلة ولم تشعر بالأمر حتى ، إنه يفهم أساها ، يفهم معاناتها ، يحاول إصلاح ما تدمر بداخلها ، فهل سينجح في إحياء الأمل لديها من جديد ؟! ، وإن أحياه ، فهل سيستمر ؟! ، في النهاية سيمضي حيث كان ، ويتركها لمأساتها من جديد .
قالت وهي تمسح دمعها : كان خيراً كبيراً حينما رأيتك ، ولكن

الشر الذي أعاني منه أكبر بكثير يا «عمران» ، إنه يقضي علي كل الخير الذي يظهر في حياتي .

قال عمران في هدوء : حتى وإن كان شراً كبيراً فإنه بمقدار ، كل شيء في هذا الكون قد وضعه الله بمقدار يا «نهار» ، لابد من الصبر علي البلاء حتى يمضي ، إنه لا يمضي إذا نفرنا منه ، بل يفعل حين نرضي ونقبل ، يمضي حين نحمد الله وندعوه بالصبر والثبات والقوة . . المقاومة . . فكل شيء يقاوم ، يبقي ويستمر ، أجسادنا قد تبدو هشة من الخارج لا تقوي لكن كل شيء داخلنا يقاوم ، كرات الدم الصغيرة بمقاومتها تخلصنا من مرض عنيد ، كذلك الدعاء . . يخلصنا . . فالله يحب سماع دعاءنا وإلحاحنا له وحده بأن يمضي ما يؤذينا ، يمضي حين تحدثين الله «يا الله نجني مما أنا فيه » فينجيكِ . .

ابتسمت ليلة رغم دمعها الذي لم يجف أثره بعد قائلة : أدركت الآن أن نجاتي متعلقة بك ، ستذهب النجاة بعد ذهابك يا عمران ، سيعود كل شيء كما كان ، بل سيصبح أغسطس أسوأ بكثير مما كان . .

عمران : قلت لكِ أن وجودي هنا لسبب ، ربما هذا السبب أن أزرع فيكِ الإيمان بأن النجاة قادمة لا محالة ، حتى بعد رحيلي ، مادمنا ندعو الله ونوقن بالإجابة . . أن ندعو الله حتى يأتينا اليقين . .

أكمل كلامه قائلاً : كنتِ تأتين للمسجد البعيد خصيصاً حتى تدعِ الله ، كنت مستغرباً من ذلك كثيراً ، وأسأل نفسي لِمَ هذا المسجد بالذات ! . أسمع منكِ هذه الكلمات الآن ! .

تنهدت ليلة قائلة : إنه مسجد الشيخ أمين ، الشيخ الذي علمني معني الدعاء والتضرع لله ، مكان أطهر بكثير من كل ما يحيط بي ، كنت أذهب إليه بين الحين والآخر لكن خوفي من أن أتسبب بالأذى لأهل ذلك الحي كان كثيراً ما يمنعني من الأمر ، حينما سمعت صوتك هناك لأول مرة ، وكأنه إنذار لي بألا أعود لذلك المكان ثانية ، حفاظاً علي أرواح من فيه .

عمران : بل كان سبب استمرار مجيئكِ للمسجد حتى أراكِ في أحلامي ويقظتي ، وأن انقطاعكِ عنه فقط بعد مجيئي كان سبباً للقائنا هنا كل صباح ، سبباً في يومنا هذا ولحظاتنا هذه . .

إنه السبب يا »نهار» كما أخبرتكِ ، إنه الله مدبر الأمر والقادر عليه وحده ، فهل يعجزه جمع دروبنا إذا أراد ؟! . . حاشاه . .

ليلة : وما النتيجة يا عمران ؟! . . كيف سينتهي ؟! .

عمران : سينتهي بما ندعو الله أن ينتهي به ، أن ندعو الله ونحن نوقن بالإجابة ، فينتهي بما نؤمن بحدوثه يا »نهار» . . إنه الإيمان الذي يحل كل شيء .

ابتسمت ليلة ابتسامة بائسة وقالت : وما الذي تؤمن بحدوثه يا عمران ؟! .

عمران : أن اجتماعنا ليس من فراغ وما كانت صدفتنا عبثاً أبداً ، أخبرتكِ أن الدعاء يغير القدر . .

ربما اقتنعت ليلة ببعض كلامه لكنها تعلم أنه سيرحل مع صديقه في نهاية المطاف . . سيأتي الميعاد الأخير يوماً ما .

*****

خرج حليم أمام المنزل قليلاً يريد لقاء حمزة ليعرف متى موعد الرحلة القادمة ، الوقت يداهمه ولا يريد أن يذهب من بين أصابعه كالماء دون أن يشعر .

قابل مراد يجري وراء رفاقه الأطفال فنادي عليه : مراد . . أين أبوك ؟ .

أجابه مراد وهو في عجلة من أمره : دخل المنزل حالاً يا عم حليم, توجه حليم إلي بيت حمزة ووقف بالباب ففتحت له خديجة ، ابتسم لهذه الصدفة السعيدة فما كان يتوقع أن تفتح هي الباب . . صباح الخير . . كيف حالكِ يا خديجة ؟ .

ابتسمت خديجة وأجابته بنبرة هادئة : صباح الخير يا حليم . . أنا بخير . . ماذا عنك ؟ .

حليم : بخير الحمد لله . . كنت أريد مقابلة حمزة . . أخبرني مراد . . . . .

أتي حمزة إلي الباب : ماذا هناك يا خديجة ؟! . . حليم . . أهلاً بك تفضل بالدخول .

ابتعدت خديجة عن الباب وذهبت إلي المطبخ حيث رباب وأخذا يسترقان السمع لحوار الرجلان علي أريكة حمزة المعروفة بحواراتها المهمة .

قال حمزة مُرحِباً : أهلاً بك يا حليم في بيتي المتواضع ، زادنا الشرف .

ابتسم حليم : بل أنا من زادني الشرف يا حمزة شكراً لك ، لن أطيل عليك ، جئت أسألك عن وجهتنا القادمة ، أعذرني إذا كنت أتسبب لك في أي نوع من القلق لكن تعلم أن . . . .

حمزة : أعلم يا حليم أنك لا تريد للوقت أن يسرقك ، وهذا ما يعجبني بك أنك جاد في عملك ، قلق ماذا ! لا تقل هذا يا رجل ، بل أعذرني أنا لأني لم أستطع التفرغ لكما كما اتفقت مع «حسان». .

حليم : لا عليك فلديك عملك أيضاً ، غير أن خديجة قد قامت بالأمر وأكثر ، بارك الله لك فيها .

نظرت رباب لخديجة وتلاعبت لها بحاجبيها فقامت خديجة بغمزها في ذراعها في حرج ثم استمرا في الاستماع للحديث .

حمزة : سلمك الله يا حليم ، هذه المرة سأذهب معك بدلاً من خديجة .

اندهش حليم من الأمر لكن حاول إخفاء اندهاشه سريعاً : حقاً ! سيسعدني ذلك كثيراً ، إلي أين سنذهب هذه المرة إذاً ؟! .

اندهشت خديجة هي الأخرى وقد تبين ذلك علي ملامحها التي لاحظتها رباب ، لماذا غير أخوها رأيه فجأة وقرر الذهاب مع حليم ؟! ، هل سيمنعها من التجوال معه يا تُري ؟! .

حمزة : غابات العذر . . إنها غابة كبيرة جداً حتما ستسعد برؤيتها .

حليم : هل هي بعيدة أو كم من الوقت سنمضي فيها ؟! .

حمزة : لا إنها قريبة من هنا ، نذهب في صباح الغد وإذا أردت نمضي هناك حتى مغيب الشمس لا مشكلة لديّ في الغد إن شاء الله .

وكأن حليم قد فرح لأن الأمر لن يطول مع حمزة كثيراً ، فقد تعود علي صحبة خديجة ويحاول التقرب منها ، أجابه فرحاً : حسناً اتفقنا . . موعدنا غداً صباحاً إن شاء الله .

أطمئنت خديجة بعض الشيء حينما علمت أنها غابات العذر ، معني ذلك أن أخيها مازال منشغلاً ولن تدوم رحلتهما طويلاً ، إذاً سيرسلها معه ثانية .

خفض حمزة صوته واقترب من حليم : وماذا عن صديقك ؟! ، هل حكي لك ما تم في غيابك ؟! .

حليم : نعم . . لا شيء أكثر مما تعرفه .

حمزة : إنه مجنون وأخشى أن يضيعنا بجنونه هذا .

حليم : لا تقلق ، إنه هائم وراء عمله ليس إلا ، سينتهي كل شيء

بانتهاء العمل .
حمزة : راقبه جيداً يا حليم ، حتى لا يفعل شيء نندم عليه كلنا .
حليم : لن يحدث إلا الخير يا حمزة إن شاء الله .

*****

عاد حليم إلي منزله ، حاول ترتيب الغرفة وتنظيم أغراضه وأغراض صديقه فيها ، وبينما يفعل وجد اللوحات التي كان يستغرق عمران الليل في رسمها .
لوحة لفتاة تجلس في مسجد صغير وكأنه المسجد الذي نصلي فيه ، أخرى فتاة تخفي نصف وجهها بوشاح أسود وقد برز جمال عينيها بطريقة رائعة ، إنك فنان حقاً يا عمران ، كأن عيناها تتحدثان أو تتوسلان . لوحة أخرى رسم فيها شيء كأنها ملاك يطير بجناحين صغيرين ، وغيرها من اللوحات . أما آخر لوحة فكانت لفتاة ترقص وسط الحشود المُهملة فلم تعيرها فرشته اهتماماً كافياً . ركز علي الفتاة لدرجة كأنك تراها ترقص أمامك حين تمسك باللوحة . أما عن جمهورها فهو مجرد رؤوس وكأنه جيوش النمل حولها ، ولكن سأل حليم نفسه » كيف رسمها وهي ترقص هكذا ؟! ، وبهذه الدقة ! ، أشعر أنه مشهد حقيقي أراه الآن بكل تفاصيله ، هل ذهب إلي المقهى يا تُري ؟! .
يا للمصيبة التي ستوقعنا فيها يا عمران إن كان ذلك قد حدث ، ستتحقق مخاوف حمزة بالتأكيد . أخذ يبحث في أغراضه الأخرى

وانتهز فرصة عدم وجوده ، لم يكن تجسساً وإنما للاطمئنان عليه .. أريد أن أعود بك سالماً يا صديقي ، أريد أن نترك أهل البلدة سالمين أيضاً بعد رحيلنا .
وجد شارب وقبعة وزى غريب .. هل حدث ما أتخيله الآن ؟! .

*****

عاد عمران هو الآخر باعتبار أنه يمارس رياضة الجري في الصباح هذه الأيام دون أن يوقظه أحد ولكن حليم يعرف أنه يذهب لمقابلة الفتاة في هذا الوقت ولو علم حمزة بالأمر ستحدث مشكلة لهما . وجد حليم جالساً علي سريره سانداً ظهره علي وسادته ومربعاً يداه ، لا يبشر وجهه بالخير .
عمران : ماذا هناك يا رجل ؟! . . هل أكل القط اللحوم التي سنطبخها اليوم ؟! .
حليم في نبرة الغضب : ذهبت إلي هناك يا عمران . . فعلت ما تريد وذهبت إلي المقهى ! .
تسمر عمران في مكانه قائلاً : هل أخبرت حمزة ؟! .
حليم : لا . . وكيف أخبره بالأمر ! ، لم تفكر حتى فيما سيحدث بعد ذلك ! ، إلي متى سيقودك جنونك هذا ؟! ، ألن تقوده أنت ذات يوم ؟! . .
لم يرد عمران أن يعلي صوته هو الآخر فجلس وتكلم بهدوء : كنت متنكراً ، ولم يشك بي أحد .

حليم : بالشارب والقبعة لن يشك فيك أحد ! ، بل إن الشك يأتي من هذه القبعة نفسها يا رجل .
عمران : كنت أقوم بعملي يا حليم كما تقوم بعملك ، أردت فقط أن أرسمها وهي ترقص ، أن أري الصورة من كافة زواياها كما تفعل أنت . .
حليم : ولكن بعقل ، أين عقلك حينما ترمي بنفسك إلي الخطر! ، أخبرني .
غضب عمران ولم يعد يستطيع السيطرة علي نفسه قائلاً : العقل . . العقل . . وهل وحدك من لديه عقل هنا ؟! ، لماذا دائماً تصفوني بالجنون والتهور ؟! ، ألم يكن لديّ عقل حينما التقيت بك؟! ، ألم يكن لديّ عقل حينما انسحبت من طريق أخي الصغير وتخليت عمن أحب فداءً له ولها ؟! ، ألم يكن لديّ عقل حينما عملنا بجهد معاً حتى يتم اختيارنا لهذه الرحلة ؟! .
التقط أنفاسه متابعاً قوله : ألم يكن لديّ عقل حينما تتبعت طريق النجاح وذهبت لرؤيتها متنكراً حتى نعود من رحلتنا بوسام الشرف ؟! ، أخبرني أيها العاقل كيف السبيل إليها إن لم يكن بهذه الطريقة ؟! . ألم يكن لديّ عقل طوال حياتي ؟! ، ليس لديّ عقل فعلاً بحديثي معك الآن.
سيطر حليم علي نفسه قليلاً ثم سأله : ولِمَ هي بالذات يا عمران؟! .

التفت إليه عمران بسرعة وكأنه كان متوقعاً هذا السؤال منه قائلاً : لا أعلم ! ، صدقني لا أعلم شيئاً ، طيفها يطاردني في كل مكان هنا منذ رأيتها ، وجهها لا يتركني حتى في حلمي ، حتى صوتها وبكاءها يستغيثان في أذني دائماً ، لا أعلم لِمَ أشغل نفسي بمقابلتها وتتبعها ، لا أعلم ما أقوله لها وأحاورها به حتى ، تخرج الكلمات تباعاً من بين شفتاي ولا أسيطر عليها ، لِمَ أزرع بداخلها أمل سأنتزعه بعد رحيلي من هنا ؟! ، هذا ما أتوجه به إلي الله الآن وأسأله » ما الحكمة وراء كل ذلك ؟! « .

جلس عمران علي سريره وأكمل في هدوء : لا أريد أن أفعل ذلك يا صديقي . . صدقني . . لا أريد أن أتألم مرة أخري ولا حتى أن أتسبب بالألم الذي عشته لسنوات طوال ، أنا فقط لا أعلم شيئاً علي الإطلاق . . جعلتني أنطق بما أشعل النار في داخلي الآن . . أرجو أن يهديني الله لكافة الأسئلة التي لا علم لي بإجاباتها .

ثم نهض من مكانه وخرج مسرعاً حتى دون أن ينظر لصديقه أو ينتظر كلمة منه .

تضايق حليم لأنه تسبب في غضب صديقه إلي هذه الدرجة ، ما كان يجب أن يتحدث معه بهذه الطريقة فيفتح جراحه القديمة ، لام نفسه كثيراً ، أين كان عقلك أنت في هذه اللحظة يا حليم ؟! .

*****

دخلت ليلة غرفتها من النافذة ثم ثبتت الحديد إلي مكانه ثانية .

كانت في كل مرة تستطيع الهرب فيها تغلق باب غرفتها بالمفتاح أولاً ، أما عن الرجال المقيمون في المنزل فهم يعلمون جيداً أنها حينما تغلق باب غرفتها فلا يجرؤ أحد علي إيقاظها أو أن يدق بابها حتى ، ولكن كما لكل قاعدة استثناء فكان نصار هو المستثني من هذه القاعدة ، بالطبع ما كان يستأذنها في الدخول أصلاً ، لكنه ليس هنا هذه الأيام فحمداً لله .

تأخرت اليوم خارجاً فقد أخذها الحديث مع عمران ولم تشعر بالوقت . نظرت في المرآة واستعدت لفتح باب غرفتها والخروج للاطمئنان علي والدتها .

وجدت باب غرفة الأم مفتوحاً ، لابد أن هناك أحد ما في الغرفة ، خطت خطوتها بسرعة وفي قلق شديد دفعت الباب بيدها ، إنه عاصم . . »أفزعتني يا عاصم «. .

إن عاصم هو أصغر رجل في هذا البيت والمقهى أيضاً ، لم يبلغ العشرون من عمره بعد ، كل الرجال الذين يعملون في المقهى هم أيضاً خدم في هذا البيت ، حيث لا نساء هنا ، أنا وأمي فقط ، أما عن الراقصات الأخريات فلا أعرف أين يعثر عليهن نصار ولا حتى لي صلة بأي واحدة منهن . كل الرجال هنا ضخام وأقلهم ضخامة هو عاصم ، إنه الوحيد هنا الذي أتكلم معه وأعتمد عليه في كل شيء أريده ، طيب القلب وصافي الوجه بشوش ، إنه يعمل لدينا منذ عامين تقريباً ، أما عن علاقته بأمي فهي تحبه

وتبتسم له أحياناً كثيرة وهذه من نوادر الطبيعة بالفعل ، هو أيضاً يرتاح بصحبتها حتى وإن لم تكن تتكلم ، يروي لها القصص أحياناً أو يقرأ عليها شيئاً ما من الكتب حتى لا تمل ، وقليل ما يقرأ عليها بعض من آيات القرآن الكريم ويرتلها بصوته الجميل فتبكي أمي من حلاوة كلام الله ومن عذوبة صوت الصبي ، لكن ذلك لا يحدث إلا إن غاب نصار عن البيت واختفي الرجال من هنا ، إنه يخاف منهم بالطبع ، لم أجد أحداً هنا مثل هذا الفتي ، لابد أن أصله طيب لكن للأسف حظه ليس طيباً حتى يأتي إلي هنا . .

قالت ليلة في شيء من الفزع والخوف : أفزعتني يا عاصم ! . . حسبتك أحداً آخر .

ترك عاصم الكتاب من يده : عذراً يا ليلة لم أقصد ذلك ، أرت فقط الجلوس مع الحسناء ، مضت أيام كثيرة دون أن أقرأ لها شيئاً حتى أنها كانت منزعجة مني ، لم أوقظكِ لأنكِ لا تحبين ذلك.

ليلة : اعذرني أنت يا عاصم ، بل شكراً لك كثيراً لأنك تؤنس أمي أكثر مني ، لا عليك فقد كنت منشغلاً الأيام الماضية في ترتيب وتنظيم البيت والمقهى .

عاصم : حسناً سأترككما وأعود إلي عملي .

ليلة : عاصم انتظر ، ألا تعلم متى سيعود نصار ؟ .

عاصم : ربما سيعود بعد غد ، سمعت أحد الرجال يقول ذلك .
ليلة : أرجو أن يعود محمولاً علي الأكتاف هذه المرة . .

*****

صعد حليم إلي السطح متضايقاً من نفسه لعله يلتقط أي خبر عن صديقه الغاضب ، يعلم أنه حينما يغضب يلجأ إلي الجري السريع حتى لا ينفجر ، يظل يركض ويركض إلي أن تهدأ نفسه ، هذه عادته وخاصة أن هنا الطرقات ستساعده علي ممارسة رياضته المفضلة وتفريغ شحنة الغضب لديه ، لم ينزل من مكانه إلي أن رآه عائداً راكضاً .

نزل حليم مسرعاً إلي خارج المنزل منتظراً استقبال صديقه ، لكنه حينما رآه لم يكلمه ولم يعره اهتماماً . .

حليم : لم أقصد يا رجل . . أنا حقاً آسف .

»إن الاعتراف بالخطأ والأسف عليه عند الرجال ليس بالأمر السهل علي الإطلاق ، وكأن هذا الأمر يأخذ قسطاً من أرواحهم ، بل ويدمر كبرياءهم وعزتهم أمام الآخرين ، علي الرغم أن ذلك لا ينم عن الضعف كما يعتقدون بل يدل علي احترامهم لأنفسهم وللآخرين وتقديرهم لهم ، بل ويزيدهم وقاراً وتقبلاً في عيون المحيطين ، ولكن إن قالها الرجل واعتذر عن خطأه فلا يجب أن تطيل عليه الأمر وتقبل الاعتذار سريعاً قبل أن يرتكب جريمة قتل ، وهذه القاعدة التي حاول عمران مخالفتها . . لم يعره

انتباهاً عقاباً له ».
غمزه حليم في جنبه بقوة قائلاً : قلت لك آسف يا رجل ! ، لا تطيل الأمر إذاً . . فابتسم عمران . .
حينها ضحك حليم وقام بالتخبيط فيه كنوع من مداعبات الرجال فتقبل عمران ذلك مع قليل من الضحك والتخبيط في حليم أيضاً.
حليم : فقط أردت تحذيرك حتى لا تؤذِ نفسك يا صديقي ، دعنا نقضِ رحلتنا بسلام ونعود بسلام إلي أهلنا تاركين الأهل هنا بلا أي خسائر .
عمران : حسناً يا صديقي . . لا تقلق .
حليم : إذاً هل ستأتي معنا أنا وحمزة غداً صباحاً في رحلة قصيرة؟
عمران ضاحكاً : أنت وحمزة في رحلة ! ، وماذا عن خديجة ؟! .
حليم : أراد حمزة المجيء معي هذه المرة ، لا أعلم هل سيستمر في ذلك أم لا .
ثم قال في هدوء : أتعلم شيئاً . . لقد تعودت علي صحبة خديجة . .
ضحك عمران : هكذا إذاً . . هنيئاً لك يا رجل . . لابد أنها بلغت أخاها عنك .
حليم : ماذا ؟! . . لم أفعل شيئاً يا رجل ! .
ضحك عمران بصوت عالٍ : ستتحقق رؤية الطفل لا شك . . كم أنك مبارك يا مراد .

ابتسم حليم قائلاً : لا . . عليّ التأكد من بعض الأشياء أولاً منها ومن أخيها ، تعلم أننا سنرحل في خلال أيام فقط ولا نعلم هل سنعود إلي هنا مرة أخري أم لا ، ليس الأمر بهذه السهولة .

عمران : نعم . . معك حق . . إلي أين ستذهب مع حمزة غداً؟!

أجابه حليم قبل أن يضع كوب الماء علي فمه : يقول إلي غابات العذر تقريباً .

تفاجأ عمران : غابات العذر ! .

ضحك حليم : وكأنك تعرفها سلفاً .

عمران : لا . . أنا فقط مستغرب الاسم . . هل ستذهبون غداً؟! .

حليم : نعم . . في الصباح الباكر . . تعال معنا .

رد عمران مسرعاً : لا . . سأسهر ليلاً في لوحة ما وأنام في الصباح نوماً عميقاً . . اذهبا أنتما .

حليم : حسناً كما تريد .

تفاجأ عمران بهذا الأمر، لِمَ سيقصد حمزة غابات العذر ؟! ، هل اكتشف أمر مقابلاتنا هناك ؟! ، لا عجب ! هذا حمزة لا يخفي عليه أي شيء ، لا يجب أن أذهب إلي هناك غداً ، اعذريني يا نهار . .

*****

(العاشر من أغسطس)

لم يستطع عمران نوم ليلته من القلق ، جاء الصباح وهو مازال يفكر ماذا سيفعل وما الذي يخطط له حمزة .
حليم : عمران ! . . مادمت مستيقظاً لِمَ لا تأتِ معنا ؟! ، لم تستمتع بهواء البلدة كما يجب ! .
عمران وقد تظاهر بالنعاس : لا . . لا أستطيع يا حليم لم أنم جيداً وأريد أن أرتاح قليلاً ، اذهبا أنتما رحلة موفقة .
حليم : كما تحب .

*****

أما عن خديجة ورباب فقد دارت بينهما بعض التحقيقات والتخمينات النسائية التي لا نغفلها جميعاً .
رباب : لماذا ذهب أخوكِ معه هذه المرة ؟! ، هل أساء لكِ الرجل في شيء يا خديجة ؟! . . أخبريني ! .
خديجة : لا . . أبداً ، إنه في غاية الاحترام والأدب .
ابتسمت رباب قائلة : ربما أراد التحقق من الشاب بدرجة كافية ، أو ليطمئن قلبه أكثر عندما تخرجا مرة أخرى سوياً .
قلقت خديجة من هذه الكلمات وأخذت تحدث نفسها . . هل يشك أخي فيّ ؟! . . أم يشك فيه ؟! . . هل سيجعلنا نخرج إلي باقي الأماكن التي نظمتها يا تري ؟! .
لاحظت رباب قلق خديجة فما كان منها إلا أن ابتسمت في صمت

ثم قالت : هل لديكِ عمل آخر غير الذهاب مع هذا الرجل يا خديجة ؟! .
خديجة : لا . . أخذت استراحة قصيرة من العمل وعدت ففاجئني أخي بأمر انشغاله وطلب مني الذهاب مع حليم وعمران ، ولا أستطيع أن أخذل أخي أبداً .
رباب : حسناً . . ربما قد مرّ انشغال أخوكِ وقرر استكمال الرحلة معه وأراد لكِ بعض الراحة .
ولكن هذه الجملة قد أثارت القلق والريبة في نفسها أكثر وأكثر .

*****

تمشي حمزة وحليم علي مهل في هذا الطقس الرائع والمنظر البديع والهدوء الغالب علي الأماكن فأخذا يتحدثان .
حمزة : إذا يا حليم . . أخبرني ماذا ستفعلان بعد رحيلكما من هنا ؟ .
حليم : إن شاء الله سنعود للعمل مع السيد مختار والاستعداد الجيد للمهرجان ، أيضاً نستعد للمسابقة التي ستعقب المهرجان . إلي أن ننتهي منهما إن شاء الله .
حمزة : بالتوفيق في الأمرين بإذن الله .
حاول حمزة سحب بعض الكلمات التي يريدها من حليم بطريقة المزح : أري أن شباب اليوم لا يخطط للزواج ، كل ما تتحدثون عنه هو العمل فقط .

ابتسم حليم قائلاً : ليس أمر الزواج سهلاً يا حمزة كما تعلم ، إنك أكبر منا ولابد أن تنصحنا .
ابتسم حمزة قائلاً : لو أنصحكما أنت وعمران بشيء فسيكون ألا تفعلا مثلما فعلت يا رجل .
ضحك حليم قائلاً : هل الأمر بهذا السوء ؟! .
حمزة : لا . . الزواج والأطفال إنهما سنة الحياة واستمرار لها . . لكن المسؤولية كما تعلم ليست بهينة .
حليم : وهذا ما يجعلنا نفكر في عملنا أولاً . . إن الزواج خطوة كبيرة لابد من الاستعداد والتخطيط لها مسبقاً فلا نظلم أنفسنا ولا من معنا في ذلك الطريق .
أعجب حمزة بكلامه قائلاً : قرارك حكيم تماماً ، ولكن أنصحك أيضاً ألا تتأخر في الأمر ، إن رحلة الحياة ليست بالسهولة التي نتوقعها دائماً يا صديقي ، إن العالم قاسي بعض الشيء ولا شك يحتاج لرفقة للتغلب عليه ، وجود العون إلي جانبك سيهون الكثير والكثير، فالعمر يجري ورصيد الشباب ينفذ منا دون أن نشعر يا حليم .
شعر حليم بالراحة من كلامه فبادله بالابتسامة قائلاً : معك حق . سأفكر في كلامك جيداً يا أخي . . شكراً لك علي هذه النصيحة.

*****

بدأت ليلة تستعد لخروجها دون أن يشعر بها أحد ، أغلقت باب

غرفتها بالمفتاح من الداخل وفعلت ما تفعله كل مرة تهرب فيها.
كانت تحس هذه المرة بقبضة في قلبها ، ربما يأتي نصار في الغد، إنه الخوف الذي يتسلل إلي قلبها حينما تراه لكنها تتظاهر بعكس ذلك حتى لا يتمادي ، لابد لها أن تقاوم حتى آخر نفس، إذا سيطر الخوف علي الفريسة لا تستطيع الحراك وتتجمد في مكانها، عندها فقط يتمكن منها صائدها ، خوفها يتمكن منها أولاً . . وليلة ليست كأي فريسة . .
تحركت بين الأشجار كعادتها لكن كأنها مكبلة الأيدي والأرجل ، لا تستمتع بحريتها اليوم ، لا تشعر بالخير أبداً .
اقتربت من شجرتهما المعتادة وجلست إليها ، انتظرت دقائق ولم يظهر عمران من أي اتجاه بعد ، اجتمع كل من الفزع والقلق والحيرة للسيطرة عليها لكن لم ترد الاستسلام لهم وجلست دقائق أخري .
دخل كل من حليم وحمزة إلي الغابة وانبهر حليم بما رأي من إبداع الخالق وأخذ يركض بين الشجر ويصور ويتسلق قليلاً ويذهب إلي كل الزوايا ، أما حمزة فكان يبتسم من حماس هذا الشاب ومرحه وخفة ظله .
علي بعد أمتار من شجرة اللقاء سمعت الفتاة صوت ضحكاتهما، اختبأت خلف الشجرة وأخذت تتحرك ببطء شديد ، ساعدها في ذلك كبر محيط الشجرة ، حاولت النظر من خلفها بطرف عينها

فلم تلتقط سوي حمزة ومعه شخص ما لا تعرفه ، كان منشغلاً بالتصوير تماماً فعلمت أنه صديق عمران الذي حكي لها عنه في أحد أحاديثهما ، لكن عمران ليس معهما .

انتهزت فرصة انشغالهما في التصوير وأخذت تتحرك مختبئة خلف الشجر حتى ابتعدت قليلاً عنهما ، لكن عينا حمزة قد رصدتاها حينما بدأت بالركض فسمع صوت أوراق الشجر والأغصان تحت قدميها .

حليم : هل سمعت شيئاً ؟! .

قال حمزة بعدما تأكدت شكوكه : نعم . . ربما سنجاب هارب خاف أن نكتشفه .

*****

أخذت ليلة تركض سريعاً حتى ابتعدت عنهما تماماً واقتربت من المنزل ، وقفت للحظات تلتقط أنفاسها ، تارة تضع يدها علي قلبها الذي يكاد يخرج من صدرها من شدة الخوف والركض ، وتارة أخرى تضع يديها علي ركبتيها من أثر التعب ، فسمعت صوت أوراق الشجر كأن أحد ما يلحق بها ، نظرت حولها فلم تجد شيئاً ، حاولت أن تطمئن نفسها بأنه ربما صوت حفيف أوراق الشجر أو حيوان ما ، لكنها شعرت بالخطر يحيط بها اليوم من كل جانب ، أكملت الركض إلي منزلها وشرفتها واحتمت فيهما، وما كانا يوماً مكاناً للاحتماء .

*****

كانت حياة عائدة من الجامعة تنجز بعض أوراقها الهامة هناك ، رأت ميرفت أمامها بأمتار قليلة كأنها عائدة من السوق ، لاحظت أنها لا تقدر علي حمل الأشياء في يديها فقد كانت كأنها تترنح من التعب ، راقبتها فقط ، فقد كانت تخاف الاقتراب منها حتى لا تضايقها بكلماتها اللاذعة خاصة أن لا أحد في الشارع الآن ستكون كلماتها أقوي ، إذا بميرفت تسقط أرضاً ، فركضت إليها حياة محاولة مساعدتها .

حياة في لهفة وفزع : خالتي ميرفت . . خالتي ميرفت . . هل تسمعيني ؟! . . أسندتها الفتاة علي قدميها حيث جلست بجانبها علي الأرض ، رفعت رأسها بيدها واستمرت في مناداتها .. خالتي ميرفت ! .

فتحت ميرفت عيناها ببطء فوجدت الفتاة بجانبها ، تظاهرت بأنها تتمالك نفسها أمام حياة وأخذت تقوم من الأرض ، لكنها لم تكن في قواها وكادت تسقط ثانية فأمسكت بها حياة ، استندي عليّ يا خالتي . . وكانت مضطرة إلي ذلك ففعلت .

تمكنت حياة من الوصول معها إلي شقتها وفتح الأستاذ حمدي الباب مفزوعاً وساعدهما حتى وصلت ميرفت للسرير .

قالت حياة في لهفة : ستكون بخير إن شاء الله يا عم حمدي . . سأتصل بالطبيب حالاً لا تقلق .

جلس حمدي بجانبها علي السرير مفزوعاً وناولها كوباً من الماء: ميرفت ! . . ماذا حدث ؟! . . بماذا تشعرين ؟! . . أخبريني .
لكن ميرفت لم تكن تقدر علي الكلام بعد ، فقط تنظر له بعينين نصف مفتوحتين .
حياة : سيأتي الطبيب علي الفور ، سلمكِ الله من كل شر يا خالتي ميرفت ، سأنزل لآتي بالأشياء التي كانت تحملها يا عم حمدي . .

*****

شعر عمران بالضيق الشديد والريبة التي تملكت قلبه ، ولكنه أرجع السبب لقلقه علي »نهار« ، فلم يكن يعلم ما أصاب والدته ولكن قلبه علم بالأمر .
جلس عمران علي سطح المنزل ينظر إلي الفضاء الفسيح أمامه حتى لا يقتله الغيظ والضيق بين الجدران الأربعة ، لم يستطع الخروج للركض فحتماً دون أن يشعرستذهب قدماه إلي حيث سيُكشف أمره . رأي الرجلان عائدان وصوت ضحكاتهما تسبقهما بينما حال المسكين مثل حال النار التي تأكل بعضها من شدة غيظها ، نزل ليعرف ما حدث من حليم .
حليم : فاتك الكثير يا رجل .
حاول عمران إخفاء قلقه واهتمامه : لا بأس هذه المرة يا صديقي .
عمران : سمعت صوت ضحكاتكما . . علي ماذا يا تري ؟! .

ضحك حليم : تذكرنا السناجب التي رأيناها ، لو تراها وهي تنظر للكاميرا وتستكشفها عن قرب لأصابك ما أصابنا .
عمران : نعم . . موقف مضحك . لا يعلم حليم أن عمران يري السناجب كل يوم بصحبة نهار . . إلا اليوم . . لم يرَ السناجب ولم يرَ النهار كما يجب .
كان يريد أن يسأله إن كان قد رأي أحداً ما هناك . . لكن كيف يسأله ذلك ! . . بما أنه لم يخبره بشيء آخر فربما لم يرها أحد منهما . . أو ربما لم تذهب هي اليوم .

*****

بعد رحيل الطبيب لم ترحل حياة وتترك العم حمدي والخالة ميرفت بمفردهما ، أخبرت أمها بما حدث وطمأنتها بأنها ستبقي بعض الوقت حتى تطمئن علي والدة راغب وحينها تأتي هي الأخرى لزيارتها .
بعد أن ذهبت حياة وأتت بالدواء الذي وصفه الطبيب ، دخلت إلي مطبخ الخالة ميرفت وأعدت لها الطعام الصحي حتى يقويها ، بعدما انتهت من طهيه أتت إليها بطبق من الشوربة الساخنة وقطعة من الدجاج وطبق من الأرز .
أخذ حمدي الصينية من يدها مبتسماً ثم وضعها بجانب زوجته : شكراً لكِ يا ابنتي ، لقد أتعبناكِ اليوم معنا كثيراً ، أخجل من تركك في مطبخنا تعدين الطعام بنفسكِ .

ابتسمت حياة : لا تقل هذا يا عم حمدي ، ما فعلت إلا الواجب، ثم نظرت إلي ميرفت في شيء من الحنان . . بالهناء والشفاء يا خالتي . . سلمكِ الله من كل شر . .
شعرت ميرفت بالخجل من لطف الفتاة فأجابتها لأول مرة بلطف: شكراً لكِ . . أتعبناكِ معنا .
ابتسمت حياة من هذه الكلمات الحلوة لأول مرة : لا أبداً يا خالتي . هذا الدواء بعد الأكل مباشرة يا عم حمدي ، أرجو أن يعجبكِ طهيي ، لا ترهقي نفسكِ كثيراً فقد قال الطبيب أنكِ بحاجة للراحة .
نظرت للعم حمدي قائلة : إذا احتجتني في أي شيء أرجو ألا تتردد في ذلك يا عمي ، سأذهب الآن وأدعكما علي راحتكما ، عن إذنكما . .
رافقها حمدي إلي الباب : لا أعلم كيف أشكركِ يا ابنتي حقاً . . لولا وجودكِ ما كنت علمت عنها شيئاً أو استطعت مساعدتها أو إعداد الطعام لها من صدمتي لما حدث .
حياة في خجل وابتسامة لطيفة : أوصانا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام بسابع جار يا عمي ، سآتي في الليل مع أمي للاطمئنان عليها إذا لم تمانعا طبعاً .
حمدي : طبعاً يا ابنتي . . سنزداد شرفاً . . تفضلا في أي وقت .
حياة : شكراً لك كثيراً . . عن إذنك .
عاد حمدي إلي زوجته ليساعدها في تناول طعامها . . فوجدها

تبكي .
حمدي : ما الأمر يا ميرفت ؟! ، لِمَ هذا البكاء الآن وقد طمأننا الطبيب يا عزيزتي ؟! .
ميرفت : لطالما كان نفسي في فتاة ، ابنة تهتم بي وتقضي الحاجات التي لا أقدر عليها لكن الله لم يرزقني بها .
حمدي : بل الحمد لله الذي رزقنا برجلين مثل الأسود يا ميرفت، الله يحميهما لنا ويعودا سالمين .
ميرفت : أتري ؟! . . إنهما حتى ليسا هنا بجانبي ولا يعلمان عني شيئاً .
حمدي : وما ذنبهما ؟! ، الكبير في عمله والصغير في جيشه . . لا تدعِ مثل هذه الأمور تسيطر عليكِ الآن يا عزيزتي ، إنكِ مرهقة وبحاجة للراحة حتى من التفكير .
مازالت ميرفت تصر علي تذمرها : ولو كان أحدهما متزوجاً هل كنت سأبقي في مثل هذه الحالة يا حمدي ؟! .
أمسك حمدي الملعقة بيده وغمرها في طبق الشوربة ورفعها إلي ميرفت بابتسامة وبعض الرومانسية حتى تهدأ قليلاً : تفضلي يا حبيبتي ، منذ زمن ولم نحظ بهذه الفرصة ، أنا وأنتِ وحدنا وأطعمكِ بيدي مثل أيام زمان ، هل تذكرين يا ميرفت كيف أحببنا بعضنا بعضاً وتمسكنا بهذا الحب حتى تزوجنا ؟ .
ابتسمت ميرفت فقد نجح حمدي أخيراً في توقفها عن تذمرها . .

نعم أذكر . . يا لها من قصة يا حمدي .
حمدي مبتسماً : خذي من يدي إذاً قبل أن تبرد ، دعينا نتذوق طهي الفتاة ، فربما تعجبكِ وترضين عنها يا حبيبتي .
تناولت ميرفت من يده وأخذت تستطعمها ثم قالت : ليست مثل التي اطهيها ، لكن لا بأس بها .
تناول حمدي منها أيضاً وحاول الإشادة بزوجته حتى يفرحها : نعم . . مذاقها جيد ، لكن بالطبع ما تطهيه زوجتي لا يعلو عليه أي طهي في العالم .
ابتسمت ميرفت من كلماته . . حسناً ناولني قطعة الدجاج أشعر بالجوع جداً .
إنها طبيعة الأنثى . . تلين بكلمة طيبة أو غزل صادق حتى وإن أصبحت مشاعرها يوماً ما مثل الحجارة . . تماماً مثل ميرفت .

*****

أما عن المسكينة ليلة ، سيطر عليها القلق تماماً ، ربما تفهمت أن عمران قد امتنع عن المجيء اليوم بسبب حمزة وصديقه ، ولكن كيف سأخبر عمران أن نصار ربما يأتي مساء اليوم أو غداً ؟! . . لن أستطيع الخروج لمقابلته . .

*****

شهد الليل لأول مرة صحبة كانت تعد ثامن عجائب الدنيا . .

صفاء وحياة بصحبة ميرفت وحمدي . . لو يعلم الرجلان بما يحدث في منزلهما في غيابهما ! .
صفاء : سلمكِ الله وعافاكِ من أي شر يا أم عمران .
ميرفت مع ابتسامة خفيفة : سلمكِ الله يا أم حياة . . شكراً علي زيارتكِ . . أتعبناكِ وأتعبنا حياة . . بارك الله لكِ فيها .
بادلتها صفاء بابتسامة عريضة فقد كانت مفاجأة لها أن تسمع هذا الكلام اللطيف من ميرفت : لا تقولي هذا يا أم عمران ، الجيران لبعضها ، كما أن أولادنا الثلاثة قد تربوا سوياً حفظهم الله .
حياة : حفظكِ الله لأولادكِ يا خالتي . . هل أخبرت أحداً منهما يا عم حمدي ؟.
حمدي : في الحقيقة لم نشأ أن نقلقهما في سفرهما . . أصرت ميرفت علي ذلك .
ميرفت في نبرة مرهقة : نعم . . لا أريد أن يصيبهما القلق ، كما أن الطبيب أخبرنا أنه مجرد إعياء وإرهاق وسيزول مع الراحة إن شاء الله .
حياة : لا يا خالتي . . لا تنسِ ما طلبه الطبيب من تحاليل وأيضاً أشعة علي القلب ، لنقم بهم حتى نطمئن عليكِ .
حمدي : حياة معها حق يا ميرفت ، سنذهب غداً لعمل الفحوصات والتحاليل إن شاء الله ، مجرد اطمئنان فقط يا عزيزتي .

حياة في نبرة مصرة : سآتي معكما غداً إن شاء الله يا عم حمدي .
نظرت صفاء لحياة في اندهاش من مبادرتها بالأمر وخافت أن تحرجها ميرفت أو تتضايق منها
ميرفت : لا داعِ لذلك يا حياة . . لا أريد أن أتعبكِ أكثر . . سأكون بخير .
حياة : كيف لا داعِ لذلك ! . . لا أنسي معروف راغب وعمران معنا حينما وقعت أمي وانكسرت قدمها منذ سنوات ، صحيح أني لست بقوة الرجلين لكنِ سأفعل ما بوسعي ولن نجد شراً إن شاء الله يا خالتي .
نظرت ميرفت لحمدي في خجل ودون كلام ، فقد تذكرا ما حدث يومها وكيف غضبت ميرفت من تصرف ولديها حينما تأخرا هناك ، بادلها حمدي النظرات الثاقبة وكأنه يلومها علي ما فعلت في ذلك اليوم الذي حفر جميلاً في ذاكرة الفتاة وأمها إلي الآن .

*****

انتهت ليلة من عرضها الراقص للتو ، بينما هي عائدة إلي غرفتها لتبدل ملابسها فإذا به يظهر أمامها . . نصار . . لقد عاد .
وقف أمامها بابتسامته الباردة : كيف حالكِ يا ليلة ؟ . . هل اشتقتِ إليّ ؟! .
نظرت له ليلة بقرف شديد ، لم ترد عليه ، فقط دخلت غرفتها وقفلتها بالمفتاح .

ضحك الحقير بصوت عالٍ وكأنه قد نال ما تمني بفعلته هذه ، كان يتلذذ في كل مرة يغضبها فيها ، كان يستمتع بغضبها أكثر من أي شيء في حياته .
بدلت ليلة ملابسها ثم توجهت إلي غرفة والدتها لتقضي عندها ليلتها ، تشعر بأنها ستكون آخر الليالي الهنيئة لها في هذه الدنيا .
. إنها خائفة جداً الآن ولا تستطيع السيطرة علي هذا الخوف .

*****

(في الخامس والعشرين من أغسطس) (في فنيدق)
فتح عيناه فوجد نفسه في غرفة مظلمة لا يتسلل فيها إلا شعاع من بين القضبان التي وضعت في النافذة بإحكام ، لكن هذه القضبان لا يمكن إزالتها ، إنه شعاع الأمل الوحيد الذي لا اختلاف عليه في كل أنحاء العالم ، شعاع يصبر هذا الغريب علي ما أصابه بعيداً عن أهله وموطنه . . شعاع الشمس .
دخل أحدهم من باب الغرفة المظلمة واقترب من ذلك المُكبل بالسلاسل من كافة أطرافه ثم همس في أذنه كأنه فحيح الأفاعي في الظلام الدامس . . » هل أعجبتك ضيافتنا يا عمران ؟ « .

*****

(في الخامس والعشرين من أغسطس) (في الإسكندرية)

دخلت ميرفت إلي شرفتها ومعها زجاجة من الماء تسقي منها النباتات التي جلبتها لها حياة خصيصاً لتضعها في الشرفة ، نباتات من الياسمين ذو الرائحة الذكية التي تزرعها حياة في شرفتها ، كذلك نباتات من الورد البلدي الذي تشعر بالانتعاش والأمل عندما تشمه بين يديك .

بعدما انتهت ميرفت من سقاية النباتات ، جلست علي كرسيها في الشرفة وأتي حمدي إليها ومعه كوبان من الشاي وبعض من قطع الكيك اللذيذة التي صنعتها صفاء خصيصاً لميرفت.

ناول حمدي زوجته قطعة صغيرة من الكيك مع كوب الشاي قائلاً : ما أجمل السلام الذي أدخلته هذه الفتاة علي بيتنا ، أري أن لابننا الحق في أن يحبها .

ابتسمت ميرفت ونظرت إلي شرفة حياة قائلة : نعم . . إنها حقاً مسالمة وهادئة ، وأمها أيضاً ، لقد حكمت عليهما حكماً خاطئاً يا حمدي ، تبين لي ذلك حينما تقربنا أنا وصفاء ، هل سيسامحني الله في ذلك ؟! .

ابتسم حمدي قائلاً في هدوء : صحيح أننا جيران منذ زمن لكن لم يقدر لنا الله أن نتعامل عن قرب كما حدث هذه الأيام ، تغير كل شيء عندما عرفتِ قصتها ، بالطبع سيسامحكِ الله يا عزيزتي . . الله يسامحنا جميعاً .

ترقرق الدمع في عيني ميرفت قائلة : نعم . . لقد قربنا المرض يا حمدي ، كان لابد أن يصيبني الله في صحتي حتى نتعامل سوياً ونعرف بعضنا بعضاً ، فهل تراه تكفير لذنوبي ؟! .

حزن حمدي لما قالته زوجته ولكنه حاول تلطيف الجو قليلاً قائلاً بحب : لا تقولي هذا يا عزيزتي ، هناك سبب لكل شيء ، سيشفيكِ الله ويعافيكِ قريباً إن شاء الله أنا واثق من ذلك ، ربما كان السبب من ذلك هو أن نتعرف أكثر علي بعضنا كما قولت لكِ ، حتى لا نظلم ابننا ونحرمه من حبه الوحيد ، حتى لا نُحزِن هذه الفتاة اليتيمة ، حتى تعود ميرفت حبيبتي لسابق عهدها .

نظرت إليه ميرفت حائرة هل تبتسم لكلامه أم تدمع ولكنه استمر في كلماته في هدوء تام ونبرة من الحب الشبابي التي افتقدتها ميرفت منذ زمن في زحام السنين والعمر .

» اشتقت إليكِ كثيراً يا عزيزتي . . اشتقت لتلك الفتاة التي فعلت الكثير وتحديت العالم لآخذها عروساً لي . . تلك الفتاة التي تحملت معي كل شيء ورضيت بي فقيراً معدماً بل ووقفت بجانبي حتى تمكنت من الوقوف علي قدمي . . ميرفت المفعمة بالحب والحنان . . لقد غيرنا الزمن كثيراً حتى نسينا أنفسنا ونسينا هذا الحب . . كبرنا وكبر أبنائنا . . جاء الوقت لنجعلهم يختاروا كما اخترنا لأنفسنا . . تحدينا آبائنا في صغرنا . . حاربنا لنرضيهم ونرضي أنفسنا . . فلِمَ ندع أبنائنا يتحدونا ونرهق أنفسنا

من جديد ونجعلهم يعانون مثل ما عانينا سابقاً ! . . إن الحياة لا تتطلب كل هذا العناد . . لنكن مفعمين بالحياة نبحث عما يفرحنا فيها ويحقق أمنياتنا وشغفنا كما يفعل عمران . . فلنُصِر علي الركض وراء أهدافنا وتحقيق نصراً وراء آخر كما يفعل راغب . . لنكن مسالمين نحب الجمال ونتلذذ بكل ما حولنا من نِعم كما تفعل هذه الفتاة الصغيرة التي أدخلت الحياة لقلوبنا من جديد . . نكن حمدي وميرفت فقط . . الحبيبان المخلصان لبعضهما بعضاً . . المتعاهدان علي البقاء معاً حتى النهاية وما بعدها » .

رق قلب ميرفت المريض ودمعت عيناها لحلاوة وعذوبة كلام زوجها ، لم تتحداه في عبارات صارمة مثل كل مرة ، من الأفضل أن تتخلي المرأة عن عنادها حتى تستمتع بمثل هذا الحب ، فأسلوب الند للند طوال الوقت لا يريح قلباً أتعبه المرض ، ولا يشبع روحاً افتقدت للحب ، إنما يولد المزيد من المشاحنات والغضب والثأر ، وربما الكراهية من جراء التكرار ، لقد اشتاقت هي أيضاً لكل ما قاله ، نعم إن الحياة لا تستحق كل هذا العناء الذي نأتي به لأنفسنا ، إنها رحلة وتنتهي ، استمتعوا بها كثيراً قبل أن يفوت الأوان .

*****

(الحادي عشر من أغسطس)

جاء الصباح ولم يكن كأي صباح ، ركض عمران ركضاً سريعاً إلي مكان لقائه بفتاته ، لم يجدها ، لم يكن يتحمل الانتظار ، أخذ يتجول بين الأشجار في حيرة وقلق ، ماذا اعتقدت البارحة يا تري حينما لم آتِ ؟! ، هل تصادفت مع حمزة وحليم ؟! ، هل خافت منهما لذلك لم تأتِ اليوم ؟! ، ماذا أفعل أنا هنا ؟! ، هل سأقف هكذا لا أقدر علي فعل شيء ؟! .

اتخذ قرار الذهاب إليها وحينما بدأ بأول خطوة نحو طريقها منعه صوت حمزة للمرة الثانية . . »إياك يا عمران» .

التفت عمران إليه ثائراً . . » لماذا تتبعني دائماً يا حمزة ؟! » . .

حمزة في غضب : لأنك تتبع جنونك يا عمران ، لا تدري ما العواقب خلف تصرفاتك هذه .

عمران : نعم أنا مجنون ، اتركوني وشأني ! .

أمسك حمزة بمعصمه بقوة : إذاً لماذا لا تتركنا وشأننا أيضاً ؟! ، لماذا تريد الهلاك لنا جميعاً ؟! ، إنك أناني لا تفكر إلا في نفسك . .

سكت عمران للحظات يستمع لكلام حمزة . . » إذا كنا لا نعني لك شيئاً ولن تحزن علينا . . إذا كنت لن تفكر بنفسك أو بهلاكك . . فكر إذاً في أهلك أنت . . ماذا عن أهلك الذين ينتظرون عودتك ؟! . . ألا يعنوا لك شيئاً أيضاً ؟! . . فكر في والدك . . في والدتك . . في أخيك . . في صديقك الذي ينتظر أهله عودته

سالماً كما أهلك بالضبط » .
مازال عمران في غضبه : ماذا تريد مني أن أفعل إذاً ؟! ، أن أقف وأشاهد مثلكم ؟! ، لا أقدر يا حمزة صدقني لا أقدر .
حمزة : لا . . استمع إلينا علي الأقل ولا تفعل شيئاً من تلقاء نفسك وبدون علمنا ، فكر بعقلك لا بقلبك يا رجل ، إنك هائم بها ولا تشعر .
تنبه عمران لهذه الجملة التي قالها حمزة للتو . . هائم بها . .
حمزة : إن ذلك الحقير أتي مساء البارحة ، لن تتمكن من المجيء اليوم وحتى يرحل ثانية ، لا تأمل كثيراً ، إنها تفكر بنا أكثر مما تفكر فينا أنت يا عمران .
مازال عمران ساكتاً عن الكلام . . » هيا بنا يا عمران هداك الله .. إن بقائك هنا هذه الأيام هو قمة الخطر . . سأرسلك مع حليم وخديجة في رحلتهما . . علي الأقل استمع إليّ حتى يرحل هذا الحقير من هنا . . هيا » .
ما كان من عمران إلا أن مشي معه في صمت حقناً لدماء الكثيرين . . شفقة عليهم وعلي أهله أيضاً . . إنك محق يا حمزة .

*****

ذهبت حياة مع ميرفت وحمدي للقيام بالتحاليل والفحوصات التي طلبها الطبيب من ميرفت ، ساعدتها حياة في كل خطوة حتى تعجبت ميرفت من طيبتها ورفقها بها بالرغم من أن ميرفت

لم تعرها الحب يوماً .
عادوا جميعهم إلي بيت حمدي بعدما انتهوا ، صعدت معهما الفتاة وساعدت ميرفت في الدخول إلي فراشها واستأذنت منهما أن تعود لوالدتها .
صفاء : ماذا فعلتم يا ابنتي ؟ . . طمئنيني .
قالت حياة وهي تخلع حجابها : قمنا بعمل التحاليل والفحوصات يا أمي وسوف تظهر بعد يومين إن شاء الله .
صفاء : وكيف حال ميرفت الآن ؟! .
حياة : تركتها تستريح في غرفتها واستأذنت منهما . . تشعر ببعض الإرهاق .
صفاء : شفاها الله وعافاها . . أريد أن أتحدث معكِ يا حياة .
حياة : ما الأمر يا أمي .
ترددت صفاء قليلاً قبل قول ذلك : إنكِ تبذلين الكثير معها ولا أعلم هل تقبله منكِ أم لا .
تعجبت حياة : أنتِ من تقول هذا يا أمي ؟! . . أنتِ من علمني أن أفعل الخير ولو حتى لأعدائي فأتقي شرهم .
تنهدت صفاء : أعلم يا صغيرتي . . لكن كما تعلمين أيضاً أن كل هذا ربما يثير الشكوك في نفسها من ناحية راغب ، لا أريدكِ أن تظهري بصورة الفتاة التي تحاول استمالة حماتها لنيل رضاها والموافقة عليها لابنها ، أريدكِ أن تظلِ غالية كما أنتِ.

تنهدت حياة هي أيضاً : افهم قصدكِ يا أمي ، لكن الله يعلم نيتي وهو قادر علي توصيلها لها ، إنني فقط أريد مساعدتها ورد الجميل لا استمالتها ، لا تنسي أنها أم راغب يا أمي ، إن أمرها يعنيني طالما يعني راغب ، أريدها أن تشفي قبل مجيئه فلا يحزن ويصيبه القلق ، شفاها الله وعافاها وعافانا جميعاً .

*****

في بيت حمزة . . دخل حمزة مسرعاً منادياً علي أخته . . خديجة, ركضت خديجة إليه مسرعة . . نعم يا أخي . . لعله خير إن شاء الله .

جلس حمزة علي أريكته قائلاً : استعدي للذهاب مع حليم وعمران في رحلة اليوم ، اختاري مكاناً تبقون فيه أربعة أيام أو أكثر ، خذوا وقتكم هناك ولا تعودوا إلا بعدما تخبروني أولاً .

تعجبت خديجة من قرار أخيها : ما هذا الأمر المفاجئ يا أخي؟! ، ألن تذهب أنت مع حليم ؟! ، وهل سيأتي عمران أيضاً ؟! .

أجابها حمزة في حزم : فقط نفذي ما أطلبه منكِ يا خديجة ، اذهبي الآن وأخبري حليم بذلك ، أرجو أن ترحلوا اليوم ، كلما كان أسرع كان أفضل .

اندهشت خديجة من كلام أخيها بالكامل : لكن يا أخي بما أنها ستكون رحلة طويلة فلابد أن نستعد لها ونعد

الطعام وكل شيء كما تعلم أننا نذهب سيراً وسيتطلب منا ذلك مجهوداً ووقتاً ، سنرحل في الصباح الباكر إن شاء الله .
تنهد حمزة تنهيدة طويلة ثم قال : حسناً . . اذهبي وأخبريهما بذلك .
خديجة : حسناً يا أخي .
حمزة محدثاً نفسه : أتمنى ألا يفعل عمران شيئاً حتى الصباح ، الله يهديه هذا الرجل .

*****

كان عمران يقص ما حدث علي حليم حتى سمعا طرق الباب ففتح حليم الباب .
خديجة : السلام عليك يا حليم . . كيف حالك .
حليم : وعليكِ السلام يا خديجة . . بخير وأنتِ ؟ .
خديجة : بخير . . سنذهب في رحلة قد تدوم لأربعة أيام أو أكثر، لا أعلم كم يوم بالضبط لكن هذا ما أرادني أخي أن أبلغكما به، قال أيضاً أن عمران سيأتي معنا ، جهزوا أشيائكما إذاً واستعدا جيداً ، سننطلق غداً مع انطلاق أشعة الشمس إن شاء الله .
نظر حليم لعمران الذي لم يكن مستغرباً ثم نظر لخديجة . . » حسناً يا خديجة بلغيه أننا سنكون جاهزين علي الموعد إن شاء الله . . إلي أين سنذهب ؟! ».
خديجة : إلي » وادي قديشا » .

*****

(الثاني عشر من أغسطس)

مع انطلاق أول شعاع للشمس استعد الرجلان وخديجة للذهاب، أعددت خديجة الطعام وأحضرت ما يكفيها هي والرجلان ، أحضروا خيامهم وبعض الأمتعة التي سيحتاجونها أيضاً.
حمزة : حظاً موفقاً يا شباب . . كونوا حذرين .
حليم : لا تقلق يا حمزة . . معنا أمهر دليل في لبنان .
نظر حمزة وعمران لبعضهما لكن لم يصدر من أي منهما صوتاً للآخر . . إلا أن حمزة قد همس في أذن حليم . . » انتبه لصديقك » . . فتلقاها حليم دون كلام .
حمزة : في أمان الله . . أختي في أمانتكما أيها الرجلان . . ليكن كل منكم عوناً للآخر . . سننتظر عودتكم سالمين إن شاء الله . .
ثم نظر لعمران الذي لم ينطق ولا كلمة . . »إلي اللقاء يا عمران».
أجابه عمران في هدوء : إلي اللقاء يا حمزة .
طبعت خديجة قبلة علي خد حمزة مودعة إياه فأشار لها برأسه مذكراً إياها باتفاقهما . . فبادلته الإشارة أيضاً .

*****

كانت تنظر إلي أشعة الشمس هي الأخرى ، ولكن من خلف

قضبان نافذتها ، لن تستطيع خلع هذه القضبان لأيام ، لن تري الأشجار ولا السناجب ولن تشعر بالهواء الذي يداعب خصلات شعرها عندما تتلقاه بالتمايل والرقص ، ولكن أكثر ما يحزنها أنها لن تري عمران .

عاشت عشرة أيام هنيئة عرفت فيهم الفرح والحب . . الحرية والانطلاق . . أما الآن تتمنى ألا تدفع الحزن والبكاء والخوف ثمناً لتلك الأيام . . لكن من يدري ما سيحدث .

*****

مرّ الوقت لكن ليس سريعاً هذه المرة ، وصل الشباب إلي وجهتهم » وادي قديشا« أي الوادي المقدس . تبلغ مساحة الوادي حوالي ٢٠ كيلومتراً فقط ، مساحة صغيرة بالنسبة لما فيها من مغارات كانت مكاناً للاختباء من المماليك ، كما يوجد فيه مغارة قديشا وغابة أرز وعدد من النباتات الطبية والأعشاب بالإضافة للزهور المتنوعة . انتهز سكانها من النُساك والرهبان كل متر فيها ونصف متر من الصخور لزراعته . من محاصيلهم العنب والزيتون والتوت. .

تجولوا فيها والتقطوا الصور للطبيعة الخلابة والجو الهادئ المفعم بالروحانية والراحة وخيموا فيها أيضاً ، انشغل حليم وخديجة بالتصوير ، وأيضاً وضعوا عيناً علي عمران الحزين الحائر الذي لم يكن يتفوه بكلمة ، فقط يشاهد ويتجول معهما ، حتى أتي الليل

وبزغ القمر في السماء . بعد تناول العشاء جلس الجميع صحبة حول النار الموقدة يتناولون الشاي ، حاول كل من خديجة وحليم التخفيف عن عمران وإزالة ذلك الحشو من فمه الذي منع كلامه ليوم كامل .

قالت خديجة في مرح : إذاً يا عمران . . لم أكن أتوقعك بهذا الشكل . . إنك هادئ أكثر من اللازم.

ابتسم حليم قائلاً : هادئ ! . . إنكِ لا تعرفين صديقي يا فتاة . . اسأليني أنا عنه .

ابتسمت خديجة موجهة كلامها لعمران : حسناً . . كنت أحسبك مثل صديقك حليم . . قد يسقط في سبيل التقاط صورة أعجبته مع أنه قد التقطها من ثلاث زوايا قبلاً . . لكن اتضح أنك تخاف علي حياتك أكثر من أي شيء . . إنك حتى لا تكلف نفسك بالتحدث إلينا خوفاً من أن تُجرح حنجرتك.

وقف عمران من مكانه قائلاً في نبرة الهدوء المصحوبة بالحزن : أعذراني . . أريد أن أنام قليلاً . . شكراً علي العشاء والشاي يا خديجة . . سلمت يداكِ .

نظرت إليه خديجة في تعجب : لا عليك . . تفضل .

حليم : مازلنا باكراً يا رجل . . تسامر معنا قليلاً .

عمران : »لا أقدر يا صديقي . . أشعر بالنعاس . .

طابت ليلتكما« . . ثم ذهب إلي خيمته .

حليم : طابت ليلتك يا صديقي .
نظرت خديجة لعمران حتى تأكدت من دخوله خيمته . . ثم التفتت إلي حليم . . » لم أعتقد أن صديقك هكذا . . لا يتحدث . . لا يبتسم . . ولا أي شيء » .
تنهد حليم قائلاً : أنتِ لا تعرفينه يا خديجة كما أعرفه . . إنه حزين للغاية هذه الأيام .
خديجة في شيء من الفضول : حزين ؟! . . لماذا يوصيك أخي بصديقك هكذا ؟! . . ما قصته ؟!
حليم : إنها قصة قد تحدث في الأفلام فقط . . هل أحكيها لكِ؟! .
بدا علي خديجة الفضول أكثر : نعم . . بالطبع . . دعنا نتسامر .
أخذ حليم يروي لخديجة قصة عمران وليلة . . ولماذا يحرص حمزة كل الحرص علي ألا تغفل عينه وعيني عن عمران .
استنتجت خديجة بعض الأمور قائلة : الآن فهمت لِمَ طلب مني أخي أن تكون هذه الرحلة طويلة كأنه يريد إبعاده عن المكان لأطول فترة ممكنة . . كما أراد أن اخبره قبل أن نعود . . مسكينة ليلة . . الآن فهمت شعور عمران وحزنه علي هذه الفتاة . . حتى أنه لا يتكلم . . هل الحب مؤلم لهذه الدرجة ؟! .
ابتسم حليم من تعاطف خديجة مع القصة ، كما أراد أن يجيب علي سؤالها . . » نعم . . مؤلم جداً . . بل يأكل القلب من شدة الألم ».

اندهشت خديجة من إجابته قائلة : هل أحببت قبلاً ؟! .
حاول حليم المماطلة في إجابته حتى يثير أي شيء في نفسها ناحيته: ربما .
قالت خديجة في بعض التحذلق عليه . . » إن الحب الحقيقي لا تكون إجابته بكلمة » ربما » . . إذاً لم يكن حباً حقيقياً » .
ضحك حليم قائلاً : ربما معكِ حق . . لقد كان ذلك في سن المراهقة .
خديجة : تقصد أنه قد ذهب ؟! .
أجابها حليم في بعض اللؤم : بالطبع . . لقد تخطيت سن المراهقة منذ زمن .
لم تكن إجابة حليم كافية لإشباع فضول خديجة . . أرادت أن تسأله بشكل أوضح ولكن لاحظت من مماطلته أنها قد أطالت الأمر فقررت الذهاب لخيمتها ونهضت من مكانها . . ولكن حليم قد قام بخطوة مفاجئة وأمسك بيدها . . وأجلسها مكانها مرة أخرى .
كان القمر لهذه الليلة شاهداً علي حوار خاص بين حليم وخديجة . . لا يوجد » ربما » إذا كان الحب حقيقياً . . لقد أصبتِ في قولكِ . . ولو سألتني سؤال آخر لكانت إجابتي لكِ » نعم . . بل ألف نعم » . .
كان هذا تلميحاً من حليم لخديجة عما يدور في قلبه . . أراد

فقط أن يتأكد من مشاعرها تجاهه . . أن تعطيه أي إشارة حتى يتجرأ علي البوح بذلك السر الكبير . .

ما كان من خديجة إلا أن نظرت للقمر وابتسمت ثم نظرت لحليم وكأنها ترد له مراوغته لها في بادئ الأمر : » أحب القمر حينما يكون بدراً هكذا . . أنظر إليه كثيراً وتوغل في هالته . . ستشعر وكأن صوته يهمس في أذنك بنبرة دافئة حنونة . . يخبرك بكل الأسرار التي تريد معرفتها . . إنه يقرأ أفكارنا دون أن نشعر . . يعرف ما يدور في قلوبنا يا حليم . . وحتى ما لم نتأكد منه بعد » . . ثم سحبت يدها من يده ونهضت . . »تأمله جيداً . . ربما يخبرك بما تريد» .

ذهبت الفتاة إلي خيمتها وتركت هذا الشاب وحيداً مع القمر . . مستيقظاً طوال ليلته منتظراً أن يخبره القمر بما يريد . .

*****

(الثالث عشر من أغسطس)

ذهبت حياة لجلب التحاليل والفحوصات الخاصة بميرفت وسألت الطبيب عما فيها فصدمتها النتائج ، كيف ستخبر أم راغب بذلك؟! ، وماذا سيفعل راغب وعمران والعم حمدي ؟! . . بل كيف سيكون وقع هذا علي ميرفت نفسها ؟! ، سيحول وضعها من سيء إلي أسوأ بالتأكيد .

كانت تتقدم خطوة وتتأخر خطوتين ، لا تعلم كيف ستخبرها بذلك ، وصلت إلي شقة ميرفت وترددت في طرق الباب ولكنها في نهاية الأمر طرقته . . ففتح حمدي .

حمدي : أهلاً بكِ يا ابنتي . . تفضلي بالدخول .

حياة في حرج كبير وبعض الأسى : شكراً يا عم حمدي . . لقد جلبت الفحوصات والتحاليل . . تفضل .

حمدي : حقاً ! . . وماذا قال الطبيب عنها ؟! .

بدا الأسى علي وجه حياة ولم تكن تعرف كيف تقول ذلك . . في الحقيقة . . قال الطبيب . . إنه . .

قلق حمدي من تعثر الفتاة بالكلمات : ماذا قال يا حياة ؟! . . طمئنيني ! .

حياة : قال . . قال أن خالتي ميرفت . . تعاني من اضطراب في عضلة القلب .

سكت حمدي عن الكلام وبدت علي ملامحه الصدمة فقالت حياة : آسفة لذلك حقاً ، ولكن الالتزام بالدواء في موعده والراحة سيعطيان نتائج أفضل إن شاء الله . . سنستشير الطبيب المعالج ونلتزم بما يقول .

لسوء الحظ أن ميرفت سمعت ما قالته حياة . . فسقطت أرضاً .

*****

إنه يوم الأحد . . يرتدي وادي قديشا في أيام الأحد و الأعياد أيضاً

ثوب الضباب من كثرة الدخان المتصاعد من حرق البخور وأداء الصلوات في الوادي . . تمتع الشباب بهذا المنظر كثيراً والتمسوا الروحانيات من كل جانب . . استمروا في اليوم الثاني من رحلتهم في الوادي وتجولوا وتمتعوا كثيراً .

*****

كانت ليلة تنام في غرفة والدتها هذه الأيام ، أتي الصباح ولا تستطيع الذهاب لرؤية عمران ، لا تعرف حتى أنه لا يأتي ، لا تريد أن يعرف نصار بشأنه بأي شكل من الأشكال حتى لا يؤذيه أو يؤذي أهل البلدة كما فعل سابقاً .

سمعت صوت ذلك الحقير وقد كان غاضباً جداً ، أخذ يصرخ في رجاله ويكسر ما كان يقابل يده ، أرادت أن تعرف ما كان يدور خارجاً فأخذت تسترق السمع من خلف الباب .

ما فهمته أن أحد أعداءه قد ربح صفقة من صفقاته الغير مشروعة هذه المرة فعزم علي الانتقام منه وإعداد المكائد له . .

قال أحد رجاله : ولكن يا سيد نصار ماذا سنفعل مع » ميخائيل » هذا ؟! . . ليست هذه أول مرة يفعلها معنا . . لم ينفع معه أي شيء مما اتبعناه قبلاً . . لابد من حل آخر . . ما رأيك بأن نلجأ لحيلة المرأة التي تحتال عليه وتمكنا من زمامه ؟! . .

رد رجل آخر : نعم . . إنه زير نساء من الدرجة الأولي . .

ولكن لابد من امرأة ذكية تعرف كيف تجذبه إليها فينفذ كل ما

نطلبه منها ونمليه عليها .
رد رجل آخر : ومن هذه المرأة يا تري التي ستتمكن من » ميخائيل » وتمكننا منه ؟! .
بدأ نصار يفكر وكأن هذا الحل قد أقنعه ، نهض من مكانه متجهاً إلي باب غرفة حسناء ، فتح باب الغرفة بسرعة ، مدّ يده وراء الباب وأتي بليلة التي رأي ظلمة ظلها من تحت باب الغرفة ، أمسكها من شعرها وسحبها خارج الغرفة قائلاً في غضب : » هذه هي . . ستكونين أنتِ الطعم للقضاء علي » ميخائيل » . . أليس كذلك يا فتاتي المُطيعة ؟! » . .
صرخت ليلة بشدة محاولة نزع يده من شعرها : » اتركني . . لن أكون طعماً لأحد . . لن أكون طرفاً في أعمالك القذرة أيها الحقير » . .
جذبها نصار إليه في انفعال شديد وغضب كشف عن أنيابه التي تشبه أنياب دراكولا في ذلك الوقت : » ومنذ متى وأنتِ تعصين أوامري ؟! . . ها ؟! . . هل نمت للقطة أنياب وأصبحت تتطاول علي الأسود الآن ؟!» . .
أجابته ليلة في قوة لا تهابه : »لا تظلم الأسود الشرفاء . . إنك ذئب نَتِن . . نفس دناءة وخيانة الذئاب أيها الحقير . . حتى أنها ستكره نفسها إذا سمعتني». .
بدا غضبه كالغليان وأحمر وجهه كثيراً ، رماها أرضاً من شدة

غيظه فارتطمت بالطاولة وصرخت ولم تستطع الحراك ، أشار إلي رجاله بالانصراف حتى يتمكن منها علي راحته .
أخذ يضرب فيها بكل قسوة ، يمسكها بيدٍ ويضرب بالأخرى ، يرفعها بقوة من ذراعيها حتى تقف علي قدميها ثم يلقيها إلي الأرض ثانية ـ هكذا مرات ومرات وصوت صراخها يدوي في المكان.
أما عن المسكينة ذات القلب المسكين ، إنها في غرفتها لا تستطيع حتى الدفاع عن ابنتها ، لا تستطيع حراكاً بسبب ما فعله بها هذا الدنيء ليلة مقتله لأمين ، نعم إنه السبب في هذا المرض . . «
أخذ يضربني بشدة لا يعرف أين يضرب . . ما كان مني فقط إلا أن أصرخ . . ولكنِ خسرت الصراخ أيضاً . . دفعني بشدة علي الطاولة ووقعت علي ظهري . . من يومها وأنا والفِراش قطعة واحدة » . .
تذكرت كل شيء ، وكأنه يعيد نفسه ثانية ، الصراخ أعاد إليها كل الذكريات التي لم تفارق مخيلتها يوماً ، لكنها الآن واقع من جديد في أحب الناس إليها ، ابنتها ، قطعتها الوحيدة والغالية . .
لقد قلّب الجمر فاشتعلت النار بداخلها من جديد ، أخذت تئن في حزن شديد لا تستطيع الحركة أو الكلام ، كانت ابنتها تسمعها وتشعر بقلبها الذي ينتفض من مكانه ، يوجعها أنين أمها أكثر من ضرب نصار لها ، فتنظر إلي السرير وتمد يدها لأمها والأمتار

بينهما ، لا تعرف من التي تطلب يد العون من الأخرى ، كلاهما لا يستطيعان حِراكاً والسبب نفسه ، ضحيتان والجلاد واحد .
لم يكد ينقذ الفتاة من قبضة هذا الغول سوي وقوع أمها علي الأرض من كثرة أنينها لأبنتها ومحاولتها المستميتة في الخروج من هذا الفخ الذي سقطت فيه وبقيت بداخله لسنوات .
صرخت الفتاة بشدة ناطقة باسم أمها وكأنه الغوث بالنسبة لها ، زحفت علي قدميها من أمام مخالب هذا الحيوان ، حتى أن الحيوانات تتمتع ببعض الرحمة أكثر منه . كانت كلما وقفت ارتمت أرضاً ، فزحفت من شدة الضرب والألم ، قد أغشي علي الأم أرضاً ، وما كان من طفلتها إلي البكاء والنحيب بجوارها .
أما عن الخائن فقد هرب ، ركب سيارته وذهب دون أن يسأل في فريسة الماضي ولا فريسة الحاضر .

*****

تفتح عيناها ببطء فتجد حولها زوجها والطبيب وحياة وأمها صفاء . . فتنتبه لصوت الطبيب الذي يسألها » هل تسمعينني؟!« .
أجابته ميرفت في إرهاق شديد : نعم .
الطبيب : لابد من الراحة التامة وعدم التعرض لأي ضغط عصبي أو نفسي . . فحوصات القلب ليست خطيرة جداً ونحمد الله أننا اكتشفنا الأمر في بدايته . . لكن كما قلت أن الراحة هي أول خطوة للشفاء وكذلك الالتزام بمواعيد وجرعات الدواء حتى لا

يحدث أي مضاعفات لا قدر الله . . سنجري فحوصات أخري بعد مرور شهر من تطبيق ما وضحته . . أتمنى لكِ الشفاء العاجل إن شاء الله .

حمدي : شكراً لك أيها الطبيب . . تفضل من هنا .

جلست صفاء بجوار ميرفت علي سريرها بينما وقفت حياة بجانبها يتمنيان لها الشفاء العاجل ويوصيان بتطبيق ما ذكره الطبيب .

صفاء : شفاكِ الله وعفا عنكِ يا أم عمران . . سيكون كل شيء بخير إن شاء الله إن اتبعتِ تعليمات الطبيب .

حياة : كما قال الطبيب يا خالتي ميرفت أن الراحة هي أول خطوة للشفاء . . حينما شاهدتكِ تسقطين في الشارع كنتِ تحملين الكثير من الأكياس والأشياء . . إنكِ ترهقين نفسكِ كثيراً وهذا خطر علي صحتكِ .

قالت ميرفت في نفس نبرة الإرهاق : وماذا سأفعل ؟! . . لا أحد يقوم بكل أعمال المنزل غيري . . لو كان عمران قد سمع كلامي وتزوج من ابنة أختي ما كان حالي هكذا .

صفاء : إن كل شيء نصيب يا أم عمران . . لم يأتِ نصيبه بعد . . الله يفرحكِ بعمران وبراغب إن شاء الله وتحملين أطفالهما بين يديكِ .

ميرفت : وهل سأعيش لهذا اليوم ؟! . . إن أولادي لا يهتمان بأمر

الزواج ولا يريدان أن يفرحاني حتى . . فهل سأحمل أطفالهما ؟!.
صفاء : لكل وقت أذان . . أطال الله في عمركِ وفرحكِ بهما إن شاء الله . . لا ترهقي نفسكِ بالتفكير الآن .
ميرفت : آمين . . أتمني ذلك .

*****

مرت ساعات ورجع الذئب إلي وكره ثانية ، فتح غرفة الفتاة فلم يجدها ، ذهب لغرفة حسناء فوجدها في سريرها نائمة ، أما ابنتها قد استندت علي طرف السرير وبقية جسدها علي الأرض ، تنتظر بجوار أمها فغلبها النعاس من كثرة الألم ، فلا طبيب سيأتي إلي هنا ولا يحق لأحد بأن يطبب جراحها ولا جراح أمها .
ساعدها الرجال في حمل أمها بعدما رحل نصار ، أما هي فأبت أن تدخل إلي غرفتها وتترك أمها وحدها .
جلس نصار إلي الطاولة وأخذ يفكر ، وجد بعض قطرات من دماء الفتاة علي الأرض فأمر أحد الرجال بمسحها فوراً . .
»ما الذي جعل هذه الفتاة تتحداني هكذا ؟! . . ما الذي حدث في غيابي يا تري ؟! . . ماذا سأفعل في » ميخائيل » أيضاً ؟! . . علي الأقل طالما أن حسناء في قبضتي فالفتاة أيضاً في قبضتي . . سأمنحها بعض الوقت لتشفي أولاً ثم نري ماذا سأفعل بها مع هذا المحتال » . . ثم جمع رجاله ورحل إلي العاصمة من جديد .

*****

انقضي اليوم الثاني في رحلتهم ولم ينطق عمران بكثير من الكلام مع صديقه وخديجة ، كان ينتهز فرصة الليل حتى يختبئ في خيمته ويترك الشاب والفتاة يتسامران في وجود القمر .

بات في خيمته يفكر في آخر كلمات قالها له حمزة . . » إنك هائم بها ولا تشعر « . . نعم يا عمران إنك هائم بها . . لا يمكنك إنكار ذلك . . وهمت نفسك أنك تقابلها وتعرف كل شيء عنها فقط من أجل القيام بعملك . . لكن الحقيقة هي أنك كنت تريد رؤيتها . . كنت تشتاق للصباح حتى تحظي بتلك الساعة بصحبتها . . تملكت ذهنك منذ اللحظة الأولي في المُصلي . . راودتك في أحلامك حينما سمعت نداءها ومناجاتها لربها . خطفت قلبك عند تلك الشجرة التي رميتها إليها بقوة . . بل استولت علي روحك حينما وقعت عيناك في عينيها الداكنتين . . إنك هائم بها يا عمران . . فبعد غياب صباحان فقط دون رؤيتها . . أصبحت تشعر بالأمر « . .

*****

أما عن فتاة النهار ، غاب النوم عن ليلتها وحلّ بدل النهار ظلام حالك عاد إليها من جديد ، اجتمع فيها كل الألم الذي عرفه البشر أو لم يعرفونه ، ألم النفس كان أشد بكثير من ألم الجسد . باتت

ليلتها الموجعة في غرفة أمها التي لم تكفَ عن الدمع هي أيضاً .
»قد لا نتمكن من تناسي الألم . . قد نجد الصبر يتسلل من بين أصابعنا كما الماء . . قد تضيع منا أنفسنا . . أو حتى نضل عن طريق الأمل . . لكن هناك الحقيقة التي لا يمكن نسيانها أو نفادها أو ضياعها ولا حتى الضلال عنها أبداً . . تلك الحقيقة التي تصرخ في كل شيء بداخلنا وحولنا » إن الله قادر . . إن الله أكبر » . .

*****

(الرابع عشر من أغسطس)

اكتفي الشباب من وادي قديشا ولكنه ليس وقتاً مناسباً للرجوع لمنازلهم ، اتصلت خديجة سراً بحمزة تسأله إن كان يمكنهم الرجوع أم لا فأخبرها أن تذهب لمكان آخر ، وإلي مكان غيره إذا تطلب الأمر ، حتى يستطيع إبعاد عمران قدر المستطاع عن هذه الفتاة ، ثم أخبرت حليم بذلك وقررا الذهاب لمكان آخر وقضاء الليالي الأخرى في التخييم في الجبال والسهول طالما سيكون ذلك خيراً للجميع .
ذهبوا هذه المرة إلي » القموعة » . . من أفضل الأماكن التي يمكن أن يزورها فنانان متميزان مثل حليم وعمران . . مجموعة سلاسل جبلية وسهل فسيح مساحته ربما تصل إلي ٥٠٠ متر تقريباً

يعرف بسهل القموعة . . يعتبر فريداً من نوعه بالعالم لوجوده علي ارتفاع يقرب من ١٧٥٥ متر عن سطح البحر . . تصل أعلي نقطة إلي ٢٢٥٠ متراً تقريباً عن سطح البحر . . كما تعود التسمية »القموعة« للهجة اللبنانية العامية وهي مشتقة من اللغة العربية كلمة »قاموع« وتعني قمة الجبل وهذا ما يتفق تماماً مع شكلها . . حيث توجد العديد من التلال علي شكل قماميع . . يميزها الجبل الصخري القليل الأشجار والمليء بالنتوءات ويمثل أعلي قمة في بلدة »عكار« . . تتربع فوقه قلعة عارومة أو كما يسميها أبناء البلدة »قلعة عروبة« . . تتناثر بها أشجار اللزاب والشوح والسنديان والكوكلان والأرز وغيرها في السهول الفسيحة . . تشعر أنك خرجت من ضوضاء العالم إلي قمة مليئة بروعة لا توصف . . إنها من أكثر الأماكن التي تحبها خديجة بعد منطقة » عيون السمك » التي ذهبت إليها مع حليم سابقاً .

انبهر الفنانان بهذا المكان كثيراً ، تحرك المصور البارع يلتقط الصور هنا وهناك بينما تشاهده خديجة وتستمتع بجنونه في عمله ، وأيضاً قد لاحظت اندماج عمران أخيراً مع المكان ، أخرج لوحاته وألوانه وبدأ في الرسم ، أشارت لحليم بالأمر فعلم أن صديقه قد بدأ يستمتع بالرحلة أخيراً . .
احضر الصياد البارع الغداء و ساعد خديجة في شواءه ، تناولوا

الغداء ثلاثتهم ثم جلس الشاب والفتاة حول موقد النار الصغير لعمل الشاي ، أما عمران فقد استند إلي شجرة ليست ببعيدة عنهما كثيراً ألقت بظلالها عليه مما ساعده علي الانسجام مع لوحته وألوانه .

*****

جلس حمدي بجوار زوجته يطعمها بيده بكل حب واهتمام فقطع غداءهما الرومانسي اتصال ابنهما راغب .
حمدي : إنه راغب . . سيسأل عنكِ بالتأكيد .
ميرفت في قلق : لا تخبره بشيء . . قل له أني نائمة .
حمدي : كيف حالك يا بني ؟ . . الحمد لله بخير . . متى ستأتي إن شاء الله ؟ .
راغب : لا أعلم يا أبي . . سأخبرك قبل مجيئي إن شاء الله . . كيف حال أمي ؟ .
حمدي : إنها بخير يا عزيزي . . هي نائمة الآن . . حسناً سأخبرها يا بني . . في أمان الله .
بكت ميرفت لأنها لا تستطيع محادثة ابنها فطمئنها حمدي عنه وحاول تهدئتها حتى تكمل طعامها وتأخذ الدواء .

*****

أوشك اليوم الرابع عشر علي الانتهاء . . كالعادة هرب عمران إلي

خيمته تاركاً الشاب والفتاة علي راحتهما . . وتاركاً نفسه لأفكاره وقلقه أيضاً .

*****

(الخامس عشر من أغسطس)

بدأ عمران صباحه مع اللوحة والألوان ، لابد أنها لوحة مهمة جداً التي تأخذ كل تركيزه هكذا ، لم تحاول خديجة التقرب منه أو التعرض له إلا في محادثات قليلة بينهما ، أما بالنسبة لحليم فقد زاد كلامها معه ، يصوران خلال اليوم ، يعدان الطعام معاً، وأيضاً يتسامران في الليل عن أي شيء يخطر علي بالهما حتى يمضي الليل بسلام . حتى أن حليم قد قام بتعليمها كيف تمسك الكاميرا وكيف تصوره مع هذه الطبيعة الجميلة وقد نجحت في التقاط صوراً رائعة له ولبعض المناظر أيضاً .

بعد استراحة الغداء وإعداد أكواب الشاي الفاخرة ، سمع الشباب صوت عزف جميل علي مقربة منهم ، كان العزف يقترب شيئاً فشيئاً حتى استقر صوته . إنه صبي يعزف علي الناي وقد ارتاح إلي شجرة علي بعد أمتار منهم وبدأ في العزف من جديد .
ابتسمت خديجة فور رؤيته وسماعها لعزفه الأخاذ ، انتبه حليم لابتسامتها فذهب إلي الصبي علي الفور وطلب منه الجلوس

معهم وتناول كوباً من الشاي أيضاً . كان وقع ذلك مفرحاً جداً علي خديجة التي سرعان ما اتضح الأمر علي ملامحها .

زادت الصحبة فرداً جديداً . . كوباً آخر من الشاي . . والناي . . بدأ الصبي في عزف أغنية للفنانة »فيروز« فسرق انتباه كل من حليم وعمران . . أما خديجة . . أغمضت عيناها وبدأت ببداية الأغنية اللبنانية المعروفة ولكن ليس بصوت جبلي فخم كما هو معروف عن هذه البدايات . . وإنما بصوت دافئ حنون ورقيق . . بصوت الأنثى التي استفاقت في داخلها مؤخراً . . » أووف أووف أوووف يا باي » . . تفاجأ الفنانان ونظرا لها في اندهاش . . أما الصبي الموهوب قد ابتسم لفعلها مستمراً في عزفه متأملاً أن تكمل معه بالكلمات فتزداد هذه الصحبة روعة وحُباً . .

فتحت عيناها ونظرت للطير علي الأشجار مستمرة في غنائها . . » يا طير . . يا طاير علي طراف الدني . . لو فيك تحكي للحبايب شو بني . . يا طير . . يا طير« . .

ابتسم حليم لروعة صوتها فقد تبين أن غروره بتعدد مواهبه لم يعد له فائدة الآن أمام موهبتها هي . . نظر عمران لحليم في ابتسامة لا يفهمها إلا هو وصديقه ثم اتبعها بالغمز بالعين حتى تصل الرسالة كاملة . .

تمكن كل من ألحان الصبي وصوت الفتاة من أخذ عقل عمران

وقلبه بعيداً عن المنطقة فشرد من الحضور في فتاته التي تصفها خديجة الآن . . » روح اسألن ع اللي وليفه مش معه . . و مجروح بجروح الهوى شو بينفعه . . موجوع ما بيقول ع اللي بيوجعه . . وتعن ع باله ليالي الولدنة . . يا طيــــــر » . .
كانت تنظر من خلف قضبان نافذة الحسناء وآثار الضرب علي وجهها قد تحول لونها للون الأزرق . . تراقب الطير كأنه يحمل إليها صوت خديجة بين طيات ريشه . . يرفرف في السماء فيدوي صدي صوت الفتاة . .

نظرت خديجة للطيور حولها وأخذت تغني لها في مزيج من الحُب والطفولة . . »يا طير و أخد معك لون الشجر . . ما عاد في إلا هالنطرة والضجر . . بنطر بعين الشمس ع برد الحجر . . ملبكة و إيد الفراق تهدني » . . أسند حليم خده علي يده مستمعاً لها في إعجاب شديد وكأنه يردد في نفسه » ما عاد في إلا هالنطرة لكن في حُبكِ يا خديجة ما عرفت الضجر » . .
» وحياة ريشاتك وأيامي سوا . . وحياة زهر الشوك وهبوب الهوا . . كنك لعندن رايح وجن الهوا . . خدني لنو شي دقيقة وردني . . » . . نظر عمران للطير المسافر بعيداً عن المنطقة .. وكأنه قد سمع نداء خديجة وذهب لفتاته ليوصلها الرسالة ..
دار في ذاكرته من جديد كل تفاصيل أول لقاء لهما في »غابة

العذر» . . تحدي كل منهما للآخر في تلك اللحظة . . تُري كيف حالكِ يا فتاة النهار ؟! .

*****

دخل عاصم غرفة الحسناء مُحضراً الطعام للمسكينتين . . كان مشفقاً كثيراً علي حال الفتاة ووالدتها لكن ليس بيده فعل شيء مع هذا الظالم . . وضع الطعام وتحرك دون كلام . . فلا كلام يشفي جراحهما الآن .

لم تكن الفتاة تعلم ما الذي يجب فعله مع هذا الحقير . . ومن ميخائيل هذا ؟! . . ما كانت تعرفه فقط وعزمت عليه هو ألا تقابل عمران ثانية حتى يرحل بسلام هو وصديقه ولا يسوء حال أهل البلدة بسببها كما حدث سابقاً بسبب أمها .

*****

ابتعدت خديجة عن مكان الشابين وقامت بمكالمة رباب زوجة أخيها .

خديجة : رباب . . كيف حالك وحال مراد والبقية ؟! .

رباب : الحمد لله يا عزيزتي كلنا بخير . . أنتِ كيف حالك ؟! . . كيف حال الشابين وحال رحلتكم طمئنيني ؟! .

خديجة : كل شيء بخير لا تقلقي . . أين أخي ؟! . . لا أستطيع الوصول لهاتفه .

رباب : كان يتحدث مع أحدهم في الهاتف . . يبدو أنها مكالمة مهمة . . نعم . . سأخبره . . اهتمي بنفسكِ يا عزيزتي . . إلي اللقاء .

خرجت رباب من غرفتها تبحث عن حمزة فوجدته مازال يتحدث في الهاتف في أحد زوايا المنزل وبصوت خافت مما أثار الريبة في قلبها .

حمزة : نعم . . إنه الحل الوحيد أمامنا الآن . . صدقني لا أستطيع السيطرة عليه فهو عنيد للغاية . . أخاف حدوث كارثة أخري مثلما حكيت لك . . سأبلغك بعودتهم إن شاء الله لننفذ ما اتفقنا عليه.

لاحظ حمزة وجود زوجته في المكان فحاول إنهاء المكالمة سريعاً .

حمزة : ما الأمر يا رباب ؟! .

رباب : اتصلت خديجة وقالت أنها لا تستطيع الوصول لهاتفك .. تريد محادثتك .

*****

كان ينتظر قدوم الليل بفارغ الصبر . . وها قد أتي . . ولكن لسوء الحظ أن عمران قد جلس معهما هذه الليلة . . وكأنه كان يقصد الأمر ويريد إثارة الغيظ في نفس حليم .

قال حليم في سخرية : ما بك يا عمران الليلة أراك لا تختبئ في الخيمة ؟! .

ابتسم عمران لأنه يعلم نوايا صديقه لهذه الليلة المميزة واستمر في السخرية أيضاً قائلاً : لا أعلم يا صديقي . . هناك شيء ما يدفعني للجلوس في ضوء القمر . . حقاً لا أعلم ما هو .
خبط حليم عمران علي ركبته مرتين متتاليتين قائلاً مع الضحك: حسناً يا صديقي . . خده و ارحل للخيمة قبل أن أدفعك أنا إليها.
ضحك عمران ووقف من مكانه هامساً في أذن حليم : حسناً يا صديقي . . سأتركك مع ليالي فيروز . . حظاً موفقاً .
لم تسمع خديجة ما قاله عمران في أذن حليم لكنها ابتسمت من تصرفات الصديقان المضحكة .
خجل حليم في بداية كلامه معها لهذه الليلة لكنه حاول قائلاً : لم أعد وحدي متعدد المواهب هنا . . إنكِ دليل ماهر . . وعلي يديّ أصبحتِ مصورة بارعة أيضاً . . لكن كانت مفاجأة حين سمعتكِ تغنين .
شعرت خديجة بالخجل قائلة : وهل كانت مفاجأة سارة أم لا ؟!.
أكد حليم قائلاً : بالطبع مفاجأة سارة . . لديكِ صوت عذب ورائع حقاً .
ابتسمت خديجة في خجل : شكراً لك .
حليم في نبرة الغزل : بل أنتِ شكراً لكِ . . لقد جعلتِ لهذا السفر معناً مختلفاً . . معناً جميلاً جداً يا خديجة .

حاولت خديجة التهرب من كلماته قائلة : لقد تحدثت اليوم مع أخي . . قال أنه سيرسل أحد أصحابه بطعام وفير غداً . . يريدنا أن نبقي هنا لأيام أخري .
علم حليم أنها تتهرب منه لكنه استجاب لكلامها : لا أعلم إن كان عمران سيقدر علي قضاء أيام أخرى هنا أم لا . . ولكن لندع الغد للغد إن شاء الله .

*****

(السادس عشر من أغسطس)

بعد شروق الشمس أتي صاحب حمزة ومعه الطعام وأخبرهم برسالة حمزة إليهم بقضاء بعض الأيام الأخرى ثم رحل . . تناولوا الفطور واستعد كل منهم لعمله من جديد من الرسم والتصوير والمراقبة . . مرّ الوقت عليهم . . نظرت خديجة حيث مكان عمران فتنبهت لعدم وجوده بجانب الشجرة . . سرعان ما أخبرت حليم بالأمر . . فزع حليم وذهب معها إلي هناك . . وجد لوحاته وألوانه في المكان لكنه ليس هنا . . نظرت خديجة هنا وهناك حتى رأته .
كان يركض في السهل كما الفهود . . تجرد من قميصه وأكتفي بالبنطلون والحذاء . . كان يذهب لنقطة ما ركضاً ثم يعود للنقطة الأولي بسرعة أكبر من ذي قبل .

نظر حليم إليه ثم قال في هدوء : أعلم أنك لست بخير يا صديقي ولكن ما بيدي شيء سوي ما أفعله هنا . . إنه غاضب . . غاضب جداً . . آمل أن تنقضي هذه الرحلة علي خير .

لكن خديجة لم تشح بنظرها بعيداً عنه . . كان منظره بدون قميصه ولمعان جسده وعضلاته تحت أشعة الشمس مع قطرات الماء المتساقطة عن جسده مغرياً جداً لأي فتاة . . لأول مرة يشعر حليم بالغيرة من صديقه هكذا . . تضايق جداً من نظرة خديجة له ونظر لها مطولاً حتى انتبهت لنفسها ولنظرته لها ,.

فذهبت إلي الشجرة تقلب في اللوحات التي رسمها عمران . .

وجدته رسم الصبي ذو الناي ورسم الطير وغيرها من اللوحات الجميلة . . يا له من فنان بارع . . هكذا قالت خديجة .

وقعت بين يديها لوحة لم تعرفها . . من هذه الفتاة يا تُري؟! .

أمسك حليم باللوحة ثم قال : إنها هي . . ليلة .

خديجة في نبرة الانبهار : إنها حقاً جميلة . . انظر للحزن وكم المعاناة التي تنطق بها اللوحة . . يا لها من مسكينة .

قال حليم وقد أخذ اللوحة منها : نعم . . جميلة جداً . . وحزينة جداً . . إنها لعنة الجمال التي يقولون عنها بالتأكيد .

شعرت خديجة بالغيظ لما قاله للتو ولأنه لا يريد أن يترك اللوحة من يده . . نظرت إليه مطولاً لكنه لم يتركها أيضاً . . فتركته هي ورحلت .

ضحك حليم . . وكأنه أخذ بثأره . . فقد كان قاصداً ذلك .

أما عن اللوحة فقد كانت فعلاً لفتاة النهار . . طلبت من عمران أن يرسمها . . وقد فعل . . رسم ملامحها عن قرب . . أظهر الأنوثة في شفتيها الملونتين بلون حبات الكرز . . معاناتها في عينيها الداكنتين الجميلتين . . كما لم يستخف بشعرها أبداً . . فكان تموجه كموجات البحر التي تأخذك بعيداً حتى الغرق . . وكأن طياته التي قام بتلوينها تحكي الأسى الذي عاشته هذه المسكينة طوال سنوات . . ثم قرر أن تكون هذه اللوحة هي الغلاف لقصته . . لكنه لن يفعل ذلك حتى يخبرها بكل شيء قبل رحيله عن لبنان .

*****

مرت الأيام وتجول الشابان مع خديجة في أماكن ومناطق كثيرة . . ذهبوا إلي »قلعة عروبة » . . شاهدوا الآثار الرومانية والبيزنطية.. زاروا ضيعة »مشمس » التي سميت بذلك لسطوع الشمس عليها طوال النهار . . أو يسميها البعض »مشمش» لأن زراعة المشمش تزدهر فيها . . استضافهم أهل الضيعة أفضل استضافة بكرمهم ولطفهم حيث شاركوهم في جمع محاصيل التفاح والكرز والمشمش والخوخ . . التقطوا الصور معهم وضحكوا وأكلوا معهم أيضاً . . كذلك ذهبوا لرؤية مغارات الضيعة من

بينها مغارة العرايس و الحمرا .

اعتادت خديجة علي وجود حليم معها في كل الأماكن . . تقربت منه هي الأخرى . . أحبت فيه روح الاستمتاع بكل شيء . . إبداعه واجتهاده في عمله . . حبه لتجربة الأطعمة حتى تلك التي لا يعرف أن يحفظ أسمائها .
أحب فيها حليم روح الإقبال علي الحياة . . حيويتها ونشاطها وعفويتها . . جمالها وذكائها وأنها فتاة يُعتمد عليها حقاً . . بالإضافة إلي أنها طاهية ماهرة . . حاول حليم بقدر ما استطاع أن يوقظ الفتاة في داخلها . . ضحكت معه وضحكت له . . نزعت القبعة وفكت رباط شعرها . . تقربت من الأطفال والأهالي وتصورت معهم وصورت حليم أيضاً بعدما تعلمت منه فبرعت في التصوير هي الأخرى . . كما زين رحلتهم صوتها العذب الجميل لأغاني فيروز التي قاموا بغنائها فوق التلال وخلال رحلاتهم في غابات فنيدق وسهولها والضيعات القريبة منها . .

أما عمران قد فرح كثيراً لهذا التقرب الملحوظ بين الفتاة وصديقه.. سعد لضحكاتهما وضحك عليهما أيضاً وأثار غضب وغيظ حليم في كثير من الأحيان . . لكنه انتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سيلتقي بفتاته من جديد . . تمتعوا برحلتهم كثيراً وقد أكتفي

حليم بالصور التي التقطها في هذه الرحلة الطويلة نوعاً ما . . أخبرهم حمزة بالعودة في العشرين من أغسطس وذلك لحضور حفل خطبة صديقة خديجة وابنة »عارف« صديق حمزة المقرب,

*****

مرت تلك الأيام أيضاً علي ميرفت وحمدي . . رجع الحب والود بينهما من جديد . . كانت صفاء وحياة تذهبان لزيارة ميرفت مرات عدة والاطمئنان علي صحتها . . تقربت ميرفت من صفاء كثيراً . . ومن خلال حكاوي النساء التي لا تنقطع إذا بدأت . . قصت صفاء حكايتها الطويلة علي ميرفت . . تعاطفت معها كثيراً واعترفت لنفسها أنها حكمت عليها حكماً خاطئاً طوال سنوات ودون أسباب تذكر . . استطاعت حياة خطف قلب ميرفت وكذلك حمدي كما خطفت قلب راغب قبلهما منذ زمن . . حتى أن حياة قد أهدت لميرفت بعض من نباتاتها المفضلة من زهور الياسمين الموجودة في شرفتها . . أضافت أيضاً بعض من نباتات الورد البلدي ذات الرائحة الذكية التي تبعث الأمل في نفوس من يراها ويشمها . . لقد كان مرض ميرفت منفعة للجميع حتى لميرفت نفسها . . حقاً لعل الخير يكمن في الشر .

»كم أن الحياة لاهية ومضللة ! . . تأخذنا بعيداً إلي حيث لا ندري . . تُلقي بنا إلي أقدار جديدة كلياً . . يتغير الزمان وتتغير الأماكن . . حتى أنفسنا تتغير . . وتستمر علي ذلك مدة من

الزمن . . فتأتي لحظة ما وكأن الحياة تمسك بنا من أكتافنا وتهزنا هزاً عنيفاً كي نعود إلي ما كنا عليه . . إنها نقطة التحول التي تغير كل شيء . . تعيدنا لفطرتنا الأولي حتى وإن اختلفت الأزمنة والأماكن . . مهما طال الطريق ومهما تشتت الدروب . . فلا مهرب من العودة إلي قواعدنا الأولي يوماً ما . . حتى القاعدة التي لا اختلاف عليها تنطق بذلك أيضاً . . تماماً كما خُلقنا من تراب . . نعود إليه ولو بعد حين . . »

أما الاتصالات بين الوالدين وراغب وعمران كانت محدودة في هذا الوقت . . حتى لا يكتشفان أمر مرض والدتهما فلا يصيبهما القلق والفزع وهما في سفر . . ولكن تهربها منهما أدخل الريبة والقلق إلي قلبيهما لا شك .

*****

(العشرون من أغسطس)

قصدت خديجة الوصول لمنازلهم قرب الساعة الثالثة عصراً بالاتفاق مع أخيها حمزة . . حتى ينشغلوا جميعاً في التجهيزات للحفل ولا يتمكن عمران من الذهاب لمقابلة الفتاة .

جاء موعد الحفل ، حضر الجميع في سعادة بالغة ، كانت الخطبة مقتصرة علي أهل الحي فقط في ترابط أسري جميل ،

جلس العريس مع رجال الحي بما فيهم حليم وعمران فقد أصبحا منهم الآن ، بينما جلست العروس مع بنات ونساء الحي وعلي مقربة من مكان الرجال حيث لا أحد غريب بينهم .

حاول حليم اختلاس النظر ليري أين هي خديجة . . فخرجت مع بعض الفتيات لتوزع الشربات والحلوى علي الجميع . .

لم يصدق حليم ما رأي حينما اقتربت من حمزة والرجال لتقديم الحلوى لهم . . فتاة جميلة في العشرينات من عمرها ترتدي ثوباً أبيضاً جميلاً . . مع تسريحة شعر جميلة وهادئة . . زاد من رقتها طوق من الورود الصغيرة الملونة وضعته في مقدمة شعرها . . كان أفضل من التاج الملكي في عين حليم . . والأهم من ذلك تحت الفستان القصير حذاء ابيض اللون بكعب عالي كحذاء سندريلا الأسطوري . . أول مرة أراها ترتدي هكذا . . إنها أفضل من الأميرات في قصص الخيال . . ليتها تظل هكذا دائماً . . يليق بها كثيراً أن تكون أميرة . . ليتها تبقي خديجة وليس الدليل . .

نظر عمران للفتاة متعجباً فغمز حليم بيده وهمس في أذنه : انظر لفتاتك يا رجل ! . . لقد غيرت الحذاء ! . . هل تصدق ذلك؟! . . هل انتبهت لتاء التأنيث الموجودة في اسمها أخيراً ؟!

ضحك حليم وعمران فيما بينهما . . ما أخفي مزحتهما أن الجميع كانوا فرحين مهللين بالعريس والعروس . . متمنين لبعضهم البعض الزواج الصالح لمن لم ينل شرف الزواج بعد . . بما فيهم

حليم وعمران . . فنظرا لبعضهما وضحكا وتقبلا أمنياتهم .

»بالحب يتغير كل شيء . . ينتشل الجمال الذي بداخلك فيظهره للعالم . . يريك الكون بعين جديدة تماماً . . فتري كل ما حولك جميل . . مثلك تماماً . . كالنسخة الجديدة منك . . بلا عيوب . . بلا جراح أو صعوبات . . وكأن الكون أصبح ممهداً لكل ما تتمني تحقيقه . . وإن كان شيئاً غير ذلك . . فحتماً لم تحب بعد . . إنه فقط بهذه البساطة . . «

انقضت هذه الليلة بفرحة الخطبة وفرحة الجميع إلا عمران وفتاته المحبوسة . . لم يعلم عنها شيء منذ وصوله . . ولا يجرؤ علي سؤال حمزة أو أي أحد . . هل سينتظر الصباح حتى يذهب إليها ؟! . . إنه لا يعلم إذا كان نصار موجوداً أم لا . . هل يأخذها ويهرب ؟! . . ولكن ماذا سيفعل نصار ورجاله بأهل البلدة حينها ؟! . . ولو هرب معها دون علم حليم فسينضم حليم إلي قائمة القتلى بالتأكيد . . فما ذنب حليم أو ذنب خديجة والحب الذي ولد بينهما حديثاً ؟! . . سيدمر الجميع . . لله حكمه وتدبيره في كل أمر . . هو ولي ذلك والقادر عليه .

*****

(الحادي والعشرون من أغسطس)

لم ينتظر حمدي طلوع الشمس عندما قام بمكالمة عمران حتى يطمئن عليه ويحاول أن يرد عقله إليه فيقضي العشر أيام الباقية علي خير ويأتي في سلام .
حمدي متلهفاً : كيف حالك يا بني ؟ .
عمران : أنا بخير يا أبي . . كيف حالك وحال أمي وأخي ؟ . . متى موعد إجازته ؟! .
حمدي : بخير يا بني . . قال أنه سيعلمني قبل مجيئه إن شاء الله .
لاحظ عمران تغير صوت والده فسأله عن السبب .
قال حمدي في نبرة حزينة قلقة : في الحقيقة يا بني . . أردت أن أخبرك بأن والدتك مريضة جداً هذه الفترة . . لقد أصرت عليّ تخبئة الأمر عليك وعلي أخيك . . لكن لم أعد أحتمل هذا القلق وحدي . . إنها بحاجتك وحاجة أخيك يا بني .
تغيرت نبرة عمران : ماذا ؟! . . ماذا أصاب أمي يا أبي ؟! . . أخبرني! .
حكي حمدي كل ما حدث مع زوجته . . » أرجوك عد سالماً يا بني. . لا أريد أن أفقدك ولا أفقد زوجتي . . إن قلبها لا يحتمل.. أرجوك عُد سالماً يا عزيزي » . .

قالها حمدي وكأنه كان علي علم بما يحدث في لبنان وما يعزم عليه عمران . . ومن يدري ربما كان يعلم بالفعل . .
تيقن عمران أن خطته في الهرب مع ليلة قد فشلت حتى قبل أن يفكر بها . . إن والدته في خطر . . بل كل من حوله سيكون في خطر أيضاً إذا فعل أمراً طائشاً كهذا .

استغل نوم حليم واستعد للخروج متسللاً . . لكن فاجأه حليم باستيقاظه محاولاً منعه . . وكأنهم جميعاً قد اتفقوا عليه .
وقف حليم أمامه : لن أدعك تذهب .
عمران : لن يكون حمزة وأنت أيضاً يا حليم . . ابتعد .
حليم : لا . . إننا نحاول حمايتك يا رجل .
عمران وقد بدأ يثور : وهل لا أقدر علي حماية نفسي ؟! . . قلت ابتعد يا حليم .
حليم : مازال نصار في بيته منذ أيام .
سكت عمران لعدة ثواني مفكراً ثم قال : وإن يكن . . هناك أمر ما ولابد أن ينتهي . . فلتخبر حمزة بذهابي إن شئت يا صديقي!.
حليم : حسناً . . لن أخبر حمزة ولكن سآتي معك . . كما جئنا سوياً سنرحل سوياً .

*****

ذهب الرجلان إلي غابة العذر وأشار عمران لحليم بالاختباء

بعيداً حتى لا تخاف منه الفتاة .
حليم : إنه المكان الذي اصطحبني إليه حمزة . . هل كان يعلم بلقائكما هنا ؟! .
عمران : نعم . . وهل يخفي عليه شيء ! .

*****

حمدي : السلام عليك يا شيخ حمزة . . نعم اتصلت بعمران وفعلت ما اتفقنا عليه . .
حمزة : آسف بشأن زوجتك يا أستاذ حمدي وأتمنى لها السلامة..
لكن كان هذا الحل الوحيد أمامنا حتى يعود ابنك سالماً مع صديقه . . والحمد لله أنها كانت فكرة حليم من الأساس بأن أعطاني رقم هاتفك وطلب مني أن أعلمك بكل ما يحدث معنا هنا . . وسأحرص بإذن الله علي عودتهما بخير . .

*****

نظرت الفتاة في المرآة لآثار الكدمات والجروح في وجهها وجسدها... اختفي قليلاً لونها الأزرق لكنها مازالت موجودة ...
نظرت لقضبان نافذتها . . أتساءل هل مازلت تنتظر لقاءنا يا عمران ؟! . . أم أن عدم مجيئي قد جعلك تسأم ! . . هل رحلت باكراً أم أنك مازلت هنا ؟! . . بقي أقل من العشرة أيام علي رحيلك . . مازلت أشعر بوجودك هنا . . أرجو أن ترحل سريعاً

قبل أن أفقد الشعور بوجودك للأبد .

*****

حليم وقد تعب من الانتظار : هل كانت تستغرق كل هذا الوقت حتى تأتي يا رجل ؟! .
عمران في نبرة الحزن : لا . . لقد مضت عشرة أيام ولم تجدني فيها . . أتمنى ألا تكون قد اعتقدت أني رحلت . . أو أني لم أعد أرغب برؤيتها . . تُري ما الذي حدث في غيابي ؟! .
عاد الرجلان إلي بيتهما وفي عودتهما قابلا حمزة . . أهلاً بالشباب... أين كنتما وحدكما ؟! .
حليم : كنا نمشي قليلاً ونستنشق بعض الهواء .
حمزة : حسناً . . إلي اللقاء في موعد سمرنا إذاً .
إلي اللقاء . . ثم سبق عمران صديقه إلي الغرفة .

*****

(الثاني والعشرون من أغسطس)

بدا وكأن عمران قد غطي في نوم عميق هذا الصباح ولن يذهب إلي أي مكان . . بينما قد طار النوم من عين حليم فخرج أمام المنزل يستنشق بعض الهواء . . وإن استيقظ صديقه أو فكر في الخروج فحتماً سيراه حليم .

من حسن حظه أنه قد وجد خديجة مع مراد في ردهة بين المنازل يتحدثان في أمرٍ هام علي ما يظن . . ابتسم قلبه قبل شفتاه لرؤيتها . . قرر الاقتراب منهما فعلي أي حال يبدو أن عمران لن يستيقظ بسهولة اليوم . . أول مرة يراها ترتدي ثوباً جميلاً بسيطاً كما الفتيات وليس ثيابها المناسبة للرحلات والتخييم . . فردت شعرها ووضعت به حلية بسيطة تزينه وما أجملها من حلية و طلة لهذا الصباح . . ألقي عليهما التحية فبادلاه بمثلها .

حليم : ماذا تفعل يا صديقي الصغير ؟! . . لماذا أنت متضايق إلي هذا الحد ؟! .

ربّع مراد يديه وبدا عليه الضيق فعلاً : لا شيء .

وجه نظره لخديجة : حقا؟! . . ماذا هناك أيتها العمة ؟! . . هل تمانعان إذا عرفت ؟! .

ابتسمت خديجة : لقد تشاجر مع ابن الجيران لأنه تحدث عن صديقته .

جلس حليم بجانبهما : »رهف« . . أليس كذلك ؟! .

خديجة بتعجب : وهل تعرفها ؟! .

حليم : نعم . . حدثني عنها مراد قبلاً بأنه يريد أن يتزوجها عندما يكبر ؟! .

ابتسمت خديجة : هكذا إذاً ! . . حكيت لعمك حليم علي هذا السر ! . . قلت لي إنك لم تخبر أحداً بذلك سوي عمتك خديجة .

تردد مراد : في الحقيقة لقد أخبرت عمي حليم فقط بذلك . . أنتِ وعمي حليم فقط .
حليم : إذاً تغار عليها يا فتي من ابن الجيران ؟! .
مراد في بعض الغيظ : لقد تحدث عنها وعن جمال شعرها أمامي... فضربته .
ابتسم حليم : وهل شعرها جميل إلي هذا الحد ؟! .
مراد في ابتسامة طفل بريء : نعم . . جميل جداً . . تماماً مثل شعر عمتي خديجة .
نظر حليم لخديجة مع ابتسامة غزل : إذاً . . لك الحق في مشاجرته .
ابتسمت خديجة في بعض الخجل ونظرت إلي مراد وكأنها تخبر حليم » احترس من كلماتك أمام الطفل » .
لكن لا تخفي علينا حركات الأطفال المفاجأة فقد رمي أحدهم الكرة ناحيتهم فقفز مراد بعفوية الأطفال وأخذها وذهب للعب مع أصحابه .
نظر حليم إلي الطفل الراحل ثم نظر لخديجة قائلاً : لديّ شيء ما أردت كثيراً إخباركِ إياه منذ يوم الخطبة لكن لم تسنح لي الفرصة بذلك .
سألته خديجة في تعجب : ما هو ؟! .
قال في نبرة غزله التي أصبحت معروفة لديها : كنتِ أجمل من في

المكان . . «سندريلا لبنان» .
احمرت خديجة كثيراً ونظرت ليديها المحتارتين من شدة الخجل: شكراً لك .
بدا حليم جاداً في هذه اللحظة : هل تقبل سندريلا بأمير مثلي؟!.
أصابتها المفاجأة مع الفرحة في وقت واحد ولم تجبه . . لكنه حصل علي إجابتها من احمرار وجنتيها وتلعثمها في الكلمات . . من تلك الفرحة التي نطقت بها عيناها الزرقاء . . حتى هروبها من المكان مع ابتسامة خجولة كان كافياً لإجابته أيضاً . . حينها تشجع لأخذ الخطوة الأكبر وهي أن يكلم حمزة ويطلبها منه . . عسي أن يقبل بهذا الأمير الغريب عن البلاد عريساً لأخته الفاتنة.
جلس مكانه يفكر ويهيم بحبيبته وينظر للمنزل أيضاً مراقباً عمران حتى لا يخرج . . ولا يعرف أن عمران قد حرج بالفعل ! .

*****

يبدو أن خدعة النوم التي فعلها حليم بعمران البارحة قد ردت إليه اليوم . . استغل عمران فرصة جلوسه مع خديجة وانشغالهما بالطفل وخرج من المنزل .
بسرعة الصاروخ قد انطلق حتى بلغ الغابة . . لم يأتي اليوم لانتظارها . . بل للذهاب إليها . . إلي بيتها . . لابد أن يراها اليوم وليحدث ما يحدث .
ذهب عمران إلي النافذة ونظر في أرجاء الغرفة . . وجدها مظلمة

لا أحد فيها . . قلق عليها كثيراً لكن للأسف كان وجوده هنا كوجوده تماماً في حقل مليء بالألغام .
فك القضبان من مكانها ودخل من النافذة ثم وضع القضبان ثانية . . وجد بعض الأشياء أو الملابس علي السرير لم يستطع تحديدها من ظلمة الغرفة . . سمع صوت باب مجاور يغلق خارجاً . . حاول الاختباء علي الفور فدخل في دولاب ملابسها وأغلقه .

*****

طرق أحدهم الباب ففتح حمدي وبدا عليه الفرح من هذه المفاجأة السارة حينما وجده .
راغب : كيف حالك يا أبي ؟ . . ثم ارتمي في أحضان والده الذي استقبله بالتهليل .
راغب : أين أمي ؟ . . لا تقل أنها ذهبت إلي السوق .
تردد حمدي في قول ذلك : لا يا بني . . إنها ترتاح في غرفتها قليلاً,
أمي . . أمي . . اشتقت إليكِ كثيراً . . ثم قام بتقبيل يدها واحتضانها .
فرحت ميرفت كثيراً بقدوم ابنها الصغير . . لكن عيناها قد خدعتاها وذرفا الدموع علي الفور.
قلق راغب من دمع أمه : ما بكِ يا أمي ؟! . . هل أنتِ بخير ؟!. أرجوكما فليخبرني أحد .

جلس حمدي وابنه راغب في الشرفة بينما أمهما في فراشها . .

هذا كل ما حدث يا بني .

حزن راغب لما سمع وأصابه الضيق والأسى : ولِمَ لم تخبرني يا أبي؟!.

حمدي : أصرت أمك علي ذلك يا بني .

راغب : وهل عرف أخي بالأمر ؟! .

حمدي : نعم . . أخبرته البارحة .

انتبه راغب للتو لزهور الياسمين التي يشبه عليها وأيضاً نباتات الورد البلدي هذه . . أري تغييراً هنا يا أبي . . لكنه جميل .

ابتسم حمدي وحاول أن يفرح ابنه ولو قليلاً : نعم . . إنها حياة يا بني . . هي من أتت بهم .

تعجب راغب مما سمع : ماذا ؟! . . لكن كيف ؟! . . وأمي ماذا فعلت ؟! .

مازال حمدي في ابتسامته : هذا ما كنت أنتظر قدومك بفارغ الصبر لأخبرك إياه . . لقد تبدلت الأمور كثيراً هنا . . سأخبرك يا عزيزي .

*****

فجأة فتح أحدهم باب الغرفة وأوصده بالمفتاح ولم يصدر صوتاً غير أنه قد أضاء النور . . نظر من خلف باب الدولاب فوجدها . . إنها نهار التي لم يرها لأكثر من أحد عشر يوماً . . تبين له أن

الأشياء التي علي السرير هي ملابسها حينما قلبت بها . . كانت تلف منشفة علي جسدها فوق قطع الثياب الخفيفة وتجفف شعرها بمنشفة أخري . . أغلقت النافذة تماماً فعلم ما كانت ستفعله .

قبل أن تفعل ذلك تعمد أن يصدر صوتاً داخل الدولاب حتى تذهب وتفتحه . . فزعت الفتاة من الصوت وخافت أن يكون نصار الذي فاجأها بوجوده في الغرفة قبلاً . . أمسكت بملابسها الموجودة علي سريرها وقامت بتغطية أكتافها بها . . ووقفت دون حراك حتى فتح الدولاب . . ففزعت أكثر وأكثر حينما رأته .

*****

فرح راغب لما سمع : هل حدث كل ذلك بين أمي وحياة يا أبي حقاً ؟! .

حمدي مبتسماً : نعم يا بني . . إن هذه الفتاة قادرة علي خطف قلوب جميع من حولها . . والدليل علي ذلك أنها قد تمكنت من قلب ميرفت نفسها .

حزن راغب ثانية : نعم . . ولكن كنت أتمنى أن تكون أمي بخير حتى تكتمل فرحتي بهذا يا أبي.

حمدي : لا بأس يا بني . . لعل ذلك كان خيراً من الله لنا جميعاً . . نرجو من الله أن تتعافي أمك قريباً وتكتمل فرحتنا بك مع حياة إن شاء الله .

نظر راغب إلي شرفة حياة قائلاً : أرجو ذلك يا أبي . . أرجو ذلك يا الله .

*****

عمران . . ماذا تفعل هنا ؟! . . هذا ما قالته في نبرة الخوف الشديدة .

اقترب منها عمران فابتعدت عنه حتى استندت علي الجدار . .

أتيت لرؤيتكِ . . أنا آسف أني دخلت في هذا الوقت . . اعذريني,

انتبه عمران لآثار الجروح علي وجهها . . وكذلك الكدمات في كتفيها حينما سقطت الملابس التي أمسكتها في يدها . . وجد آثار الجروح منتشرة في كل مكان . . تبين الجنون في نظراته فسرعان ما وضعت يدها علي فمه . . علمت أن بعد هذه النظرات سيكون هناك انفجاراً من الغضب وسيكشف أمره . . »

ما هذا ؟! . . أجيبيني يا نهار ! . . ما الذي حدث ؟! » . .

ليلة : اخفض صوتك أرجوك . . ما الذي أتي بك إلي هنا يا عمران ؟! . . لماذا أتيت إلي لبنان ؟!

انهمرت دموع الفتاة كما الأمطار الغزيرة . . أخذت تبكي بشدة واضعة يدها علي فمها حتى لا يصدر صوتها لخارج الغرفة. .

انهارت وأخذت قواها في الخوار حينما بدأت تسقط للأرض مستندة بظهرها علي الحائط . .

حاول عمران أن يتمالك غضبه وهدأ صوته حينما جلس أمامها

علي الأرض . . هو من فعل هذا أليس كذلك ؟! .
أشارت الفتاة برأسها بالموافقة علي سؤاله . . ثم دون أن يشعر كل منهما . . تلاقت أحضانهما لأول مرة .
احتضنها عمران بشدة . . أحاط كتفها بساعده ووصل كف يده لكتفها الآخر . . لامست يده الأخرى رأسها التي أسندها علي كتفه القوي . . كأنه يسحب من رأسها كل المخاوف التي تفكر فيها . . خبأ حبيبته بين ضلوعه ملاصقة لقلبه . . كأنه يسحب جميع الآلام التي عانت منها طويلاً . . فلتكن حرة مع هذا القلب يخبرها بما تشاء . . يخبرها بالذي عجز عن الإفصاح به لسانه . . وما كذّب به نفسه إلي الآن . .
لأول مرة شعرت الفتاة بالأمان . . لأول مرة يحتضنها أحد منذ أكثر من عشر سنوات . . هدأت . . نعم هدأت وهدأ دمعها المنهمر للاستمتاع بهذه اللحظة التي ربما لن تتكرر ثانية . . إنه الحنان الذي افتقدته طوال عمرها . . حنان رجل . . لم تنعم بحنان والدها الذي لا تذكره حتى . . فأي حنان هذا الذي يعوض حنان الأب الذي افتقدته ؟! . . لا شيء سوي حنان رجل يحبها . رجل تجمع فيه كل رجال الأرض بالنسبة لها . . إنه عمران . .
مرّت هذه اللحظة وكأنها سنوات عدة . . لم يفهم أي منهما ما حدث . . ولِمَ حدث . . قد كان تلبية لنداء أحضانهما المشتاقة فقط . . نداء قلبيهما . . نداء حبهما الذي لم يعد يحتمل الاختباء

إلي هذه اللحظة . .
أبعدت نهار رأسها عن كتف عمران ونظرت إليه وآثار الدمع لم تذهب كلية بعد . . » ارحل يا عمران . . أرجوك ارحل من هنا« نظر عمران في عينيها بحب كبير وخوف اكبر . . » لا أستطيع. صدقيني لا أستطيع يا نهار . . لا يمكنني تركك هنا . . هل تسمعيني ؟! . . لا يمكنني . . مازال لديّ الكثير لأخبرك به » . . ابتسمت نهار في بؤس شديد : »سأموت هنا . . علي هذه الحال يا عمران . . فقط ارحل . . سأكتفي بكل ذكري قضيناها سوياً . . كل حديث خطفنا من العالم » . . دمعت ثانية ثم أكملت حديثها لتخبره بسرها الأكبر . . » سأكتفي بهذا الحضن إلي أن أموت يا عمران . . إنك أول رجل أقابله في حياتي و يحتضنني . . بكل هذا الحب . . بكل هذا الصدق . . لم يتمكن مني أحد قبلك ولن يتمكن مني بعدك . . أقسم لك أنك الرجل الأول والأخير . والوحيد . . وستبقي هكذا دائماً وأبداً . . حتى إن اضطررت لقتل نفسي قبل أن يكون هناك غيرك » . .
»لم تدرِ نهار بكم الطمأنينة التي نزلت علي قلبي حينما قالت ذلك . . هل كان هذا ما كنت أخاف منه حقاً ؟! . . هل كان هذا هو السبب في عدم البوح بحبي لها ؟! . . كيف فهمت ذلك إذا كنت لم أفهمه أنا ؟! . . لم يخطر ببالي حتى لكن كلماتها هذه أطفأت النار التي لم أكن أعلم عنها شيء بداخلي . . إنه الرجل

الذي أنا عليه» . .
قال عمران في قمة الحب : » لا يا نهار . . لن تموتي هنا . . أنا لا أترك فتاة دخلت هذا الحضن وامتلكته لهذا الحد ولا تعيش فيه أبد الآبدين . . سأفعل المستحيل حتى أردكِ إليه . . حتى ولو رحلت من هنا . . ستأتي أنتِ ذات يوم . . ستخرجين من هذا السجن وتأتي إليّ إن لم آتِ أنا لآخذكِ » . . ثم ابتسم كأنه يقلد قولها حتى لا تشعر أن أي ريبة قد تملكت منه أو تسللت إلي نفسه تجاهها . . » أنا أيضاً أقسم لكِ أنني لم أسمح لفتاة غيركِ بأن تدخل هذا الحضن أبداً . . ولن أسمح بأن يحدث بعد اليوم » . .
بكت مجدداً لسماع هذا الحديث الذي لم تسمعه من قبل وكأنها تقول في نفسها » أرجو ذلك يا عمران » . . نظرت إليه والدموع علي خديها . . أسند ذقنها علي كفه وملأ عيناه من عينيها الداكنتين العاشق لهما . . نظر في دفء وحب وحنان لم تعهدهما من قبل من أي رجل غيره . .
فكفكف دمعها بأنامله قائلاً :
» كفي بكاءً . . إن أكثر ما يُشقيني هو رؤية لمعة القمر علي خديكِ . . رفقاً بعينيّ . . فمن شدة البريق أكاد أفتحهما أمامكِ » . . حينها أيقنت . . حتى دمعها قد خضع لأمره . . فماذا بقي ليكون تحت طوعها ؟! . .

»كانت دمعتها بحجم القمر بالنسبة لي . . بنفس نوره وبريقه في السماء حتى ولو في وضح النهار . . أري دمعها قمراً . . فماذا يحدث حينما تتساقط من عينيها أقمار عِدة ؟! . . لقد حاولت كثيراً إنقاذ العالم . . لكنِ حتماً فشلت في إنقاذ نفسي » . .
وأخيراً ابتسمت الفتاة حتى ظهرت أسنانها . . ففرح عمران بذلك . . لم يخلق الحزن لمثل هذه الابتسامة أبداً . . » ابتسمي أكثر وأكثر . . دعيني أري لمعة ذلك السِن الخفي » . .
قالت نهار في بعض الخجل : حسناً . . أري أنك قد وجدت الراحة في غرفتي . . هيا ارحل قبل أن يكتشف أحد ما أمرك .
حاول عمران التغزل فيها : نعم . . خاصة بهذه المنشفة الجميلة.
انتبهت نهار أنها تجلس كل هذا الوقت بالمنشفة . . ماذا؟! ،. المنشفة ! . . هيا أرحل . . هيا . . أمسكت بمنشفتها جيداً ووقفت فتحت له النافذة . . هيا . . وأخذت تدفعه للخارج .
نظر إليها مبتسماً : سأراكِ غداً . . عليّ إخبارك بشيء مهم جداً .
نهار في عجلة من أمرها : حسناً . . حسناً سآتي . . هيا أرجوك . .
قال عمران مع بعض نظرات الغزل وهو ينزل من النافذة : بهذه المنشفة ؟! .
أحمر وجه الفتاة من كلماته ولكنها لم تتردد في دفعه خارجاً . . هيا .
وقف لثوانٍ ونظر حوله فلم يجد أحداً . . ذهب مسرعاً وعلي

وجهه ابتسامة عريضة ودعها بها فودعته هي الأخرى بواحدة مثلها من خلف القضبان حتى رحل عن نظرها تماماً . . ثم أقفلت النافذة حتى ترتدي ملابسها .

*****

مشي عمران فرحاً بين أشجار الغابة يتبختر لما حدث اليوم . . أحس بشيء يتحرك خلف الأشجار لكن لم يحدد أي شجرة منها . . وقف للحظات ينظر بكل الاتجاهات . . لم يجد شيئاً . . ظن أنه سنجاب ما كالعادة . . ومضي . . لكن للأسف كان ظنه خاطئاً .

*****

راغب : ما أخبار أخي يا أبي ؟! .

بدا علي حمدي القلق : بخير يا بني . . بقي ثمان أيام ويأتي إن شاء الله . . أتمني أن يعود سالماً .

راغب : لِمَ هذا القلق يا أبي ؟! . . هل هناك خطب ما ؟! .

تردد حمدي قليلاً ثم قال : لا . . لا يا بني . . قلقت عليه فقط حينما أخبرته عن والدتك . . يا ليت لم أقلقه في سفره .

قطع جرس الباب حديثهما . . استرح يا أبي سأفتح أنا .

فتح راغب الباب ثم ابتسم . . إنها حياة ووالدتها .

حياة في دهشة : راغب ! . . أنت هنا ؟! .

ابتسم راغب قائلاً : نعم . . أمامكِ مباشرة . . كيف حالكِ يا

خالتي ؟ .
ابتسمت صفاء وأجابته : بخير يا بني . . وأنت ؟ .
راغب : بخير . . بخير أكثر حينما رأيتكما في بيتنا . . تفضلا بالدخول .

*****

دخل عمران الغرفة مستقبلاً غضب صديقه وأسئلته الكثيرة . . نعم يا حليم خدعتك مثلما خدعتني البارحة .
حليم : ذهبت يا رجل ؟! . . لا فائدة منك . . هل رأيتها ؟! .
كذب عمران في ذلك قائلاً : لا . . انتظرتها طويلاً لكنها لم تأتِ . . سأذهب غداً .
حليم : عمران ! .
عمران : ماذا بك يا رجل ؟! . . لابد أن أخبرها بأمر الرسومات قبل نشرها . . ألم يكن هذا اتفاقنا ؟! . . لابد أن أراها .
حليم : صحيح . . حسناً .
ابتسم عمران قائلاً : كيف حال فتاتك وصديقك الصغير .
استند حليم إلي وسادته كعادته حينما يأتي ذِكر شيء يحبه : بخير . . بخير تماماً . . لقد لمحت لخديجة اليوم بأني أريد أن أطلب يدها من أخيها .
فز عمران من مكانه : حقاً ؟! . . وماذا قالت ؟! .
حليم : لم تقل أي كلمة . . لكن فعلها أخبرني بموافقتها .

فرح عمران كثيراً : هنيئاً لك يا رجل . . وهنيئاً لذلك الصغير الذكي والله .
حليم : ما يقلقني الآن هو رأي حمزة . . هل تعتقد بأنه سيوافق علي رجل مثلي غريب عن بلاده ؟! . . مازال مستقبلي مبهماً بالنسبة له ليوافق علي طلبي .
عمران : لا أعلم . . لكن لنقم بالخطوة أولاً ثم نسأل بعد ذلك . . هنيئاً لك يا صديقي .

*****

جلس كل من راغب وحمدي وميرفت وحياة وصفاء في صحبة جميلة يعمها الود والألفة . . لم يكن راغب مصدقاً لما رأي بعينيه . . لكنه قد حدث . . الحمد لله الذي جمعنا هكذا . . حياة في بيتنا تتحدث مع أمي هي وأمها . . يا لحكمة الله . . إنما إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون . . لقد تحقق دعائي يا الله . . أشكرك كثيراً . . أرجو أن تشفي أمي من مرضها وأن يعود أخي سالماً حتى نفرح سوياً . . سيفرح أخي لنا بالتأكيد حينما يعلم بذلك .

*****

(الثالث والعشرون من أغسطس)

بدأت الأيام الأخيرة في هذه الرحلة بالانقضاء سريعاً . . ما بقيت عدد ساعات النهار كما كانت ولا عدد ساعات الليل أيضاً .
جاءت نهار مبتسمة تنظر لعمران الشارد في عد أغصان الشجر .
»ما هذا الأمر المهم جداً الذي تريدني فيه يا تُري؟! « .
نظر إليها عمران من أسفل قدميها وحتى شعرها . . » أين المنشفة ؟!« .
احمرت الفتاة خجلاً وأدارت وجهها عنه . . وكأنها تريد الرحيل .
وقف عمران من مكانه مسرعاً ممسكاً بها . . »لم أقصد . . كنت أمزح . . هيا اجلسي « .
نهار : ما الأمر إذاً ؟! . . ليس معي كثيراً من الوقت . . عليّ الرحيل قبل أن يستيقظ نصار من سكرته .
تردد عمران كثيراً وبدا القلق علي وجهه : إن عملي هنا أن استهدف أحدي الشخصيات وأرسم قصتها . . في الحقيقة جذبتني قصتكِ من أول يوم رأيتكِ فيه في المُصلي .
استمعت نهار بحرص شديد دون أن تتكلم .
تتبعتكِ . . عرفت كل شيء عنكِ . . من حمزة أو بمجيئي للمقهى أو بمقابلاتنا هنا . . لم أعرف أني وقعت في حُبكِ يا نهار إلا بعدما ابتعدت لأكمل رحلتي بعيداً في الأيام الماضية . . كنت أرسم

وأتجول في أماكن أخرى مع صديقي . . لكن صورتكِ لم تغب عني لحظة واحدة . . رسمت كل شيء عنكِ . . رسمت تلك اللوحة التي طلبتها مني . . كنتِ أنتِ بطلة قصتي وعملي ورسوماتي دون أن تعرفي ذلك . . ولن أنشر أي منها إلا بعدما توافقي علي ذلك .

اكتفت نظرات ليلة بإجابته . . نظرات دهشة مما فعل . . نظرات تساؤل هل خدعها إلي هذا الحد ؟! . . هل تقرب منها فقط ليقم بعمله ؟! . . هل استغلها هو الآخر ؟! .

قالت في مزيد من الأسى : ماذا فعلت يا عمران ؟! . . ليتك لم تخبرني بالأمر حتى . . ليت كذبة حُبك لي دامت . . كنت أرغب في أن تدوم ذكراك وحتى بعد رحيلك من هنا . . كانت ستؤنسني في وحدتي . . تصاحبني في غربتي عن بلادي التي ستعود إليها وربما تحكي لها عني . .

وقف عمران محاولاً التوضيح : صدقيني يا نهار لم استغلكِ . . حتى أنا لم أعرف أني أحببتكِ . . صدقيني أن كل شيء حدث بيننا كان صادقاً . . إذا أردتِ ألا أنشر شيئاً من رسوماتي فلن أفعل .. أنا مستعد للتخلي عن كل شيء المهرجان والمسابقة وعن كل شيء من أجلكِ حتى تصدقي بأني لم أخدعكِ . .

تنبهت ليلة لكلامه جيداً ثم أكملت فيما عزمت عليه قائلة : أخبرتني أن كل شيء يحدث لسبب . . وبالفعل كان لقاءنا لسبب

عظيم . . حتى تتسبب أنت الآخر بهذا الجرح الكبير بداخلي . .
وقفت الفتاة مكانها والدمع يتأرجح في عينيها : أنسي كل ما دار بيننا . . أنسي ما حدث البارحة يا عمران . . فقط ارحل عن هذه البلاد . . أخبرتك البارحة أنني سأموت هنا . . علي الأقل لم أكن كاذبة بشأن ذلك . .
عمران محاولاً منعها : نهار . . انتظري أرجوكِ . .
التفتت إليه وقالت بنبرة صوت مجروحة جداً : أتعلم شيئاً يا عمران ؟! . . كنت قد آمنت أن حتى الطائر في قفصه يملك حرية الغناء . . ليته ظل صامتاً للأبد وليتك لم تأتِ إلي هنا . .
عمران : نهار ! . .
ليلة : لا تقل نهار بعد الآن . . إنها كذبة أيضاً . . بل تبين أن كذبة «ليلة» هي الشيء الأصدق في حياتي . . أنا ليلة بالنسبة لك ولأي أحد . . سأعيش وأموت مجرد ليلة . .
«أيها الرسام البارع . . أنشر ما رسمته . . لن أضيع تعبك فيه . . يكفي تعبك في رسم هذه الخطة و تنفيذها» . . ثم رحلت . .
رحلت الفتاة وقد علم عمران أنها لن تأتي ثانية للقائه . . ليته لم يخبرها بشيء . . ليته لم ينتزع ذلك الأمل الذي زرعه بداخلها بأنها ليست « ليلة » .
عاد عمران لبيته خائباً . . مضيعاً كل شيء كان بين يديه . . حتى هي .

فهم حليم الأمر من نظرات صديقه الخائبة فلم يسأله . . «لا ندري الآن ما مصير هذه الفتاة . . ولا المسابقة . . ولا حتى صديقي عمران» . .

*****

تركت عاصم مع والدتها كعادتهما وذهبت لغرفتها . . فربما هو الوحيد هنا الذي لا تقلق منه علي والدتها . . لجأت لسريرها . . بكت من كل قلبها مودعة ذلك الغريب . . كتمت آهاتها في وسادتها . . يبدو أن قدرها عالق في هذا البكاء ومع هذه الوسادة . . لم تبكِ لأنه خدعها . . بل لوداعه . .

في الحقيقة أنها انتهزت هذه الفرصة حتى لا يأتِ إلي نافذتها مجدداً ويعرض نفسه للخطر . . أرادت وداعه قبل وداعه للبلاد . . لكن ليت هذا الوداع لم يكن هكذا . . ليته كان بأمل مثلما علمها . . أمل اللقاء من جديد .

*****

علي عكس فتاة لبنان . . لم يكن احتضان حياة لوسادة راغب لكتم بكاءها . . بل خجلاً من هذه الفرحة . . الفرحة التي لم تعد تنتظرها في الشرفة فقط . . بل أدارت لها وجهها واستقبلتها من الباب أيضاً .

زادت جلسات اللقاء بين راغب وأسرته مع حياة ووالدتها . .

بدا الأمر وكأنه أمنية توشك أن تتحقق . . استمر الحديث . . استمرت الابتسامات . . والنظرات أيضاً . . نظر إليها في حب شديد متمنياً أن تكتمل أمنيته علي خير .

*****

(الرابع والعشرون من أغسطس)

ذهب عمران هذه المرة للقائها وكان متأكداً أنها لن تأتي . . لكن قلبه قد ذهب إليها علي أي حال . . فما بال قدماه . . انتظر طويلاً يعد أغصان الشجر . . يعد السناجب . . يعد الدقائق التي كانت أكثر من سنوات بالنسبة له .
لم تأتِ . . لكن أحد آخر الذي أتي إليه . . اندهش عمران لرؤية هذا الشخص . . وقفت قدماه دون أن يشعر . . مدّ يده لاستلام المظروف الذي معه . . ثم رحل حامل المظروف .
إنه الشيء الذي لم يكن في الحسبان حدوثه . . ولكنه حدث في أثناء غياب عمران عن اللقاء بليلة . . أثناء تواجده مع صديقه وخديجة في رحلتهم . .

*****

ما حدث في (السابع عشر من أغسطس) . .
ذهبت ليلة للاطمئنان علي والدتها كعادتها . . فوجدت عاصم

معها يقرأ لها شيئاً . . لم ترد أن تقطع هذه الدقائق عن أمها فتركتهما وذهبت إلي غرفتها . . تنظر لنافذتها وتحدث النجوم . قلّب عاصم في الكتب ولم يدرِ ماذا يقرأ عليها اليوم . . فربما ملت الحسناء من هذه الكتب . . استأذنها في الذهاب لغرفته لجلب كتاب أعجبه كثيراً وكان متأكداً أنه سيعجبها أيضاً . . فعلي أي حال إنها الكتب التي تجعلهم يهربون من هذا العالم .

وقف من مكانه وقبل توجهه للباب . . سمع صوتاً خافتاً مرهقاً ينادي » رابح » . . » رابح » . . فكانت صدمته الكبرى حينما نظر خلفه . . إنها الحسناء . . تناديه .

جلس الصبي إلي كرسيه ثانية وقد أصفر لونه تماماً . . نظر إليها في استغراب ودهشة ولم يتفوه بأي كلمة . . إنه دورها الآن حتى تتكلم وتعوض تلك السنوات من الصمت .

قالت حسناء وصوتها مازال مرهقاً : منذ أول يوم أتيت فيه إلي هنا وأنا أعلم أنك » رابح » . . إننا نتعرف للروائح الطيبة بحاسة الشم . . ولكن النفوس الطيبة أيضاً نعرفها . . بقلوبنا يا بني . حتى وإن اختفت ابتسامتك التي أعتدت عليها في صغرك كلما جلست معي أنا وأخيك . . فمازلت أعرف نبرة صوتك جيداً . وأشعر بالأمان حينما تسرد عليّ بعض من النصوص . . أشعر وكأن أمين بجانبي . . رحمه الله .

نظر إليها الصبي في اطمئنان وفرح أنها عرفته . . ولأنه سمع

صوتها . . ولكنه أراد فقط الإنصات إليها هذه المرة .
حسناء : إن ابنتي علي وشك أن تكرر نفس الكرة يا رابح . . ربما لا نملك السلطة الكافية علي قلوبنا لنتجاهلها . . لكن بالتأكيد يمكننا منع الأذى عن الغير إذا لم نتجاهله . . ما أريده فقط هو أن يرحل من هنا دون خسارة أرواح أخري . .
رابح : عمران . . أليس كذلك ؟! .
تعجبت حسناء من قوله : وهل تعرفه ؟! .
رابح : نعم . . كنت أراقب لقاءاتهما هو وليلة . . وعلمت أنه نفس السائح الذي زار مقهانا متنكراً لرؤيتها .
ظهر الخوف والقلق علي ملامح الحسناء وقد فهم رابح ذلك فأكمل كلامه .
لا تقلقي . . تعرفين أن ثأري مع نصار وليس مع غيره . . قلقت حينما رأيتها تهرب من النافذة أول مرة وذهابها لمسجد أخي في البلدة وتجولها في غابات العذر أيضاً . . علمت أنها تهرب من العالم الذي اختلقه لها ذلك الحقير . . لكن القلق أصابني حينما رأيت عمران يتبعها أينما ذهبت . . حتى تلاقيا ثم رأيته في المقهى أيضاً .
حسناء : لا أريد أن نفقد أميناً آخر يا بني . . هذه المرة سيدمر نصار البلدة بالكامل . . بل وسيدمر عائلات أيضاً خارج البلاد . . سأطلب منك شيئاً .

قال رابح في إنصات : ما هو ؟! .
حسناء : سأسرد عليك اليوم قصة لم تسمع بها من قبل . . أريدك أن تخبر عمران بها . . أحضر بعض الأوراق والقلم يا بني .

*****

رحل عاصم أو » رابح » الاسم الجديد الذي لم يعرفه عمران بعد . . أستند عمران إلي الشجرة ينظر للمظروف . . في البداية اعتقد أنه من نهار . . لكن تبين عكس ذلك حينما فتحه وبدأ في قراءته . . قراءة صامتة . . وكأن حسناء التي لم يعرف صوتها أبداً هي التي تسرد له ما في الخطاب .
جن جنون عمران لما قرأ للتو . . ما هذا يا الله ! . . إنه امتحان صعب جداً . . ويرجون مني الهدوء والعقل . . أي عقل بعد كل ما يحدث هنا . . كيف لا أجن . . كيف ! . . وأخذ يخبط بيديه ويركل بقدمه في الشجر لا يدرِ ما الذي سيفعله . . حتى خافت السناجب وخرجت من مخابئها .
ركض كالبرق إلي بيت حمزة . . ثم تذكر قولها في آخر الخطاب كأنه صدي الصوت الذي يدوي في الجبال . . » أرجوك ألا تؤذي حامل خطابي ولا يعرف عنه أحداً غيرك . . لا أريد أن يكتشف أمر هذا الصبي . . فقط إن كنت تريد لابنتي أن تعود إلي موطنها . . أن تأتِ إليك . . احتفظ بهذا السر الذي أخفيته أنا منذ أن حملت » ملاك » بين يدي . . وقد أخرجته الآن لك

ولرابح . . فقط ارحل بسلام الآمنين . . وسيعود كل شيء لمجراه . . إن شاء الله يا بني » . . حسناء . .
تمهل عمران ثم خبأ الخطاب في قميصه . . عليه ألا يخبر أحداً بذلك . . نعم لديها كل الحق . . ذهب إلي صديقه وبلغه بالقرار المفاجئ . . سنرحل غداً يا حليم .
بدت الدهشة علي وجه حليم : ماذا ؟! . . ما بك يا عمران ؟! .
رد عمران في هدوء لم يعرفه من قبل : نعم . . كما سمعت . . لنجهز كل شيء حتى نعود غداً .
حليم : هل قابلتها اليوم ؟! .
عمران : لم تأتِ . . وعلينا العودة . . لا أطيق البقاء هنا وأمي مريضة .
حليم : ولكن يا رجل لم أخبر حمزة بعد عن أمر خديجة . . كنت أفكر في تمهيد الأمر قبل رحيلنا.
قال عمران في حماس : إذاً فلتنهيه الآن يا حليم . . تشجع يا رجل واذهب إليه . . هيا
حليم : الآن . . لم أجهز نفسي يا رجل ! . . لا أعلم كيف سأطلب منه ذلك أصلاً .
عمران : قل له أريد أن أطلب يد أختك يا حمزة . . هل توافق؟ هكذا يا حليم .
سكت حليم لبرهة ثم قال : نعم . . الأمر بهذه البساطة . .

سأذهب وأقول له ذلك . . لكن غداً .
عمران : قلت لك سنرحل في الغد .
حليم : حسناً يا رجل . . في أي موعد في الغد ؟! .
عمران : في الثانية عشرة ظهراً . . سأبلغ زميلنا »حسان« بالأمر الآن . . كن جاهزاً لذلك .
تنهد حليم : حسناً . . سأحاول .

*****

استعد راغب للرحيل . . ودع أمه وأباه ثم ذهب لوداع حياة . . كان وداعاً مختلفاً هذه المرة . . فلم تعطله أمه عن وداعه لها .
راغب : هل أقول وداعاً . . أم إلي لقاء قريب ؟! .
ابتسمت حياة : كما تحب . . ولكن أرجو أن تكون الثانية .
بادلها راغب الابتسامة : وأنا أيضاً . . أريد ذلك القريب أن يكون قريباً عاجلاً . . عاجلاً جداً .
خجلت حياة من قوله : إذاً . . فلندعو الله .
راغب : نعم لندعو الله دائماً وأبداً .

*****

استعد حليم للقاء حمزة . . لم يكن الأمر بسيطاً كما قال عمران . . فالكلمات تهرب من بين شفتيه ولن يستطيع قولها. تدرب كثيراً علي قول ذلك . . ولكن كلما تأهب للخروج من

الباب أصابه القلق والتوتر . . والتلعثم أيضاً .
لم يكن من عمران إلا أن دفعه خارج الباب ثم أغلقه . . لن يفلح إلا هكذا . . ثم عاد إلي عمله ثانية . . للأوراق والقلم . . كان يكتب خطاباً ما .

*****

وقف حليم أمام بيت حمزة لا يعرف كيف يطرق الباب . . في الحقيقة أنه لا يعرف أي شيء الآن . . ما الذي سيفعله أو سيقوله فجأة هكذا . . دون تمهيد حتى لحمزة . . ماذا إذا لم يرد تزويج أخته لغريب عن بلاده مثلي ؟! . . لقد دفعتني إلي البحر ولا أستطيع السباحة يا عمران ! . . ولكن مهلاً . . أنا أستطيع السباحة حقاً . . سأجرب . . فإما الآن أو سأندم للأبد .
طرق حليم الباب ففتح له حمزة . . بمجرد أن رآه أمامه فرت الكلمات من علي لسانه كفرار الفأران من الهرة . . ويلك يا حليم . . ماذا سأفعل ! .
حمزة : أهلاً بك يا حليم . . هل هناك خطب ما ؟! . . تفضل بالدخول .
تلعثم حليم في الكلمات : نعم . . أريد أن أتحدث معك في أمر هام . .
جلس حمزة وضيفه علي أريكة الحوارات المهمة خاصته . . فكانت رباب وخديجة في المطبخ تقومان ببعض الأعمال . . نادت

رباب علي خديجة وأصبحت الأربع آذان خلف جدار المطبخ كلها آذان صاغية .
حمزة : ما هذا الأمر الهام يا حليم ؟! .
تردد حليم في قول ذلك : في الحقيقة . . سنرحل أنا وعمران غداً ظهراً إن شاء الله .
صدمت خديجة من هذه الجملة . . ووضعت يدها علي قلبها . . شاهدتها رباب . . » الآن قد فضح أمركِ تماماً يا خديجة» .
تعجب حمزة : أليس انتهاء رحلتكما بانتهاء هذا الشهر ؟! .
حليم : نعم . . ولكن اتخذنا قرارنا بأن نرحل غداً . . لا اعلم ما الذي أصاب عمران ربما بسبب مرض والدته المفاجئ .
حمزة : نعم ربما . . ليشفيها الله من عنده . . حسناً بالتوفيق لكما إن شاء الله .
أراد حليم قول ما عنده . . لكنه يجد صعوبة في ذلك . . أخذ يفرك في الأريكة ويشبك أصابعه ببعض فلاحظ حمزة ذلك .
حمزة : ما الأمر يا حليم ؟! . . هل تريد قول شيء ما ؟! .
تشجع حليم هذه المرة وألقي ما عنده : نعم . . في الحقيقة يا أخي حمزة . .أتيت لأطلب منك يد أختك خديجة . .فهل تعطيني طلبي أم أني تأملت كثيراً ؟! .
كان رد فعل حمزة عكس ما توقعه حليم تماماً . . لقد فرح كثيراً . . حتى أن خديجة التي كانت تحس بأنه جاء اليوم لينطقها

قد فرحت . . أما رباب المندهشة فكانت تنتظر موافقة زوجها حتى تزغرد .
ربت حمزة علي كتف حليم قائلاً في فرح : أعطيك يا أخي . . ولِمَ لا أعطيك ! .
علي الفور احتضنت رباب عروسها الصغيرة خديجة . . لقد أصبح الأمر حقيقة الآن .
لم يصدق حليم ما سمعه للتو وكأن قلبه قد قفز من مكانه فقال في فرح شديد : حقاً ! . . لا أصدق هذا . . ظننت أنك لن توافق لأني غريب عن بلادكم .
ضحك حمزة قائلاً : منذ رأيتك وتعاملت معك وأنا أشعر بأنك ستكون قريباً يوماً ما . . لم تكن غريباً أبداً يا حليم . . بارك الله فيك يا أخي .
حليم : حقاً . . وأنا أيضاً كنت أشعر بذلك . . ولكن ماذا عن خديجة ؟! . . ألن تسألها عن رأيها ؟!.
ضحك حمزة : حسناً سأسألها وسيأتي الجواب إلي هنا دون أن تأتي أو نتحرك من مكاننا . . ستري الآن .
نادي حمزة علي خديجة بصوت عالٍ : خديجة . . خديجة يا عزيزتي . . هل توافقي ؟! .
حينها أمكن لرباب بأن تزغرد كما يحلو لها . . إنها الإشارة .
ضحك حمزة وحليم . . ألم أقل لك يا رجل . . إنهما أختي

وزوجتي أعرفهما جيداً .
تحدثا في أمر الخطبة . . كان علي حليم العودة إلي بلاده أولاً ليخبر أهله بذلك ثم يسافر لإتمام أمر المعرض والمسابقة . . ويأتي بأهله إلي لبنان لخطبة خديجة . . سيكون علي تواصل مع حمزة لحين إتمام كل شيء والعودة إلي هنا مجدداً بإذن الله .

*****

انتهي عمران من كتابة خطابه وجهزه حتى يعطيه لرابح في الصباح فيسلمه لنهار في الوقت المناسب بعد رحيله عن البلاد ،. لا يدرِ كيف سيلقاه غداً . . لكن لابد من لقاءه قبل رحيله إن شاء الله .

*****

(الخامس والعشرون من أغسطس)
ذهب عمران إلي غابة العذر لعل أحداً ما يأتِ . . إن لم تكن نهار وهو يعلم جيداً أنها لن تأتي . . فلعله يصل إلي رابح ! .
ما كان من عمران إلا أن ذهب إلي نافذة نهار لعله يلقاها اللقاء الأخير قبل رحيله . . ويعطيها الخطاب .
نظر عمران في الغرفة فلم يجد سوي الظلام . . أنزل القضبان ثم دخل بكل هدوء ووضعها ثانية . . ما كاد يلتفت حتى أمسك أحدهم بذراعيه ووضعهما خلفه . . لم يستطع رؤيته لكن قبضته

كانت قوية . . فُتِح باب الغرفة وكان هذا الصوت » كيف حالك أيها السائح المصري ! » هو آخر ما سمعه . . قبل أن يضربه الرجل علي رأسه و يغشي عليه .

*****

بعدما انتهي حمدي وميرفت من حديثهما في الشرفة وتناولا الغداء . . استراحت ميرفت قليلاً ثم أخبرت حمدي أنها ذاهبة إلي عند جارتها » صفاء » .

حمدي : ماذا ؟! . . وهل ستقدرين علي الذهاب ؟! .

ميرفت في شيء من الضيق : لم أمت بعد يا حمدي . . سأقدر لا تخف .

حمدي : ولكن لماذا تذهبين إلي هناك ؟! .

ميرفت : لقد زارتنا كثيراً في الفترة الأخيرة وأردت أن أرد لها أحد هذه الزيارات .

ابتسم حمدي فقد أدرك أن زوجته تريد اختبار الفتاة ووالدتها قبل أن يحدث بينهم أي شيء . . إنها فقط عادة لدي أم الابن حتى تطمئن للفتاة قبل أن تطلبها لأبنها. .

*****

قامت ميرفت برن جرس الباب فلم يمضِ دقيقة حتى فتحت صفاء . . لا أصدق . . هذا أنتِ يا أم عمران . . أهلاً بكِ . .

تفضلي . . تفضلي .

دخلت ميرفت الشقة المتواضعة البسيطة في كل شيء . . طلبت منها صفاء الجلوس فجلست علي الفور . . أخذت تنظر حولها وفي كل الزوايا والاتجاهات . . ذوقكم بسيط ومريح للعين أيضاً . . ما شاء الله .

صفاء : في الحقيقة إنه ذوق حياة ابنتي . . لا تحب أن تتكلف كثيراً . . إنها بسيطة في كل شيء .

قالت ميرفت في إعجاب : نعم . . واضح . . ما شاء الله . . أين هي إذاً ؟! . . هل مازالت نائمة ؟! .

ابتسمت صفاء من قول ميرفت : لا . . بل ذهبت لشراء بعض الأغراض من الشارع الخلفي هنا . . وأشارت بيدها باتجاه الشارع . . لن تطيل إن شاء الله .

لم تكمل صفاء جملتها حتى دخلت حياة . . اندهشت لرؤية ميرفت في بيتها لكنها سرعان ما تقبلت المفاجأة ورحبت بها ترحيباً قوياً .

حياة : خالتي ميرفت ! . . كيف حالكِ ؟! . . هل تشعرين بتحسن ؟! .

ابتسمت ميرفت : بخير يا عزيزتي . . كيف حالكِ ؟! .

حياة : بخير طالما رأيتكِ بخير يا خالتي . . سأحضر الشاي خلال لحظات . . أعلم أنكِ تحبينه .

ابتسمت ميرفت : سلمكِ الله يا حياة . . لا داعي للشاي . . لقد شربته للتو مع عمكِ حمدي . . جئت فقط لأغير جو البيت . . مللت من شقتي ومن الفراش أيضاً . . أشعر أني بخير الآن .
حياة : الحمد لله يا خالتي . . أدام الله عافيتكِ . . بيتنا متواضع بعض الشيء أتمني أن تحسي فيه بالراحة .
ميرفت : نعم . . إن ذوقه بسيط ومريح . . مرتب ونظيف أيضاً ما شاء الله .
صفاء : نعم . . تساعدني حياة في كل ما يتعلق بالبيت . . خاصة الترتيب والتنظيف . . لا تقدر علي الجلوس في مكان غير مرتب أو يعمه الغبار .
قالت ميرفت في ابتسامة : ما شاء الله . . هل تجدين الوقت لعمل شغل البيت يا حياة ؟! . . أقصد مع دراستك وعملك في الجامعة .
قالت حياة في مزيد من اللطف : كوني معيدة لا يعني أني لا أهتم بنظافة بيتي وتجميله يا خالتي . . أو ما آكله أيضاً . . لا أدع أي شيء يؤثر علي حياتي الخاصة بالتأكيد . . أقدر علي التكيف وتدبير أمور بيتنا دائماً والحمد لله لا أجد عناء في ذلك ولا أثقل الأعمال علي أمي قدر استطاعتي .
قالتها حياة وكأنها تعرف تماماً ما ترمي إليه ميرفت بسؤالها . . لكن ردها علي ميرفت كان في غاية الفطنة مع الذوق أيضاً حتى

تعجبت منه والدتها .
ابتسمت ميرفت وقد نالت الرد المطلوب من الفتاة : معكِ حق يا حياة . . تختلفين عن بنات هذه الأيام كثيراً . . إما أن تجدي الفتاة مهتمة كل الاهتمام بالعمل مع إهمال بيتها أو تهتم بحياتها الخاصة وأصدقائها علي حساب بيتها فلا تصلح لأن تكون زوجة ولا أماً يوماً ما . . كملكِ الله بعقلكِ يا عزيزتي .
ابتسمت صفاء وحياة من كلام ميرفت . . لقد تغير كلامها تماماً ونظرتها لهما . . سبحان مغير القلوب والأحوال . . ولِمَ العجب فهو الله . .

*****

فتح عيناه فوجد نفسه في غرفة مظلمة لا يتسلل فيها إلا شعاع من بين القضبان التي وضعت في النافذة بإحكام . . إنه شعاع الأمل الوحيد الذي لا اختلاف عليه في كل أنحاء العالم . . شعاع يصبر هذا الغريب علي ما أصابه بعيداً عن أهله وموطنه . . شعاع الشمس .
دخل أحدهم من باب الغرفة المظلمة واقترب من ذلك المُكبل بالسلاسل من كافة أطرافه . . وقف في الظلام خلف ظهره تماماً. همس في أذنه . . كأنه فحيح الأفاعي في الظلام الدامس . . » هل أعجبتك ضيافتنا يا عمران ؟ « .
إنه نفس الصوت الذي سمعه قبل أن يغشي عليه . . ثار غضب

الشاب وأخذ يحرك جميع أطرافه بالسلاسل المكبل بها علّه يفلت من هذه القيود الغليظة . . أخذ يزأر مثل الأسود الغاضبة . . من أنت أيها الجبان ؟! . .

أجابه نصار في استهزاء بغضبه ومازال مختبئاً في الظلام لا يظهر له: لا . . لا يا عمران . . وهل هذا هو المعروف الذي أنتظره منك رداً لمعروفي أنا ؟! . . ليس معك حق في ذلك .

عمران : معروف ؟! . . أي معروف ؟! .

دار نصار حوله ثم وصل أمامه تماماً . . تلوث شعاع الشمس حينما ظهر وجهه فيه وقال ساخراً : » المعروف أنك مازلت علي قيد الحياة إلي الآن أيها السائح المصري الذكي ذو الشارب والقبعة الغبية » .

ضحك عمران قائلاً يثير غيظه هو الآخر : نصار . . لم أتوقع منك أكثر من ذلك . . ما أحقرك . . إنك ضعيف لدرجة أنك لا تقدر علي مواجهتي رجل لرجل . . بل تختبئ خلف صفوف من الرجال الضخام أينما ذهبت . . لأنك جبان . . جبان جداً .

ضحك نصار ضحكة عالية تثير غضب الشاب أكثر وأكثر : »لا ألومك . . إنه عنفوان الشباب الذي يدفعك لقول هذا . . ولكن لا أنصحك بقول المزيد منه ». . ثم اقترب من أذنه ثانية . . »ماذا إن خسرته وأصبحت عجوزاً معاقاً للأبد ؟! . . أو ما رأيك أن تموت برصاصة واحدة وترتاح من العذاب الذي قد يسبقها ؟! أو لا . .

لديّ ما هو أفضل منهما بكثير» . . توجه للوقوف أمامه واستمر في كلماته السامة . . »أن استمتع بمعاناتك . . كم أحب الاستمتاع بمعانات الأشخاص العنيدين . . الذين يحسبون أنفسهم أقوياء وما هم بشيء . . أتعلم أمراً ! . . إنك تذكرني بشخص عرفته منذ زمن . . مسكين ظن أنه يمكنه الوقوف في وجهي وانتزاع ما هو ملكي أنا . . إنك لست أول الحاضرين إلي هنا مع الأسف فقد كان هنا قبلك . . ولكن أين هو الآن ! . . لم يصمد طويلاً . . قتله عنفوانه أيضاً وكلماته المليئة بالتقوى والورع . . تحلل في التراب . . وما أسرعه من تحلل . . فقد كان محروقاً . . كان عنفوانه وتسرعه ولسانه الفصيح هم السبب في احتراقه . . تُري هل ذهب إلي الجنة ؟! . . لا أعلم . . لكن حالته كانت تقول أن حتى جهنم ستشفق عليه مما أصابه ولا تقبله . . فقد احترق بما يكفيه » . .

تفاجأ عمران من كل هذه السخرية في نبرة هذا السفيه عديم الإيمان . . علم مسبقاً أنه حقير لا يخاف شيء . . ولكن لم يتوقعه بكل هذا السفه وعدم الخوف من الله نفسه . . أدرك جيداً أنه كان يقصد الشيخ أمين رحمه الله فقد حكي له حمزة حكايته وأنهم وجدوه محروقاً في المسجد . . إذاً فقد قام بحرقه هنا ثم وضعه في المسجد . . هكذا لم يثبت عليه شيء . . لم يجب عمران علي كلماته هذه . . بل ترك الأمر لحامل الطعام الواقف بجانب

الباب . . عرفه في الظلام من بنيته الضعيفة فلم يكن لدي نصار أحداً بهذا الضعف في رجاله سوي هذا الصبي . . وكأنه يستمتع بضعفه كثيراً . . يحتمي بالضخام ويستمتع بضعف قوة هذا الصبي . . إنه صبي المقهى الذي أتي لدمار هذا المعتوه . . رابح .
أشار نصار للصبي »عاصم» الذي كان واقفاً معه من بداية الحوار بينهما . . » ضع صينية الطعام أمامه هنا علي هذا الكرسي يا عاصم . . ولكن صحيح كيف ستأكل يا عمران ؟! . . كنت أود ألا أطعمك لكن لديّ شيء أريك إياه وأريدك مستيقظاً متحمساً ممتلئ البطن للاستمتاع به . . قم بإطعامه في فمه يا عاصم . . طبعاً لن يستطيع إطعام نفسه بسبب هذه القيود اللعينة التي لا يملك مفاتيحها إلا شرير مثلي ». . ثم ضحك ضحكته المستفزة ثانية . . »سأعود بعد بعض الوقت تكون قد أنهيت طعامك . . سآتي معي بمفاجأة خاصة لك . . ستعجبك كثيراً . . كن مستعداً»، رحل الحقير عن الغرفة المظلمة . . وقف رجلان في غاية الضخامة أمام باب الغرفة لا علاقة لهما بأي شيء سوي أنهما ينتظران . . وكأن هذا عملهما الوحيد الذي خلقا من أجله . . وضع عاصم الطعام علي الكرسي ثم أخذ يناوله وهو واقف في مكانه حتى يتمكن من الهمس في أذنه دون أن يسمعه أحد .
قال عاصم في همس شديد : ما الذي أتي بك إلي هنا ؟! . . ألم تقرأ الخطاب ؟! .

بادله عمران بالهمس أيضاً : قرأته . . جئت لأمر آخر . . استمع إليّ جيداً .

*****

انقضي الوقت الذي قال عنه نصار وحلّ المساء بمجيئه . . أتي من جديد لرؤية عمران . . دخل معه الرجلان معهما بعض المصابيح لإنارة الغرفة . . لم يكن خوفاً عليه من رهبة الظلام وإنما حتى يشاهد ما جلبه معه . . لم يكن وحده هذه المرة . . كانت » ليلة » برفقته . . ارتدت بذلتها الخاصة بالرقص . . ترك العازفين خارج الباب لا يفقهون شيئاً سوي العزف عند الإشارة . . سيقدم له عرضاً .

تفاجأ عمران مما يحدث . . فخيم عليه الصمت تماماً .

جلس نصار علي الكرسي واضعاً أحد أرجله فوق الأخرى ثم أشار للرجل خلف الباب لإعطاء الإشارة للعازفين بالبدء . . بدأت »ليلة« في التمايل والرقص . . لم تكن مثل المرة التي رآها ترقص فيها في الغابة . . ولا حتى في الليلة التي رآها ترقص فيها في المقهى . . كانت كالطائر في قفصه . . لكن الطائر بداخلها كان مكبلاً هذه المرة . . وكأن الحزن يتساقط من تمايلها . . لم تنظر في عينيه حتى . . بات الطائر يرقص جريحاً صامتاً جرده صاحبه من صوته . . »لكنه ليس صاحبكِ يا نهار . . مازلت تملكين نفسكِ يا نهار . . تأكدي من ذلك« . . قال ذلك في نفسه.

كان الحقير أكثر المستمتعين بالعرض . . ينظر لليلة تارة ثم عمران تارة أخرى . . يراقب كل منهما جيداً . . طال العزف كثيراً . . بدا علي ليلة التعب والدوار . . لكن العازفين لن ينتهوا إلا إذا أخذوا الإشارة بذلك . . طال الأمر . . سقطت ليلة أرضاً علي ركبتيها . . حينها وقف نصار وأشار لهم بالتوقف فتوقفوا ورحلوا . . وبدأ لعبته معهما .

اقترب من ليلة وأمسكها من شعرها وأوقفها . . ما كان منها إلا التأوه من الألم . . »هل ترينه جيداً . . إنه ضيفنا العزيز عمران . . ألقِ عليه نظرات الوداع هيا . . هيا » . .

نظرت ليلة إليه في أسى وحزن شديدين . . بادلها عمران نظرات الحسرة والوجع علي آلامها . . ثم صرخ فيه » كفي . . كفي » . . ماذا تريد منها يا نصار أخبرني ؟! . . ماذا تريد ؟! . . فنزلت دموع الفتاة أمامهما .

صاح نصار مهللاً : الله . . الله يا عمران . . هذا ما كنت أريده بالضبط . . أمسك بشعر الفتاة بقوة أكبر هذه المرة ثم قربها من عمران . . هل تري هذه ؟! . . الدموع . . إنها الدموع يا عمران . . قالها ضاحكاً ضحكته العالية .

طوال هذه السنوات لم أتمكن من إنزال دمعة واحدة منها . . لم أري دموعها ولا مرة . . كانت صلبة قوية . . تصعق بغضبها وصراخها . . كنت أستمتع بذلك كثيراً في الحقيقة . . لكن الأمر

مختلف الآن يا عمران . . بل أكثر متعة مما اعتدت عليه . . إنه الشيء الذي طالما سعيت لرؤيته . . هل تري ؟! . . ثم أخذ دمعة من علي خد الفتاة . . هل تري يا عمران ؟! . . تُري كيف طعمها؟! . . وقام بتذوقها . . إنها لذيذة . . فكل ما يأتِ منكِ لذيذ يا ليلة الجميلة . . قالها وهو مقترب منها بشدة يشم خصلات شعرها .

نهض عمران من علي الكرسي وصرخ في غضب : كفي . . قولت لك كفي . . اتركها وشأنها أيها الجبان .

قال نصار في استهزاء : ما هذا ؟! . . لدينا متعة أخري هنا ؟! . . هيا أفعلها ثانية . . هيا لأجلي . .

عمران في نبرة الثائر : فك وثاقي وسأريك كيف أفعلها أيها الخسيس الدنيء . . تظهر قواك علي فتاة لا حول لها ولا قوة بينما تكبلني هنا . . ما أنت إلا ضعيف جبان . . اللعنة عليك . اللعنة عليك يا نصار .

وضع نصار يده علي أذنه وبدا عليه الامتعاض : حسناً . . حسناً . كفي . . كفي صراخاً سأتركها . . سأتركها . . قام برمي الفتاة بكل قوته نحو الباب . . ففتح أحد الرجال والتقطها وأغلق الباب .

وجه عمران سهاماً إليه بنظراته الحادة قائلاً : هل تعتقد بأنك رجل هكذا ؟! . . فك وثاقي وسأريك كيف تكون الرمية علي حق يا نصار . . هيا فكني .

ضحك نصار ساخراً : حسناً . . حسناً . . عنفوان الشباب مرة أخري . . لقد مللت يا عمران . . لديّ بعض الأعمال أقوم بها ... لا داعِ لتضييع وقتي الثمين في تفاهتك هذه . . مشي خطوتين نحو الباب ثم التفت إليه . . »أرجو أن تكون ملئت بطنك جيداً . . فلا طعام بعد اليوم » . . ثم رحل وتركه محاطاً بالمصابيح . . ليس شفقة عليه أيضاً من الظلام . . وإنما حتى يقضي الليل بكامله يتذكر هذا العرض الذي لا ينسي . . تدور وتتمايل . . تسقط وتبكي . . وهكذا . .

*****

انتظر حمزة وحليم مجيء عمران لكنه لم يأتِ . . مضي الكثير من الوقت وقد فات موعد الرحلة ولكن حليم أصر علي ألا يترك صديقه ويرحل . . لابد أن شراً ما أصابه . . خاصة وأن نصار هنا في البلدة . . شعر حليم بالخطر والخوف علي صديقه وأخذ يجري كالمجنون إلي غابة العذر في الظلام لعله يصل لشيء . . لكن حمزة أخبره بحل آخر وهو الذهاب للقاء نصار . . لقد كان آخر حل لديهما .

*****

خرج نصار بعدما ناداه أحد الرجال ليكلم الرجلان أمام المنزل . . عرف أن هذا سيحدث حتماً . . وأخيراً ظهرت يا حمزة بعد غياب

سنوات ! . . يبدو عليك الكِبر . . لقد مرت سنوات طوال بالفعل . . ما سر هذه الزيارة السعيدة يا تري ؟! . . هذا ما استقبلهما به نصار .

حمزة : أين عمران ؟! .

نصار : ومن يكون عمران هذا ؟! .

حمزة : تعرفه جيداً يا نصار . . أعرف ألاعيبك هذه جيداً .

سخر منهما نصار قائلاً : ألاعيبي ؟! . . أنا لا ألعب إلا مع من يريد اللعب معي فقط يا حمزة . . تعرف ذلك جيداً .

فهم حمزة ما يرمي إليه نصار . . تمهل لحظة ثم قال : علي الرجل أن يسافر إلي بلاده يا نصار . . سلمنا إياه ودعه يرحل بسلام .

نصار : حسناً ابحث عنه فإن وجدته خذه . . وليرحل . . إذا أردت البحث في منزلي فتفضل . . لا مانع لديّ .

علم حمزة أنه حتى وإن بحث عنه في منزل هذا الذئب فلن يجده طالما أنه لا يريد ذلك . . أخذ حليم من يده . . هيا بنا يا حليم .

نظر نصار إليهما في شفقة علي ما أصاب صاحبهما . . بدأت اللعبة للتو يا حمزة . . هذا ما قاله نصار .

*****

انقضت الليلة بصعوبة بالغة علي هذا الغريب الحبيس في الذكريات قبل الظلام . . تخيل كل شيء كما حدث بالضبط . .

تكرر العرض أمامه مراراً وتكراراً حتى كاد أن يفقد صوابه من ضوء هذه المصابيح اللعينة . . لكن ماذا سيفعل وهو مُكبل هكذا ! .

*****

لم تكن هذه الليلة سهلة أيضاً علي أم عمران . . أصابها التعب الشديد . . زاد ألم قلبها الذي يشعر بثمرته المتألمة خارج بلادها ... أتي الطبيب وأحتار حمدي كثيراً . . أتصل بحياة وأمها ليساعداه في أي شيء . . أتيا علي الفور وبقيت الفتاة بجانبها طوال ليلتها ترعاها . . لم يزر النوم جفنيها أبداً في تلك الليلة .

*****

(السادس والعشرون من أغسطس)

أشرق شعاع الشمس من جديد علي أم عمران . . كانت حياة بجانبها . . أما أمها فكانت نائمة علي الكرسي بجوارهما . . أما حمدي فكان نائماً علي الأريكة خارج الغرفة . . نطقت ميرفت باسم عمران أولاً . . عمران . . عمران . . أين أنت . . حاولت حياة أن توقظها . . كان حلماً أو كابوساً يراودها . . فتحت عيناها أخيراً فوجدتهما . . أين حمدي ؟! . . حمدي ! .
أتي حمدي علي الفور . . نعم يا عزيزتي . .

قالت ميرفت وهي تكاد تلتقط أنفاسها : عمران . . اتصل بعمران يا حمدي . . أشعر أن سوءً ما قد أصابه .
حمدي : علي مهل يا عزيزتي حسناً سأتصل به حالاً . . ولكن ماذا حدث ؟! .
ميرفت : رأيته . . رأيت كابوساً يا حمدي . . كان ضائعاً . . بحثت عنه في كل مكان ولم أجده . . قلبي يحدثني أن مكروهاً ما أصابه .
حمدي : معاذ الله يا ميرفت . . سأكلمه حالاً .

*****

تنهد حمزة مجيباً علي اتصال الأستاذ حمدي : أهلاً بك يا أستاذ حمدي . . كيف حال أم عمران الآن ؟ .
حمدي : أهلاً بك . . أين عمران ابني ؟! . . إن أمه ليست علي ما يرام . . تشعر أنه في خطر ما وتريد الاطمئنان عليه . . هل هو بخير ؟! . . أين هو ؟! . . لِمَ لا يجيب علي هاتفه ؟! .
سكت حمزة للحظات ثم قال : شفاها الله وعافاها . . إنه بخير لا تقلق . . لقد ذهبوا في رحلة أخري في الضيعة المجاورة . . نعم ترك هاتفه هنا . . حسناً سأبعث أحد الرجال إليهم إن شاء الله . . ولكن طمئنها أنه بخير . . إنهما يجهزان لرحيلهما قريباً إن شاء الله . . نعم طمئن والدته واطمئن كل شيء علي ما يرام . . في أمان الله .

أطفأ حمزة الهاتف ثم نظر لحليم . . إن والدته ليست بخير . . تشعر بأنه في خطر ما . . ما أغرب قلب الأم . . سبحان الله .
شعر حليم بالأسف والأسى علي حال صديقه ووالدته . . ولنفترض أن عمران ليس ببيت نصار يا حمزة ! . . هل نكتفي بالجلوس هكذا ولا نبحث عنه ؟! .
حمزة : ربما . . ولكن أين سيذهب ؟! . . إنه يلاحق تلك الفتاة منذ مجيئه . .
وقف حليم من مكانه قائلاً : وإن يكن . . لن أقف هنا مكتوف الأيدي لا أعلم عن أخي شيئاً . . سأبحث عنه في كل مكان هنا وهناك . . لن أعود بدونه مهما كلفني الأمر يا أخي . . هل ستذهب معي ؟! .
وقف حمزة قائلاً : بالطبع سأذهب معك يا رجل . . وسأبلغ باقي الرجال للبحث معنا . . هيا بنا .

*****

طمأن حمدي زوجته بما قاله له حمزة . . لكن حتى لو اقتنع عقلها ولو قليلاً . . فقلبها يحدثها بشيء آخر . . إنه قلب الأم . . وما أدراك ما قلب الأم . .

*****

مرّت أيام أخري من البحث في الجبال وفي كل ضيعات فنيدق .

بحث الرجال في كل شبر في البلدة . . لم يجدوا لعمران أي أثر . . يأس حليم وأصابه الحزن الشديد . . أخذ يهيم علي وجهه وينادي بأعلى صوته » عمران . . أين أنت يا أخي ؟! « . . شعرت خديجة بالأسف لما أصاب الشاب وأصاب حبيبها . . تمنت من كل قلبها ودعت وتضرعت إلي الله أن يجدوه ويذهبوا من هنا بسلام . . طلبت رباب من نساء الحي الدعاء لهذين المسكينين أيضاً . . بينما انشغل الرجال بالبحث ليل نهار عنه . . فقد حليم كامل قوته وأمله في أن يلقاه . . بكي بكاءً حاراً حينما تخيل أنه سيجد جثته في أي مكان في البلدة . . مازال حمزة يشك في نصار . . ولكن لا إثبات عليه كما كان في السابق . . ما كان يخاف منه أن يلقي ذلك الشاب نفس مصير الشيخ أمين رحمه الله . . ماذا سيكون رد فعل صديقه ؟! . . ماذا عن أهله ؟! . . حسرة عليك وعلي هذا الشباب . . لِمَ ذهبت للشر بقدميك يا عمران ! .

*****

(الثلاثون من أغسطس)

لم يصل الرجال إلي شيء . . أشتد حزن الجميع علي هذا الشاب . . مازال حليم مصراً علي عدم الرحيل بدون صديقه . . تذكر كل شيء وكل ذكري جمعت بينهما طوال هذه السنوات من الدراسة والعمل والسفر . . تذكر مرحه وتفاؤله وجنونه أيضاً ...

تذكر مشاجراتهما في كل صباح . . تذكر أول يوم لهما في هذه البلدة . . » مازال أمامنا ثلاثون شروقاً غير هذا يا حليم » . . إنه اليوم الثلاثون يا أخي ولا أجدك . . أين أنت يا عمران ؟ . . ماذا أصابك يا صديقي ؟! . . وضع يديه علي وجهه يبكي لدقائق. . تذكر شيئاً هاماً . . كيف غاب ذلك عن بالك يا حليم ؟! . . قال عمران أنه يرسم كل شيء عن هذه الفتاة . . اللوحات ! . . أين اللوحات؟! . . أخذ يبحث عن اللوحات التي جهزها عمران بما أنهما قد استعدا للرحيل في نفس اليوم الذي غاب فيه . . وجدها بين أغراضه . . أخذ يقلب فيها كالمجنون ويحاول أن يربط الخيوط ببعض . . وجد لوحة للفتاة خلف القضبان وهناك شاباً مختبئاً خلف شجرة ما يراقبها . . أين هذه النافذة يا تُري؟! . . وجد لوحة أخري لنفس الشاب مختبئاً في خزانة ملابس الفتاة بينما هي واقفة أمامه . . هل دخل إلي غرفتها ؟! . . إذاً هناك مدخل ما في الغرفة ! . . وجد لوحة أخري للفتاة جالسة خلف النافذة تتأمل النجوم في الليل . . ما سر تكرار النافذة في معظم اللوحات؟! . . لحظة . . تكررت القضبان في كل اللوحات إلا في هذه اللوحة التي تراقب فيها الطيور علي الشجر أمامها . . لا يوجد بها قضبان ! . . ترك كل شيء من يده وذهب مسرعاً إلي حمزة . . حمزة . . أخي حمزة . . عرفت السر ! .

قص حليم ما فهمه علي حمزة . . أسرع معه إلي بيت نصار

يطوفان حول المنزل بحرص من خلف الأشجار . . أشار حمزة إلي غرفة الفتاة وذهبا إليها بحذر شديد . . حاول حليم أن يجرب ويقتلع القضبان ولكنه فشل . . فاجأه شيء ما وقف من أرض الغرفة وبدأ يتحرك في الظلام حتى اتضح . . إنها » ليلة » . . الفتاة في لوحات عمران . . كان وجهها ملطخاً من أثر الضرب والعلامات الزرقاء . . شعرها المتناثر جداً . . بدت عليها الصدمة . . كانت تنظر فقط دون كلام . . ثم نطقت فجأة . . » إنه هنا » . . لا تتركوه هنا . . أمسكت بيد حليم المعلقة علي جانب القضبان التي ثبتها نصار جيداً بعدما اكتشفها . . أرجوك لا تتركه هنا . . شعر حليم بالخوف منها ولكن فهم أنها في صدمة من أثر ما تعرضت له . . كان واضحاً جداً من طريقة نظرها والطريقة التي تتحدث بها . . ولكن تأكدت الآن أن عمران لديّ نصار . . أخذ حمزة بيد حليم وركض سريعاً حتى ابتعدا عن المنزل ما يكفي للحديث . . نزع حليم يد حمزة التي أمسكت به . .
»ماذا تنتظر يا حمزة ؟! . . ألم تتأكد بعد ؟! ». .
حمزة : ليس معنا دليلاً يا حليم حتى نقتحم بيته ! . . وإن فعلنا فلن نخرج منه أبداً صدقني . . إنك لا تعرفه .
قال حليم في غضب شديد : دليل . . دليل . . دليل . . سحقاً لهذا الدليل ! . . وهل وجدت دليلاً علي قتله لأمين ؟! . . إلي متى سأنتظر الدليل ؟! . . حتى يقتله ؟! . . لن أجد دليلاً عليه

ولو فعلها أيضاً.
نظر له حمزة في صمت لا يعرف ماذا يقول . . أشار حليم بأصبعه ناحيته قائلاً :» إن كنت قد تركته يقتل صديقك سابقاً ولم تجد الدليل عليه حتى الآن . . فلا أتركه يقتل صديقي أبداً ولا أنتظر أي دليل علي هذا الحقير . . الموت لي ولا أذهب بدون عمران أبداً يا حمزة » . . سكت لحظات ثم وضح لحمزة ما سيفكر فيه بعد هذه اللحظة موفراً عليه عناء الانتظار : » عرفت عمران قبل خديجة بسنوات طوال . . لا أفرط في حياة أخي خوفاً من فقدان الفتاة التي أُحِب . . عذراً يا حمزة . . لو أن خديجة رأت خطئاً ما في إنقاذي لحياته . . لكان حبي لها هو الخطأ الأكبر » . . مشي خطوات باتجاه منزل نصار ثم التفت إلي حمزة قائلاً : » أريدك أن تعلم شيئاً آخر . . لو كنت أنا في مثل مكان عمران . . أقسم لك ما أبقي ذلك المجنون علي حياة أحد من بلدتك هذه » . . ثم ذهب للقاء الذئب وحده .

*****

مرّت هذه الأيام بصعوبة بالغة علي أم عمران . . حاول حمدي أن يطمئنها لكنه لم يكن يقدر علي إقناعها في أغلب الأوقات . . شعر هو الآخر بالقلق لكنه أخفي الأمر . . حرصت حياة علي عدم إخبار راغب بتعب والدته حتى لا يصيبه القلق هو الآخر. انتظرت أي أخبار عن عمران لكن حمدي أخبرها أنه لم يصل

لشيء وإنما يحاول طمأنة زوجته فحسب . . دعت له حياة كما دعت لوالدته . . ذلك الصديق والأخ الكبير الذي طالما شكت له أخوه راغب لمشاجرته معها في صغرهم . . لم ترد إلا الخير لهذه العائلة . . أن يكون راغب سعيداً . . ولن يكون سعيداً إذا أصاب أحداً منهم مكروهاً لا سمح الله .

*****

عرف عمران المعني الحقيقي للظلام في هذه الأيام . . ليس ظلمة الغرفة أو غياب شعاع الشمس حينما يعم الليل . . وإنما ظلام النفس . . ذلك الظلام الذي غرقت فيه حبيبته حتى اتخذت من لياليه »ليلة« ترافقها طوال عمرها . . جرب نفس الشعور الذي حكته له الحسناء في خطابها عندما قام نصار بضرب ابنتها أمامها ولم تستطع الحراك ولا فعل شيء ينقذها . . » إنه نفس حالي الآن . . لم أستطع الحراك حينما ضربها أمامي يا حسناء . . لكنكِ عاجزة بفعل المرض . . أما أنا فأخجل من عجزي بسبب هذه القيود اللعينة . . ليتها كانت مرضاً أفضل لي من ذلك » . .

*****

ما حدث في (السابع والعشرون من أغسطس)

منع نصار الطعام عن عمران لمدة يومين . . شعر عمران بالضعف والإعياء . . لكنه رفض أن يطلب شيئاً . . لم يعجب ذلك نصار كثيراً فأراد إضافة المزيد من المعاناة لهما حتى تزيد متعته هو . . دخل نصار وورائه «ليلة» كانت حاملة الطعام بيدها فوضعته جانباً . . لم يفهم عمران الأمر في بدايته . . لكنه فهم بعد ذلك أن «نهار» هي التي طلبت منه تقديم الطعام لعمران فاشترط عليها نصار شرطاً قاسياً . . ولكنها قبلته . . كان الشرط أن يقوم نصار بضربها ضرباً مبرحاً أولاً وأمام عمران المُكبل ثم تطعمه بعدها . . لم يجد عمران القوة حتى يصرخ في وجهه كما فعل قبلاً . . قال بصوت ضعيف : » لا يا نهار . . أرجوكِ لا أريد هذا الطعام . . لا تدعيه يؤذيكِ . . أفضل الموت ولا أراكِ تتألمين بسببي» . .
سخر منه نصار قائلاً : » نهار ! . . ليس أسماً شيقاً أبداً . . النهار ممل ومليء بالعمل والتعب . . علي عكس الليل . . السهر والراحة والنوم والمتعة أيضاً . . تأتي الأشياء الشيقة الممتعة فقط في الليل » . .
لامست يده شعرها . . » إنكِ مثل الليل بهذا الشعر الكثيف الأسود » . . محركاً يده نحو خصرها ومحاولاً ملامسة جسدها بيده . . » بهذا الخصر النحيل المتمايل علي ألحاننا في العاشرة ...

بهذا الجسد اليافع الذي يطير به كل من يراه » . . فعل ذلك ناظراً لعمران المشتعل من الغضب ولكن لا يقدر علي تحريك سلاسله . . فيطير عقله أكثر ولا تقدر الفتاة المسكينة علي منعه مثل كل مرة حتى يلبي طلبها في إطعام حبيبها . .

» يليق بعنادكِ كثيراً . . يليق بصدك للرجال المتهافتون عليكِ . . يليق بأنكِ تبقين مثل نجوم الليل دائماً . . مغرية ولكن بعيدة جداً . . عنيدة لا تعطيهم أي شيء . . فيزيدكِ ذلك تألقاً وغلاءً أحب ذلك كثيراً لأنه يجعل منكِ فتاة غير عادية . . ويزيد الكل اشتعالاً بكِ ولكِ ولكنكِ لا تهتمين أبداً يا » ليلة » . . ألا تري أنك أخطأت في حدسك الفني حينما اخترت لها اسماً كهذا يا عمران؟!» .

أجابه عمران في نبرة ضعيفة : لا عجب أن من أختار هذا الاسم لها هو حقير مثلك يا نصار .

سخر نصار منه مجدداً : ألا تسمعين يا ليلة ؟! . . أصبح صوته ضعيفاً جداً من قلة الطعام . . ألا تريدين أن تطعميه شيئاً فلا يموت ؟! .

تقدمت ليلة نحوه وكأنها مستعدة لما سيفعله بها حتى تطعم حبيبها شيئاً . . فصرخ عمران بصوت متقطع . . لا أرجوكِ . . لا تفعلي .

كرر نصار بالفتاة ما فعله لها حينما وقفت في وجهه أول مرة .

أخذ يضربها بشدة . . كتمت آلامها وصراخها أمام عمران . . لكنها لم تستطع فعل ذلك كثيراً . . صرخت بشدة . . استمتع نصار بذلك . . أما عمران ففقد صوابه وجن جنونه . . خبط كرسيه بقدميه حتى أوقعه . . جلس بركبتيه علي الأرض صارخاً هو الآخر متأوهاً مثلها . . فزادت متعة الدنيء أكثر وأكثر . . لم ينقذها من يده إلا أنه شعر بالتعب من كثرة ضربه لها . . أخذ ينهج من كثرة ضربه لها وتساقطت دماء الفتاة من يده التي لونتها . . نظر لكل منهما مبتسماً . . « الآن يمكنكِ إطعامه » . . ثم رحل وأغلق الباب جيداً .

لم تستطع الفتاة رفع نفسها عن الأرض . . زحفت إليه . . انتظرها علي الأرض حتى تقترب منه . . وصلت إليه بيدها أولاً فأمسكت بركبته. . حاولت الزحف أكثر فأمسكت بكتفه لترتفع عن الأرض . . اقترب رأسها من رأسه تماماً فتلامسا . . تلاقت عيناهما المنهمرتان بالدموع . . حتى هو قد بكي . . بكي لما أصابها . . بكي حُباً فيها . . بكي لما فعلته لأجله بينما لم يقدر هو علي فعل شيء لها . .

مدّت يدها ومسحت دموعه المنهمرة . . اقتربت أكثر واحتضنته بشدة . . كان مكبلاً مفرود الأذرع . . مكبل الأقدام أيضاً فلا يتحرك بمقدار خطوة حتى . . لم يستطع سوي احتضانها برأسه . . أسند رأسه علي كتفها باكياً بكاءً حارقاً . . وضعت يدها علي

رقبته بكل حنان محاولة منها أن يهدأ . . اقتربت أكثر وغلفت جسده بيديها الصغيرتين . . احتضنته بقوة أكثر وكأنها تتشبث بطوق نجاتها حتى لا تسقط أرضاً . .
نظرت إليه ثانية . . مدّت يدها لجلب الطعام . . أمسكته بيدها ونظرت له باستعطاف ترجوه أن يأكل . . كيف له أن يأكل بعد ما حدث . . كانت عيناها تنطقان له » لا تجعل أملي يذهب سدي . . أرجوك يا عمران » . . فهمهما دون حديث . . فتح فمه وتناول من يدها ودموعه تسيل . . أما في المرة الثانية أشار لها بتناولها . . فتناولتها مبتسمة . . شاركته الطعام والألم والحب . . لم يتفوهان بكلمة واحدة . . فقط حكت عيونهما بما يريد قلبيهما . . دمعت عيناها ثانية فمسحها بملاصقة خده بخدها قائلاً في ضعف شديد : » حتى وإن كبل يديّ . . سأظل أمسح هذا الدمع وأنقذ العالم حتى وإن هلكت أنا . . محلاه الهلاك في وضح النهار » . . فهمست في أذنه حينها همساتها الأخيرة التي ستبقي في ذاكرته ونفسه طوال عمره .

*****

صعد نصار من الغرفة التي وضع فيها عمران . . غرفة أسفل المنزل أشبه بالقبو أو بالغرفة السحرية التي لا يعلم عنها أحد إلا رجلان يحرسان الباب فقط وكذلك عاصم . . أصبحت ليلة علي معرفة بها أيضاً منذ أحضر عمران إليها . .

صعد يلتقط أنفاسه المتقطعة من جراء ضربه العنيف للفتاة . . هدأ من نفسه . . بدأ باحتساء الخمر لزيادة متعته . . كان يرتشف الخمر من الكأس ببطء شديد وكأنه يغني في نفسه ويلوح بيده علي هذه الأنغام . . يد تلوح والأخرى تحمل الكأس ويتأرجح فيها . . ثم يرتشف مجدداً وهكذا حتى يفرغ الكأس . . فيصب غيره ويستمتع بمذاقه وأنغامه . . وهكذا حتى يكتفي . . كان يتحدث كأنه يكلم رجاله أو يفكر بصوت عالٍ . . » ما كان يجب أن أتخلص من ذاك »الأمين« علي الفور كما فعلت . . أدركت أنني لم أستمتع وقتها بما يكفي . . لنعوض تلك المتعة الآن » . .

لكنه لم يكن يعلم أن ما فعله لا يبعد العاشقان وإنما يقربهما أكثر . . فمشاركة المعاناة بين العاشقين أكثر لذة من مشاركة الفرح . . الجميع يشارك الفرح . . أما العاشق الحق هو من يشارك الحزن و المعاناة يا »نصار« . . فيخلق لذة أخري واستمتاعاً حلواً أحلي بكثير من الاستمتاع بأكثر من كأس من الخمر . . والتغني علي ألحانك المفتعلة .

*****

(الثلاثون من أغسطس)

وصل حليم إلي مدخل بيت نصار . . طلب من الرجال مقابلته .
حضر نصار علي مهل لمقابلة الشاب . . ألست الشاب الذي أتي مع حمزة منذ بضعة أيام ؟! .
قال حليم في ثبات تام : نعم . . وقد أتيت اليوم وحدي . . لا علاقة لي بأحد .
ابتسم نصار قائلاً : عظيم . . ماذا تريد ؟! .
حليم : أعلم أن صديقي لديك . . لنكن واضحين . . أخبرني ما المطلوب مني حتى آخذه وأرحل من هنا وأنا مستعد لتنفيذه .
ابتسم نصار قائلاً : يا لك من متفهم ذكي . . من الواضح أنك لست من سكان هذه البلدة . . ما اسمك ؟! .
حليم : حليم .
نصار : واضح أنك حليم كما أسمك يا حليم .
حليم : كيف حال صديقي ؟! .
نصار : إنه بخير . . مازال حياً .
تسارعت ضربات قلب حليم بعد هذه الجملة . . حاول أن يتنفس ببطء حتى لا يبدو عليه الفزع : ما المطلوب حتى نرحل بسلام ؟! .
ابتسم نصار في خبث : ولكنني لا أعرف ما معني هذا السلام ! .

لا أعرف سوي الحرب .
حليم : لم نأتِ إلي هنا لنشعل الحروب . . ولم نرد الأذى لأي أحد . . رد إليّ صديقي وأعدك بأن نرحل من هنا علي الفور . . إن موعد رحلتنا غداً .
نصار : حسناً دعني أفكر في الأمر .
حاول حليم الحفاظ علي ثباته قائلاً : هل تضمن لنا سلامة أهل البلدة بعد رحيلنا ؟! .
راوغ نصار قليلاً في إجابته قائلاً : وما شأنك بأهل القرية ؟! . . إن كل ما يهم أن تأخذ صديقك . . أليس كذلك ؟! .
حليم : نعم . . ولكن لا أريد التسبب في أي مشاكل لمن أكرموا ضيافتنا .
نصار : حسناً يعجبني أسلوبك يا حليم . . سأفكر في الأمر أيضاً .
حليم : غداً ظهراً سيكون موعد رحيلنا إن شاء الله . . متى سألتقي بأخي عمران ؟! .
نظر له نصار في إعجاب : حسناً . . غداً صباحاً .
حليم : اتفقنا . . ثم ذهب من أمامه .
تحدث نصار مع نفسه بعد رحيل حليم . . »يعجبني هذا الشاب كثيراً . . لنفكر في متعة أخرى قبل رحيل هذان الغريبان . . إن كانا سيرحلان بالفعل ! «.

*****

أخبر حمزة أخته خديجة بكل ما قاله حليم . . دافعت عنه خديجة وتفهمت موقفه تماماً مما فاجأ أخاها من رد فعلها . . » أمازلتِ تقبلينه بعد كل ما قاله ؟! » .
قالت خديجة في تفهم بالغ : بل أصبحت أقبله أكثر وأكثر يا أخي . . إذا رحل بدون صديقه فتأكد حينها فقط أنه لا يستحقني . . لا يتعب لأجلي . . من يحب يبذل أقصي جهده للإبقاء علي هذا الحب . . سواء أكان حبيباً أو صديقاً أو قريباً . . كذلك حليم . . يعرف كيف يحب وكيف يحافظ علي حبه . . فليكن رحيله مع صديقه بسلام هو إشارة حبه لي يا أخي . . وأعلم أنه سينجح في ذلك . . بإذن الله . . فقط أخبره بما قلت رجاءً . .

*****

خرج حمزة من بيته بعد ما قالته أخته . . وجد أن الحق معها . وكأنها تفتح جرحه القديم حينما لم يبذل جهداً لإنقاذ صديقه أو الدفاع عنه . . توجه إلي بيت نصار فقابل حليم عائداً في الطريق, قال حمزة في نبرة الأسف : كان معك حق . . لا تنتظر لأي دليل مثلما انتظرت أنا وضيعت صديقي من يدي . . أمسك بكتفه قائلاً : أنا معك يا حليم .
ابتسم حليم قائلاً : ماذا عن خديجة ؟! .
ابتسم حمزة مجيباً : قالت » فليكن رحيل حليم مع صديقه بسلام هو إشارة حبه لي . . وأعلم أنه سينجح في ذلك » . .

أصبحت مهمتك الآن أصعب بكثير يا رجل .
فرح قلب حليم لما سمع ذلك . . هذا ما كنت أنتظره من فتاة الجبال . .
حليم : سنقابله غداً صباحاً لأخذ عمران . . سيكون آخر ظهر لنا هنا لهذا الشهر إن شاء الله . . إن قدر الله رحيلنا بسلام فسأعود بإذن الله .
ابتسم حمزة وربت علي كتف حليم قائلاً : فليكن يا رجل . . ولكن لا تثق بكلامه كل الثقة . . إنه يحب اللعب كثيراً . . يحب أن يكون هو الأذكى و الأقوى والأظلم . . احذر منه يا حليم .

*****

(الحادي والثلاثون من أغسطس)

إنه صوت باب القبو الذي حُبِسَ فيه عمران . . لم يُفتح هذه المرة لجلب الطعام الذي حرّمه هذا الشاب علي نفسه حتى يخرج من هنا أو يصيبه الموت . . فقد طلب من حبيبته أن ترثيه بعد موته جوعاً أفضل من أن يرثي هو الباقي من شرفه بعد كل لمسة من هذا الحيوان لها . . وحمداً لله أنها استجابت . . إنها ستة أيام الآن ولا شيء سوي الماء . . لم يأكل فيها إلا مرة واحدة . . وقد كانت تلك المرة التي تناول فيها الألم والمهانة مع كل لقمة . . ما هوّن الأمر أنها أطعمته بيدها وتناولت معه . . لكن لم يهوّنه

كثيراً .
ألم تشتاق لرؤية الشمس يا عمران ؟! . . قالها نصار ساخراً .
لم يجبه عمران بشيء فقط نظر إليه نظرة استحقار تكفي لحرقه وهو واقف مكانه .
ابتسم نصار قائلاً : لا . . لا ليس معك حق في هذا . . أتيت لأخرجك من هنا فتزدريني هكذا ! . . ألا تود رؤية صديقك حليم ؟! .
انتبه عمران لاسم صديقه فتكلم قائلاً : ما شأنك بصديقي ؟! .
تقدم نصار خطوتين للأمام وأخذ يذهب يميناً ويساراً : جاءني البارحة يرجوني أن أخرجك فأثار الرحمة في داخلي ووافقت . . ألن تشكرني علي ذلك ؟! .
كانت أول مرة يضحك فيها عمران في هذا القبو ولكنها كانت ضحكة صغيرة ساخرة : يرجوك ؟! . . إنك لا تعرف صديقي إذاً .
توقف نصار حينما سمع ضحكته نظر باستغراب قائلاً : نعم . . لديك حق . . لم يرجوني حتى وهذا ما أثار إعجابي به . . أتدري شيئاً ! . . لو أنه فعل لما تركتك . . إنه أزكي منك بكثير . .
ابتسم عمران قائلاً : صدقني لن يفعل . . ولا أتركه يفعل . . لا تتحدث عن شيء لم تعرفه أبداً . . صداقتنا . . أين أنت منها ؟! .
نصار : لديك حق في هذا أيضاً . . لم أعرف معني الصداقة قط ...
ثم اقترب من أذنه قائلاً : لأنها عبارة عن تفاهة لا تدوم . . ما

يدوم هو الشر . . العداوة . . الحرب .
عمران : لا عجب فيما تفكر فيه .
»حسناً . . لدينا موعد الآن مع هذا الحليم صديقك . . هيا أحضروه » .

*****

خرج نصار أمام بيته لاستقبال حليم فوجده قد أتي بحمزة . . » أراك هنا ثانية يا حمزة ! . . هل أصابك الخوف يا حليم ؟! » .
لم يعره حليم اهتماماً فسأل عما جاء من أجله : أين عمران ؟! .
أشار نصار بأصبعه للخلف فإذا بالرجال أتوا بصديقه . . كانوا يمسكون به من ذراعيه اللذان ظلا مفرودتين طوال الأيام السبع الماضية . . يكاد يحرك أقدامه الثقيلتين من أثر عدم الحركة والامتناع عن الطعام . . بدا هزيلاً ضعيفاً لا يقدر علي العراك .
اندفع حليم نحوه فور رؤيته وأمسكه من كتفيه فساعده حمزة في ذلك . . ماذا فعلت به ؟! .
سخر نصار قائلاً : لم أفعل شيئاً . . هو من فعل بنفسه هكذا . . أليس كذلك يا عمران ! .
لم يجبه عمران واكتفي بالنظرات مرة أخري .
التفت حمزة و الرجلان استعداداً للرحيل في السيارة التي جلبها حمزة وفيها أمتعتهما . . فاجئهم صوت إطلاق النار فوقفوا جميعاً دون حراك . . نظروا لبعضهم البعض ثم التفتوا إلي نصار

كان يمسك بليلة من شعرها ويوجه مسدسه نحو رأسها تماماً . . جن جنون عمران وحاول الحراك لكن الرجلان منعاه وأمسكاه جيداً .

نصار : وافقت علي رحيلكما ولكن لم تسمعا شرطي بعد . . ليس أمراً سهلاً كما تظنون . .

أشار نصار للرجال فأحضروا حمزة وأمسكوه جيداً . . ربطوه إلي شجرة كبيرة . . كذلك فعلوا بالفتاة . . صدم كل من حليم وعمران ولا يفهمان ما يحدث .

لوّح نصار بمسدسه وتقدم خطوات نحو الشجرتين قائلاً : خطر ببالي لعبة مسلية جداً . . التنشين . . لطالما كنت أحبها وأبرع فيها . . لكن لا أستخدمها إلا قليلاً .

أثار ذلك غضب عمران كثيراً فأخذ يصرخ بصوت شبه متقطع : ماذا تريد بعد ؟! .

نظر حليم لعمران يحدثه بأن يهدأ . . همس في أذنه قائلاً : إنه يريد اللعب ! . . استرح أنت فقد جاء دوري . . لا تقلق . . ثم أجلسه علي صخرة جانبية وطلب منه الهدوء .

تقدم حليم نحو نصار قائلاً في ثبات : وما هي اللعبة ؟! .

نظر إليه نصار مندهشاً من جرأته وثباته فقال : لديّ طلقتان في المسدس . . الأولي لحمزة والثانية لليلة . . ولن ترحلا إلا بعد إطلاقهما يا حليم .

ابتسم حليم قائلاً : وهل ستقتل ليلة ؟! . . لو أردت ذلك لفعلته منذ زمن يا نصار .
ابتسم نصار ونظر إليه : لماذا لا يتمتع صديقك بهذا الذكاء ؟! . . إنه يفتقد له كثيراً .
مازال حليم في ابتسامه : لديّ صديقي ما هو أفضل من الذكاء بكثير يا نصار .
قال نصار مستهزئاً : حقاً ! . . وما هو ؟! . . لديّ شوق لمعرفة هذا الشيء .
سخر حليم منه قائلاً : ستعلم ذات يوم بالتأكيد . . نظر لصديقه المتعب وغمز إليه مبتسماً مشيراً له بيديه بإشارة لا يعلمها سوي عمران . . ولكن حليم قد أطلع عليها وعرفها . . ففهم عمران الأمر لكن بالطبع لم يهتم لهما نصار . . ثم أكمل حليم حديثه ... طلبت منك البارحة أن تضمن لي سلامة أهل البلدة بعد رحيلنا . . لا تدخل حمزة في الأمر .
قال نصار وهو يتلاعب بالمسدس أمام الهدفين : حسناً . . لديَ فكرة أفضل الآن . .
حليم : ما هي ؟! .
نظر نصار لحليم في عينيه ووجه المسدس نحو رأسه قائلاً في حزم: ما رأيك بأن تأخذ الطلقتان مكانهما . . فإذا نجوت . . رحلتما ... وإذا هلكت . . فكأنك لم تكن .

وقف حليم دون أن تهتز فيه شعرة واحدة من كلمات هذا الحقير . . فقال في ثباته المعروف : موافق . . فك وثاقهما .
أشار لرجاله بفك وثاق ليلة وحمزة وقبل أن يشير لهم بربط حليم للشجرة قال حليم حينها : » لم أقطع كل هذه المسافة لأموت موثوقاً . . ها أنا أمامك . . هيا أطلق » .
اندهش نصار مجدداً من جرأة هذا الشاب . . » أتيت لتلقي الموت هنا إذاً ؟! . . ألا تخف أبداً يا حليم ؟! » . .
حليم : » الله وحده يعلم متى وأين وكيف سيدركنا الموت . . لكل أجل كتاب علي أي حال فلِمَ الخوف ؟! » . .
شعر نصار بالغيظ لأنه لا يستطيع إخافة هذا الشاب ولا كسره مثل البقية . . » التقوى والورع مرة أخري . . ما يجعلك مختلفاً عن »أمين» أنك أذكي منه كثيراً . . أو ربما لأنك ليس لديك قلب عندنا . . الحب جعل الغباء يسيطر علي صديقك وصديقه يا حليم » . . قالها مشيراً إلي حليم وحمزة بكلامه . .
حليم : هذا ما يظنه من لم يعرف قلبه الحب يوماً . . هيا أطلق . . فلدينا رحلة لن نضيعها إن شاء الله . . ولن يضيعنا الله . .
ابتسم نصار لقول حليم الذي لا يهتز خوفاً منه . . استعد وأعد مسدسه نحو رأس هذا الجبل الذي لا يهابه . . أطلق نصار علي حليم طلقة الهدف الأول »حمزة» . . ارتعشت قلوب الجميع عندما سمعوا صوت مسدسه . . إلا حليم الثابت .

لم تصبه . . كانت طلقة فارغة . .
ضحك نصار وكأنه فاز بإخافتهم جميعاً . . لكن حليم لم يظهر الخوف علي ملامحه أبداً . . مما جعل نصار يعد طلقة الهدف الثاني » ليلة » . . همس في أذن حليم قائلاً : لا يستحق حمزة طلقة واحدة من مسدسي هذا . . أتعلم لماذا ؟! . . لأنه لم يفعل في الماضي ما تحاول فعله أنت الآن .
فهم حليم ما كان يرنو إليه نصار . . وهو إخافته مما يفعل من أجل صديقه . . لكنه تجهز للطلقة الثانية . . حاول إظهار المزيد من الثبات أمام هذا الحقير الذي يشم رائحة الضعف فيستغله ضد صاحبه ويهجم . . وقف ثانية كما جبال فنيدق التي شبع منها . . نظر إليه نصار في عينيه لعله يهزه . . كانت عينا حليم تماماً كالنسر الجارح . . لم يخف من هذا الجبان ولم يغمض جفنيه حتى . . بل انتظر رصاصته بكل ثبات وقوة .
أغمض الكل عيونه خوفاً . . فإن سلمت الطلقة الأولي . . ربما لا تسلم الثانية . . لا نعلم بنوايا هذا الحقير وما الذي يخبئه للمسكينة » ليلة » .
أطلق الرصاصة ذات الصوت المدوي في آذانهم جميعاً . . خاف الجميع من فتح عيونهم ورؤية ما حدث . . إلا واحداً فقط . . حليم .
انطلقت الرصاصة في الهواء . . لم يصبه بها نصار عن قصد . .

همس في أذنه قائلاً : » ليتك كنت أحداً من رجالي يا حليم . . ربما أنتظرك تأتي إليّ يوماً ما . . سأكون سعيداً بقدومك ».

اندهش الجميع عندما رأوا فوهة المسدس موجهة نحو السماء وأن حليم بخير . . فقط مازالت بعض النظرات والكلمات بينه وبين نصار .

لم يجبه حليم علي ما قال . . أمسك حمزة بذراع حليم وكأنه ينزعه من نظرات هذه البومة الساحبة للنظر . . أشار لحمزة بالتمهل وسأل نصار في اهتمام : هل كنت ستقتلها حقاً ؟! .

ضحك نصار في سخرية ثم همس في أذنه : » لست ممن يهب الراحة للبشر يا حليم . . عذاب فراقهما أفضل وأمتع بكثير من الراحة الناتجة عن هذه الرصاصة . . مازال لديّ الكثير هنا لأتمتع به من كسر شوكة ليلة وعنادها بعد رحيل صديقك . . سأنتظرك ذات يوم» .

تلقي حليم الإجابة وصعد الرجال الثلاثة إلي السيارة . . انطلقت أخيراً . .

*****

انطلقت السيارة وانطلق كل شيء معها . . نظرات الغضب من عيني النسر لهذا الذئب اللئيم . . دقات قلبه النابض حباً في كل مكان ذهب إليه في هذه البلدة . . الصوت الذي خطف مسمعه وقلبه وعقله معاً . . الحب الذي قوي قلبه أكثر وجعله يقف

في وجه مسدس نصار دون خوف . . الفتاة التي آمنت بقدرته علي استرجاع صديقه . . صديقه الصغير الذكي صاحب الرؤية . . الأهل الذين أكرموا ضيافتهم فأكرم الرحيل لأجل أرواحهم جميعاً

كذلك نظرات الوداع بين الشاب وحبيبته . . الغابة التي شهدت علي أول حديث بينهما . . أحاديثهما مع السناجب . . لقاءاتهما في النهار . . قلبها الذي لم يسبق وأن دق لأي إنسان علي وجه الأرض فأصبح ملك له الآن . . وقد ذهب معه . . همساتها الرنانة في أذنيه منذ آخر لقاء لهما في القبو بعد وجبتهما المؤلمة . .

» سأدعو الله دوماً باللقاء بك من جديد . . فلا أحد عندي يحتضنني سواك يا عمران » . . إخفاءه للحقائق المؤلمة التي ستعرفها في الوقت المناسب . . » يا الله نجني مما أنا فيه » . . ذلك الدعاء الذي لن ينساه أبداً . . وسيظل يدعو به هو الآخر ولكنه سيضيف » يا الله اجعلني نجاتها . . وأعدها إليّ » . . سأنتظر قدومكِ ذات يوم يا نهار . . تذكري دوماً أنكِ نهار ولستِ ليلة .

ولا نغفل نظرات رابح مودعاً عمران وواعداً إياه بتنفيذ ما دار بينهما أثناء تناول الطعام .

وصل الرجال إلي أحد العيادات في طرابلس قبل بلوغهم المطار . .

كان موعد رحلتهم في الثالثة عصراً ولكن حليم أراد التمويه علي نصار تحسباً لأي ظرف قد يفوت موعد الرحلة . . قاموا بفحص عمران وإعطاءه بعض المحاليل تعويضاً عن الطعام الذي امتنع عنه . . شعر بقليل من التحسن فطلب من حليم الرحيل إلي المطار مع إتباع إرشادات الطبيب وأخذ الأدوية .

وقف حمزة يودع الرجلان بعدما أطمئن علي عمران . . » كان شرفاً لنا أن أتيتما إلي بلدتنا الصغيرة . . كن حذراً يا عمران . . شفاك الله وعافاك أيها الشاب » . . فنظر له عمران مجيباً برأسه مع ابتسامة صغيرة . . » أما أنت يا حليم . . عد إلينا قريباً . . لدينا أمانة لك هنا » . . قالها مبتسماً فبادله حليم الابتسامة قائلاً : » سأعود إن شاء الله يا حمزة . . بلغ سلامي لهذه الأمانة وأشكرها نيابة عني علي كل شيء » . . تبادل الأحضان معهما ثم ودعهما ورحل .

*****

نظر حليم لعمران الشارد : إذاً . . كيف تشعر الآن يا رجل ؟! .

قال عمران علي مضض : وكيف سأكون يا صديقي ؟! . . بخير .

وضع حليم يده علي ركبة صديقه قائلاً في تشجيع : أيها الأسد . . لم أعهدك هكذا من قبل ! . . هل الحب يُضعِف الرجال إلي هذه الدرجة ؟! .

ابتسم عمران قائلاً : بل أكثر مما تظن . . أمضي الآن بلا قلب

فكيف ستجد حالي يا تُري؟! .
قال حليم في بعض القوة : لا حاجة لنا بالقلب الآن . . نريد العقل يا صديقي . . لدينا عمل ننجزه أولاً . . بعدها ابحث عن قلبك . .
نظر عمران إلي صديقه قائلاً : قرأت دفتر يومياتي إذاً ! .
قال حليم محاولاً المراوغة لكنه فشل فيها : في الحقيقة . . نعم . . ثم قام بعمل تلك الإشارة بيديه . . الإشارة التي فعلها حينما وقف في وجه نصار وغمز لصديقه . . كانت تلك الإشارة المرسومة علي دفتر يومياته . . الرمح والقوس . .
إنه دفتر اليوميات الذي كتب فيه عمران عن كل ما حدث معهما في رحلتهما . . وقد وجد حليم فيه خطاب حسناء . . وعلم الحقائق كلها وقت غلقه للحقائب ليلة أمس وقبل لقاءه الأخير بنصار لأخذ صديقه .
ضحك حليم قائلاً : ستقتلعها من فم الذئب يا رجل . . ستنجو بها إن شاء الله .
افترض أنك تركت قلبك أمانة لديها . . وستأتي به إليك يوماً ما . . لابد وأن ترد الأمانات إلي أهلها ولو طال الأمد . . فقط كُن علي يقين بذلك حتى يتحقق يا صديقي .
ابتسم عمران : أتمنى ذلك يا صديقي . . أتمنى أن يفي كل من حسناء ورابح بوعده لي . . ثم تصافح الرجلان .

*****

لم يعرف قلب أم عمران الهناء طيلة السبعة أيام الماضية إلا حينما حدثها عمران من المطار وأخبرها بأنه آتٍ إليها . . انتظرته علي أحر من الجمر . . وصل الخبر لصفاء وابنتها وأبلغ حمدي ابنه راغب بالأمر أيضاً . . أخيراً سيعم الفرح في هذا المنزل بقدوم الابن الأكبر .

*****

مرّت الساعات . . وصل عمران وصديقه إلي بيت حمدي . . استقبلهما الجميع بالفرح الشديد . . انهالت الأحضان والقبلات من ميرفت وحمدي علي الرجلان . . وبادلهما كل من صفاء وحياة التهاني . . استغرب عمران كثيراً المحبة التي بينهما وبين والدته فوضحها له والده فيما بعد . . بدا عليه الضعف والهزل فحاول حليم تبرير الأمر بأنه أصابه إعياء شديد قبل رحيلهما ومازال في مرحلة التعافي . . بعد أن أطمئن حليم علي صديقه طلب الإذن منهم وذهب للقاء والده ووالدته وفتاتيه الجميلتين فاستقبلوه بفرح ليس أقل من ذلك الفرح الذي حظي به في بيت عمران .

*****

مرّت الأيام والليالي وتعاقب الليل والنهار مرات ومرات . . تعافي عمران كلياً . . وكذلك والدته . . جاء موعد فحصها فطمئنهم الطبيب أنها أفضل حال من ذي قبل وستتحسن مع الاستمرار علي الدواء بإذن الله .

*****

جاء موعد أجازة راغب من الجيش . . لم يكن يطيق صبراً للقاء أخاه الأكبر ولكن لم يسعه أن يأخذ إذناً كما فعل في عيد ميلاد حبيبته . . استقبل كل منهما الآخر بالمداعبات والمشاجرات كعادتهما والأحضان أيضاً . . اجتمع شمل العائلة لأيام قليلة . . تحدث راغب مع أخيه حول ما حدث من تطورات في قصته مع حياة ففرح لهما كثيراً وتمنى خطبتهما في القريب العاجل .

*****

مرّت الأيام والأسابيع علي حليم وعمران من العمل الجاد والتجهيز للمعرض مع الأستاذ مختار . . الاختيار بين صور المعرض والاستعداد أيضاً لأمر المسابقة التي تليه . . تكملة عمران للوحات المعرض والمهرجان وكذلك تكملته لقصته وكتابه . . خطط الصديقان لعمل ناجح وفريد من نوعه . . بل سيكون نقلة كبيرة في حياة كل منهما وسيغير مستقبلهما الفني والمهني للأفضل بإذن الله .

*****

مرّت الأيام والأسابيع علي خديجة تطوف بين الجبال والسهول للقيام بعملها كدليل . . كانت قد أجلت عملها لفترة كما اتفقت مع أخيها بشأن تفكيرها في أمر الزواج . . لكن تبدل كل شيء بعدما تقدم حليم لخطبتها ثم سافر . . إنها الآن تشغل وقتها بالعمل ثانية وتتمني لو أن الأيام والشهور تمر سريعاً حتى تتمكن من رؤيته من جديد والتعرف علي عائلته الكريمة .
لم تستطع لقاء أحداً بمواصفات ذلك الغريب الذي خطفها من نفسها . . كانت تتذكره في كل شيء وتضحك . . حتى في كل خروف يمر أمامها . . ترك لها بعض الصور التي أخذها لها علي غفلة منها علي التلال وحين كانت تغني علي الناي وصور له معها أيضاً في ضيعة »مشمس« . . كانت معها دائماً آخر شيء تراه قبل نومها وأول شيء تراه فور استيقاظها . . فتضعهم تحت وسادتها وتلتقطهم رباب حينما ترتب السرير فتنظر إليهم وتبتسم وتضعهم مرة أخرى في مكانهم .

*****

أما حمزة المنشغل في حقوله وزراعته . . لم يشغله شيء عن اتفاقه مع حليم وانتظاره لعودته . . كان يطمئن عليه من وقت لآخر وإلي ما وصلت إليه أموره هو وعمران . . لم يرد أن يعلم عمران بأمر الاتصالات المتكررة بينهما حتى لا يأخذه حنينه للفتاة مرة أخرى ويسأل عما يفعله بها نصار بعد كل ما حدث فيترك كل

شيء ويعود . . فقد كان قادراً علي ذلك لا شك . . إنه مجنون على أية حال .

*****

مرّت الليالي . . فقط الليالي علي ليلة . . لم تشعر بأي نهار منذ غاب عمران عن بلدتها . . رقصت وتمايلت . . وكررت الأمر . . لم يكن لديها سوي ذلك لتفعله . . واجهت نصار . . فلم يعد عمران هنا لتخاف عليه منه . . تألمت وبكت وأيضاً تمردت . . فقط لتستمر الحياة ليس إلا . . وما كانت بحياة . . فقد أصبح كل شيء قاسياً وموحشاً بعد رحيل عمران . . بعد انقضاء أغسطس الذي لم يعد بعده شيئاً مثلما كان أبداً .

*****

جاء موعد سفر حليم وعمران إلي لندن للتجهيز للمعرض والمهرجان . . انتهي راغب من قضاء مدته في الجيش . . وكأن أحدهما يسلم الآخر . . هذا يأتِ وهذا يسافر . .

*****

حلّ فصل الشتاء علي لبنان . . ارتدت الجبال ثوبها الأبيض الناصع وزاد تألقها فيه كلما مرّت أيامه . . بعد فشل نصار في كل الحيل في خداع عدوه . . قرر استخدام ورقته الرابحة التي لا تفشل أبداً طالما لديه ما هو في قبضته الكاملة . . قابلت الفتاة العدو

الجديد » ميخائيل » . . نصار من نوع آخر ولكنه ليس بنفس قذارته . . فلا يوجد من هو مثل نصار في نظر ليلة إلي الآن . . رقصت أمامه وفتن بها . . نفذ كل ما طلبته منه . . خضع لها لكنها لم تخضع لأي مخلوق . . حتى ذلك الدمع الذي كان بوجود عمران في قبضة نصار لم يعد موجوداً أبداً بعد رحيله . . بل وعزمت علي ألا يظهر له أي ضعف بعد مقابلتها لعدوه اللدود وكأنها ستخطط لشيء ما . .

لقد وعدت عمران بأن الموت أفضل من أن تكون لأي رجل غيره . . أعجب »ميخائيل» بها أكثر و ذاد عنادها المستمر كلما تمسك بها . . ربما وجدت فيه نقطة ضعف لنصار كلما شعر نصار بالغيرة والغيظ لاستعداد الرجل عن التخلي عن أي شيء فقط لينل رضاها . . لكن ما كان يصبره أنه يفهم طبيعتها وطُهرِها . .

*****

(ليلة رأس السنة) (بداية عام ٢٠١٨ م)

أكتبُ إليكَ . .

ساعاتٍ قليلة فقط تفصلنا عن العام الجديد ، عام نجهل فيه أي الأحباب سنفارق ، وأي الغرباء سنلقي . ربما تمسكت بهذا العام في أشهره الأخيرة ولا أريده أن ينقضي ، لا أريد أن تمضي السنوات علي هذه الذكري التي جمعتني بك ، وعلي النقيض من ذلك ،

أريد أن تنقضي الأشهر الجديدة لأعود إلي أغسطس مرة أخري ، لعلي أسترجع لقاءً واحداً مما مضي .
مذ أن قابلتك وكل شيء قد تغير ، أصبحت أري الكون بعينٍ جديدة ، وكأني أتنفس من الهواء نصيبي ونصيب غيري أيضاً .
أشبعتني قلباً وقالباً ، فلم أعرف الحب إلا بك ، ولن أعيشه مع من سواك . . كما وعدتك .
إن أفضل ما سأختتم به الدقائق الأخيرة من عامي هذا ، أن أغمض عيناي وأتذكر كل شيء كان معك . لقائي بك ، ذلك الحدث الذي جعلني أقدر كثيراً أن الصدفة خير من ألف ميعاد ، وأن التضرع لله كان أفضل وسيلة للقائي بك ، فكنت ملاذي وملجأي ونجاتي مما كنت فيه وما كنت عليه . لم أعد أتحدث في مذكراتي عن نفسي فقط ، وإنما عنك أيضاً . .
إن أرقي أمنية سأتمناها في بداية عامي الجديد ،هي أن ألقاك مجدداً ، مازلت أتذكر كلماتك لي . . » فلندع ما يحدث . . يحدث » . .
لا أعلم متى سيكون لقاءنا القادم ، ولكنِ أنتظره . . مازال لديّ ذلك الأمل الذي زرعته بداخلي ، وسأعمل علي إبقاءه حياً مهما كلفني الأمر . .
من لم تعرف للنهار معني بعد رحيلك . .
نهار

كان هذا الخطاب الذي كتبته لتخبئه بين ثيابها بعيداً عن نصار وشره . .

*****

في أحد لقاءاتها بعمران . .
نهار : وماذا أفعل حينما أشتاق لك ولا أجدك ؟! .
عمران : أحضري ورقة وقلماً وأكتبِ ما تودين قوله لي . . أبعثِ لي بخطاب عبر بريد القلوب .
ضحكت نهار قائلة : خطاب عبر بريد القلوب ؟! . . و كيف ذلك؟! .
عمران : أكتبِ الخطاب . . ضعيه في مظروف خاص . . قبليه بشفتيكِ الورديتين . . قربيه من موضع قلبكِ الجميل . . ثم خبئيه . . هكذا سأشعر بكل كلمة كتبتها ونطق بها قلبكِ وقبلتها شفتاكِ .

*****

قامت نهار بتنفيذ ما قاله ثم خبأت الخطاب بين ثيابها . . أغلقت خزانة ملابسها وابتسمت حينما تذكرت عمران يخرج منها في ذلك اليوم . . اشتقت إليك كثيراً يا عمران . . فهل تشتاق إليّ ! .

*****

بحلول النهار . . بدأ أول أيام المعرض في »لندن« . . إنه النهار

الذي تغير فيه كل شيء في حياة عمران في لحظة ما . .
أتت الحشود من كل مكان لرؤية تلك الأعمال الفنية الجميلة . .
لاقت مختلف الأعمال الإشادة من الزوار والإعجاب بها . . خاصة الجزء الخاص بحليم وكذلك عمران . . كانت بداية مبشرة لهما . . استمر المعرض شهراً كاملاً ولاقي نجاحاً باهراً واعترف الجميع ببراعة هذان الفنانان اليافعان وببراعة المنظمة التي شاركا باسمها . . فكانا فخراً لها ولأستاذهما .

*****

جاء اليوم المشئوم الذي أحزن ليلة كثيراً وفاجأ نصار والحسناء وفاجأ كل من سمع بهذا الخبر . . لم تبشر أولي أيام العام الجديد بالخير أبداً فكيف سينتهي يا تُري ؟! . .
طلب » ميخائيل » يد ليلة من نصار . . أرادها زوجة له ! .
بكت الفتاة بكاءً حاراً . . حزنت أمها كثيراً . . شعر » رابح » بالأسى الشديد تجاهها وتجاه هذا المصير الذي لحق بها . . أما نصار فقد شعر بالغيظ والغيرة من عدوه اللدود . . لطالما فاق عناد ليلة كل الحدود . . كانت فتاة جارحة لا يجرؤ أحد علي لمسها حتى . . لم تسمح لأي رجل بالاقتراب منها وهذا ما جعلها غالية جداً مختلفة عن ذويها من الراقصات . . لم يرد نصار أن يحظي بها أي رجل طالما أنه لا يستطيع الحصول عليها . . حتى لو كان فكر في طريق الزواج فما كان نفعه شيء . . سيخسر

وجودها للأبد إذا علمت بالحقيقة التي خبأتها حسناء لسنوات . . فقد كانت حسناء هي الورقة الرابحة التي تمكنه من السيطرة علي هذه الفرس الجامحة . .

ماذا سيفعل مع عدوه ميخائيل الذي لم يستطع تدميره إلي الآن . . ليته لم ينفذ حيلة رجاله الأغبياء التي ستنتزع منه » ليلة » وبكل بساطة ! .

*****

عرف »رابح » أنه قد حان موعد خطته هو وعمران . . حان الوقت لكشف تلك الحقائق للفتاة المسكينة حتى تتخذ قرارها للرحيل عن هذه البلاد الباردة والمؤلمة . . أن ترحل وحدها دون أحد . . فلا تنتظر أمها حتى ! .

استغل رابح سفر نصار للعاصمة لقضاء بعض الأعمال . . جهز لكل شيء مع الحسناء ليخبرا الفتاة بهذه الأسرار التي ستغير مجري حياتها . . استدعاها رابح للجلوس قليلاً مع والدتها بينما كان يراقب هو المكان الذي تعمد إبعاد الرجال عنه لبعض الوقت وإشغالهم بتناول القهوة الساخنة وبعض الحلوى للتدفئة في هذا البرد الشديد .

دخلت الفتاة غرفة أمها لا تعلم ما الذي ينتظرها بالداخل . . نظرت لأمها في حيرة وقلق زاد عليهما الشوق حينما سمعت أمها تناديها » ملاك » . . الشوق لهذا الصوت الحنون . . الشوق لهذا

الاسم الطاهر الذي غاب عن حياتها منذ زمن . .
قالت ليلة في لهفة ودموع : أمي ! . . هل تتحدثين ؟! .
ابتسمت أمها وقالت : نعم يا ملاك . . انتظرت هذا اليوم طويلاً يا عزيزتي .
انهمرت دموع الفتاة وأخذت تقبل يد الحسناء : اشتقت إليكِ كثيراً يا أمي . . اشتقت لصوتك ولاسمي ولكل شيء منكِ .
شعرت الحسناء بالأسى الشديد تجاهها وسالت دموعها هي الأخرى . . إنها تصعب المهمة أكثر حينما تقول » أمي « .
ليلة : ماذا سأفعل يا أمي ؟! . . لا أريد هذا الزواج . . أفضل الموت علي أن أتزوجه .
قالت الحسناء في هدوء : لديّ الحل الذي سيخلصك منه ومن هذه البلاد يا عزيزتي . . شاء الله أن يحرمني من صوتي حتى لا أخبركِ بشيء . . وحينما عاد صوتي إليّ ادعيت السكوت حفاظاً علي روح » عمران « . .
انتبهت ليلة حينما قالت اسم حبيبها . . عمران ! . . ما دخل عمران ؟! . . هل كنتِ تتحدثين قبل اليوم ؟! .
حسناء : نعم . . ولكن سكوتي كان خيراً لكِ وله حينها .
قالت ليلة في اندهاش شديد : ولكن لماذا ؟! . . لا أفهم شيئاً ! . . ماذا أخفيتِ عني ؟! .
قالت حسناء والدمع ينهمر كالمطر من عينيها : أنني لست أمكِ!

صُدِمت الفتاة لما سمعت وكأنما أصابها برق لبنان ورعده . . ففقدت النطق وأخذت تستمع لما تقوله الحسناء فقط .

*****

ما حدث في (الرابع والعشرون من أغسطس)

رحل عاصم أو » رابح « الاسم الجديد الذي لم يعرفه عمران بعد . . أستند عمران إلي الشجرة ينظر للمظروف . . في البداية اعتقد أنه من نهار . . لكن تبين عكس ذلك حينما فتحه وبدأ في قراءته . . قراءة صامتة . . وكأن حسناء التي لم يعرف صوتها أبداً هي التي تسرد له ما في الخطاب .

» إلي ذلك الغريب الذي هبط علي لبنان ليغير قدر ابنتي المسكينة إلي الأبد . .

أكتب إليك هذا الخطاب يا بني كاشفة فيه لكل الحقائق التي أخفاها عنكم غياب صوتي لسنوات . . إنك تذكرني به كثيراً . . من جعل الله صدفة لقاءنا قصة لن ينساها الزمان . . الشيخ أمين رحمه الله . . الأخ الأكبر لحامل هذا الخطاب . . إنه رابح وليس عاصم كما تعرف . . ذلك الفتي الذي جاء طمعاً في أخذ ثأر أخيه من قاتله . . «

» أعلم أنك تتساءل الآن كيف كتبت هذه الرسالة ! . . إنه رابح الذي كتبها لك بعد أن أمليتها له . . نعم قد خرج صوتي للفضاء

أخيراً . . ولكن ذلك الفضاء لا يتعدي الخطوة والنصف من هذا الفراش اللعين . . ولا يعرف عنه أحداً ولا عما سأسرد عليك الآن سوي أنت و كاتب هذا الخطاب . . »

» بعد أن تزوجت من » خالد » زوجي وحبيبي الأول . . انتقلت للعيش معه بعيداً عن أهله وأهلي . . كان زواجنا تحدياً كبيراً لمن حولنا . . مرّت الشهور الهنيئة علي هذا الزواج وعلمنا أن الله سيرزقنا بطفل عما قريب . . فرحنا كثيراً وتأملنا أكثر . . عملنا بجد واجتهاد لتوفير كل ما سيلزم الطفل . . لكن أصابني الله بشيء لم يكن في حسباننا أبداً . . ذلك الحادث الذي خسرت فيه طفلي وخسرت معه كل شيء حينما وقعت وقعة مميتة من علي الدرج . . كان عليّ استئصال الرحم . . لن أكون أماً أبداً . . هذا ما قاله الأطباء حينها . . ويا ليتني مِتُ قبل حدوث كل ما حدث . . لكن بقائي كان لاكتمال معاناة هذه الفتاة المسكينة . . استدان زوجي خالد كثيراً حتى يتمكن من إنقاذي ومن دفع نفقات العملية . . وتم الأمر . . مّرت شهور أصعب مما قبلها بكثير . . حتى قررنا تبني طفل واحتضانه . . ذهبنا لأحد الملاجئ فوجدناها . . نجت من حادث سيارة تحطم فيه والديها فور عودتهما إلي منزلهما بعد ولادتها بساعات قليلة . . لك أن تتخيل أنه لم ينجُ إلا هذه الطفلة عاثرة الحظ . . ».

» لم يكن هناك أحد لأخذها ولا عرف عنها أي إنسان كأنها

خسرت كل ما كان لها مع حطام السيارة . . احتضنتها كأنها ابنتي وجزء مني . . تعلق خالد بها كثيراً . . عمل بجد لتسديد ما استدان . . حتى وافته المنية أثر حادث أليم أثناء عودته من عمله ليلاً . . ولا شك أن ملاك قد أخبرتك بما حدث بعدها . . ما تعرفه هي فقط . . »

« إذاً يا عمران . . إنها ليست ابنتي . . إنه السلاح الذي كان يهددني به بأن يخبرها فتتركني . . وبعد ما حدث لي كان مطمئناً له أني لن أخبرها . . بل أصبح من مصلحته ألا تعرف فتذهب وأبقي أنا معه بلا فائدة . . فلا حاجة لي عندها إذا علمت أني لست أمها . . وإذا علمت أنه يحل لها فستقتل نفسها قبل أن يفعل ويأخذها له . . ذلك اليوم قد أخفي كل شيء . . يوم مقتل أمين علي يد نصار . . من جراء حزني الشديد عليه وشكي في تورط نصار بالأمر . . »

« أخذ يضربني بكل قوته حتى وقعت علي ظهري فشُلت قدماي . . وامتنعت عن الكلام من أثر الصدمة . . حينها كانت ابنتي في الرابعة عشرة من عمرها . . امتنعت عن الذهاب للمدرسة حتى تقوم بخدمتي فكانت تخاف عليّ منه . . كبرت وأصبحت فتاة جميلة في أعين ذلك الذئب فقرر الاستفادة منها وعملت في المقهى رغماً عنها . . كان دائماً يهددها بي . . لا تعرف أني كنت السبب في كل معاناتها منذ ذهبت للملجأ وأخذتها من هناك . »

»رأيته يضربها بشدة ولم أستطع أن أفعل لها شيئاً . . صراخها جعلني أصرخ في نفسي وفي كهوفي الداخلية حتى خرج صوتي من جديد حينما وقعت علي الأرض . . اكتشفت ذلك لكن لم أخبر أحداً . . لو عرف نصار بذلك سيقتلني لأني أعرف عنه كل أسراره ولديّ سر كبير سيخلص ابنتي من قيده . . لا أريده أن يقتلني قبل أن أخلصها من عذابها . . »

»سأخبرها بكل شيء فور رحيلك . . سأجعلها تتخلي عن هذه الأم المزيفة التي جلبت لها كل آلام العالم وتأتِ إلي بلادك يا عمران . . فقط ارحل من هنا بسلام وأعدك أن هذا سيحدث في وقته المناسب . . فلا نضر أهل البلدة . . ولا نخسر أميناً آخر . . يكفينا ما خسرنا يا بني . . »

»وأختتم خطابي الطويل هذا بكلماتِ أرجو أن تتذكرها دائماً . . » أرجوك ألا تؤذي حامل خطابي ولا يعرف عنه أحداً غيرك . . لا أريد أن يكتشف أمر هذا الصبي . . فقط إن كنت تريد لابنتي أن تعود إلي موطنها . . أن تأتِ إليك . . احتفظ بهذا السر الذي أخفيته أنا منذ أن حملت » ملاك » بين يدي . . وقد أخرجته الآن لك ولرابح . . فقط ارحل بسلام الآمنين . . وسيعود كل شيء لمجراه . . إن شاء الله يا بني » . . حسناء . .

*****

بدت الصدمة علي الفتاة التي لم تعد تعلم بهويتها الحقيقية . .

لم تتفوه بأي كلمة . . قلقت عليها حسناء كثيراً وانهمر دمعها فور رؤيتها هكذا . . ذهبت الفتاة إلي غرفتها . . نظر إليها رابح ونظرت إليه . . حتى أنت لست بهويتك الأصلية . . نظر رابح إلي الحسناء فطلبت منه أن يدعها وشأنها حتى تهدأ . . إنها بحاجة للجلوس مع نفسها في هدوء تام . . كنت أظن أني أزف إليكِ أخباراً سعيدة يا ابنتي . . ولكن هيهات بينك وبين السعادة أيتها المسكينة .

نظرت ليلة إلي نافذتها . . أمسكت بالقضبان وبكت . . بكت كثيراً . . صرخت بشدة فدوي صوتها بين الثلوج المتساقطة من أغصان الشجر . . من أنا يا الله ؟! . . ما هي هويتي ؟! . . من الذي لم يخدعني بعد ؟! . . من الذي لم يستغلني بعد ؟! . . هل أنا ليلة أم ملاك أم نهار ؟! . . ثم صرخت بأعلى صوتها باسمه . . عمران . . عمران . . أين أنت ؟! . .

*****

جرت الأمور علي خير ما يرام مع الشابين الموهوبين في سفرهما . . نال المعرض حفاوة وتقدير افتخر بهما الشابين كثيراً في ذلك المهرجان . . عرض المشتركين أعمالهم . . من بين المصورين المبدعين برز حليم بأعماله المميزة التي انتقاها بعناية فائقة . . ومن بين الرسامين الموهوبين برع عمران في معجزته . . لوحاته عن » نهار» . .

*****

مرّت الأيام علي الفتاة تنظر للنافذة فحسب . . ذَبُلَ لونها وضعفت . . حزنت حسناء كثيراً لما أصاب الفتاة . . طلبت من رابح أن يدعوها لغرفتها فلم تجبه . . لأول مرة طلبت حسناء من الصبي أن يحضر لها ذلك الكرسي المتحرك الذي جلبه لها نصار منذ سنوات وكأنه تكفيراً عن ذنبه لما فعله بها . . كأنه يهتم للتكفير من الأساس . . لم يحدث أبداً أن جلست فيه حتى لا تري وجهه ثانية . . حتى لا ينتصر علي كبرياءها . . لكن ربما قد جاء وقته الآن . . لابد أن تفعل أي شيء لإنقاذ هذه الفتاة . ساعدها الصبي في الجلوس علي الكرسي المتحرك . . قام بتأمين البيت وذهب بها إلي غرفة ليلة . . رأتها ليلة فاندهشت . . إنه الكرسي الذي تكرهه ! . . تجلس فيه الآن ! . .

قالت حسناء في استعطاف : أرجوكِ يا ابنتي لا تفعلي هذا بنفسكِ . . لم أخبركِ بهذه الحقيقة إلا لتهربي من هنا . . لم يعد لديكِ سبباً في البقاء الآن . . لا حاجة لنصار بامرأة قعيدة مثلي . . اهربي من هنا بعيداً عن نصار وميخائيل . . لا تتزوجيه حتى تتخلصي من نصار فتجدين نفسكِ محاطة بنصار آخر في مثل سنه وشره . . ارحلي يا ملاك . . لم أعد باقية علي الدنيا ولا أرغب بها أبداً . .

قالت الفتاة بسخرية : ملاك ؟! . . أم ليلة ؟! . . أم نهار ؟! .

استقبلت حسناء سخرية الفتاة فهذا ما كانت تتوقعه ثم قالت بكل هدوء وكأن معها الحل الذي سيخلصها من كل هذا العذاب : اذهبي إلي عمران . . إنه علي أمل بلقائكِ يا عزيزتي .
ابتسمت الفتاة بسخرية أكبر بعد مخاصمتها للابتسام منذ رحيل غريبها : عمران ! . . وأين عمران ؟! . . لقد ضاع مني كما ضاع كل شيء .
قالت حسناء : لا لم يضع يا ملاك . . إنه هنا . . ثم أعطتها خطاب من عمران .

*****

ما حدث في (الخامس والعشرون من أغسطس)

رحل الحقير عن الغرفة المظلمة . . وضع عاصم الطعام علي الكرسي ثم أخذ يناوله وهو واقف في مكانه حتى يتمكن من الهمس في أذنه دون أن يسمعه أحد .
قال عاصم في همس شديد : ما الذي أتي بك إلي هنا ؟! . . ألم تقرأ الخطاب ؟! .
بادله عمران بالهمس أيضاً : قرأته . . جئت لأمر آخر . . استمع إليّ جيداً .
جئت أودع نهار وأعطيها خطاباً . . لم أكن أعلم كيف سألتقي بك لأعطيك إياه .

عاصم : من نهار ؟! .
عمران : أقصد ليلة . . ليلة .
عاصم : أين هو ؟! .
عمران : مخبأ في طرف جوربي الأيسر . . لا تعطيه لها الآن . . لابد أن تعرف الحقيقة من والدتها أولاً أقصد من حسناء . . أبقيه مع حسناء وأخبرها بذلك . . كتبت فيه العنوان الذي ستنتظرني فيه نهار ووالداتها . . ولكن ماذا ستفعل أنت مع نصار ؟! .
عاصم : لا تقلق سأتدبر أمري . . سأخلص الناس من شر هذا الحقير . . سأحرص علي القضاء عليه قبل رحيلهما من هنا حتى لا يتبعهما .
عمران : فكر في حل آخر يا عاصم . . لا تقم بأي فعل يشينك أو يحرم والديك منك .
عاصم : أعرف ما سأفعله جيداً . . سأنتظر فقط الفرصة المناسبة للثأر منه . . لن يمسك أحداً عليّ دليل مثلما لم يمسكوا عليه حتى الآن . . سينتهي كل شيء بسلاسة ورفق . . أعدك بذلك .
انهي عمران وجبته وكذلك حديثه مع عاصم الذي رحل وأغلق الباب خلفه .

*****

رحلت حسناء بكرسيها ومعها رابح قبل أن يكتشف أمرهما أحداً . . تركا الفتاة مع الخطاب الذي كتبه لها عمران ورسم لها فيه

درباً جديداً . . الدرب الذي يستحقه كلاهما .

*****

» عزيزتي نهار . .
» أصبحتِ تعلمين كل شيء الآن . . احترت كثيراً قبل كتابة هذا الخطاب بأي الأسماء أناديكِ . . ولكن أحب الأسماء إليكِ هو أحبها إليّ أيضاً . . نهار . . وما للنهار معني بدونكِ . . أعلم أنها حقيقة مؤلمة . . لكنها بالتأكيد الدليل الأول علي عدم كونكِ »ليلة« . . لطالما أخبرتكِ بذلك . . لا أعلم كم مرّ الآن علي وداعنا لكنه كثير جداً بالنسبة لي . . «
»ملاك . . أتذكرين اليوم الذي أخبرتني فيه بقصة هذا الاسم؟! . . أخفيت عليكِ أمر فردة القرط التي أضعتها . . إنها معي بالتأكيد . . وجدتها فور هرولتكِ من المسجد عندما سمعتِ صوتي أناديكِ أول مرة . . احتفظت بها . . ولا شك أنها مازالت معي وسأنتظركِ حتى تتجمع بأختها ثانية . . في بلادنا . . « .
» أخبرتكِ أنكِ ستعودين لموطنكِ ذات يوم . . أتذكرين ؟! . . لقد حان الوقت للعودة يا نهار . . اشتقت إليكِ كثيراً . . اشتقت لعينيكِ الداكنتين . . أتخيل أني في »لندن« الآن أصنع مستقبلاً جميلاً بفضلكِ أنتي . . بالتأكيد ستعرفين ذلك عندما نلتقي . . أتذكرين اللوحة التي طلبتِ مني رسمها لكِ ؟! . . لا شك أن العالم يجن بها الآن . . فقد جعلتها غلافاً لقصتنا . . ألم أخبركِ

أنني وجدت بداخلي كاتباً أيضاً ؟! . . حسناً لقد أخبرتكِ الآن » .
»أقبلكِ يا كل نهار . . أقبلكِ كما أنتِ وبكل حقائقكِ . . لن يتغير من الأمر شيء . . بل زاد وضوحاً . . فلا تخافي ولا تحزني . . إنني بين يديكِ الآن ولكنكِ لست بين يديّ لأكفكف هذا الدمع الغالي . . لا تؤلميني أكثر وكفكفيه بدلاً مني . . أين تلك المنشفة ؟! . . » . . ابتسمت الفتاة بعد وقوع نظرها علي هذه الجملة وتذكرت كيف كان يقولها حينها فيخجلها . . » أين المنشفة ؟! » . .
»ابتسمي يا عزيزتي . . فما خلق الحزن لهذه الابتسامة أبداً . . والآن ألا أستحق قُبلة فورية لجعلكِ تبتسمين هكذا ؟! . . قبلة عبر بريد القلوب ستفي بالغرض إلي أن نلتقي . . »
» اتركِ كل شيء ورائكِ واستعدي لفتح صفحة جديدة من حياتكِ بعد غلق هذا الخطاب . . إنكِ تستحقين أن تعيشي الحياة كما يليق بكِ . . كملاك طاهر كما حلمتِ وكما كنتِ دوماً . . لا تتركيها يا نهار . . قد تكون نسخة مستقبلية عما كان مخبأ لكِ . . لا ذنب لها إلا أنها أرادت أن تكون أُماً فقط . . وتلك الأمومة لن ولم تكن سهلة عليها يوماً . . وقد دفعت ثمنها غالياً لسنوات فقط لحمايتكِ . . فاصفحِ الصفح الجميل كما قلبكِ الجميل . . اقبليها هي الأخرى . . سأنتظركما بصبر لم يعهده عمران المجنون قبلاً . . ولندع ما يحدث . . يحدث . . »
من كُتِبَ له أعمار جديدة بلقائك . . ولكن كلها معلقة فقط

برؤيتكِ من جديد . . عمران .
استطاع عمران بهذا الخطاب أن يرسم علي شفتيها ابتسامة غابت عنها لأشهر عديدة منذ غاب عن لبنان . . كان مع الخطاب ورقة وفيها عنوان ما . . إنه المكان الذي سيذهبان إليه في الإسكندرية ويسكنان فيه . . وكذلك رقم لشخص ما سيكون في استقبالهما . . أما الباقي اتركيه لرابح . . هذا ما وضحه عمران بجانب هذه التفاصيل .
باتت الفتاة ليلتها تفكر ما الذي ستفعله حتى تخرج من هنا . . طلع الصباح ومعه قرار هام . . ذهبت إلي حسناء وأخبرتها بهذا القرار . . » سأتزوج من ميخائيل « . . صعقت حسناء لما سمعت ولكن الفتاة أكلمت قائلة : » جاء الوقت لنضرب الظالمين بالظالمين « .

*****

حضر نصار من العاصمة وصعق لقرار ليلة . . ماذا ؟! . . ستقبلين بالزواج ؟! .
قالت ليلة تحاول إثارة غيظه : نعم . . سأتزوجه حتى أتخلص منك . . سأبدأ حياة جديدة بعيداً عن وكرك وسجنك . . ولكن أخبره بعمل حفلة خطبة أولاً قبل أي شيء وأني سآخذ أمي معي . . إنه شرطي حتى أوافق كلياً .
لم يدرِ نصار ماذا يفعل في هذه المصيبة . . هل سيخسر كل

شيء؟! . . فأخذ يحدث نفسه كالمجنون مع كأسه وخمره . . ساخراً تارة ومغتاظاً تارة أخري . .
» حفل خطبة لهذا العجوز ! . . ولكن لِمَ السخرية أعلم أنه سيوافق أيضاً . . بل و شرطها الوحيد أن تأخذ أمها معها ! . . هل أخبرها أنها ليست أمها ؟! . . حتماً ستتركها لي وترحل مع عدوي . . كنت أظن أن إبقاء الأمر سراً سيكون لمصلحتي . . ولكن لم يكن . . أنا أحق بها من عدوي . . ولكن لن يتركها لي بعد اليوم وإن عرف الحقيقة . . لن أربح شيئاً من كل هذا . . ماذا ستفعل يا نصار في هذه المصيبة ؟! . . فَكِر . . فَكِر . . » ثم أخذ يخبط الكأس في رأسه وكأنه سيطرح عليه الأفكار في الحال .

حضر »ميخائيل« لبيت نصار يريد أن يعلم قرار الفتاة . . فقابله نصار هذه المرة .
كان ميخائيل رجل في الأربعينات من عمره في نفس سن نصار ولكن أجمل منه . . غلب علي شعره اللونَ الأبيض الذي يوحي بالهيبة والفخامة . . مهندم في ملبسه كثيراً . . كان لبقاً في حديثه أيضاً ويعرف كيف يعامل الفتيات . . لكن شره لم يكن أقل من شر نصار أبداً .
قال نصار بنبرة ساخرة : إنها موافقة . . ولكن سنقيم لكما حفل خطبة أولاً يا ميخائيل بيك .

تعجب ميخائيل من قوله : »حفل خطبة ؟! » . . ثم تنبه لنبرة نصار المستهزئة فقال : » حسناً . . ولِمَ لا ؟! . . وليكن يا نصار» .
اندهش نصار قائلاً : حفل خطبة أيها العجوز ! . . هل ستقبل؟!.
ضحك ميخائيل ساخراً منه : لا تنس أنك في نفس سن هذا العجوز الذي تتحدث عنه .
نصار : ولكنِ لا أقوم بحفل خطبة مثلك .
قال ميخائيل ساخراً : إنك تتمني لو تكن مثلي أو تأخذ ما سآخذ . . كلانا يعلم ذلك جيداً .
فهم نصار ما يرمي إليه عدوه بكلماته وعرف أن محاولة استفزازه لم تفلح فسكت عن الكلام للحظات يفكر . . في النهاية هو لا يعلم إلا أنه زوج أمها ولذلك لا يستطيع الفوز بالفتاة .
قال ميخائيل في نبرة غطرسة : لا أشعر بفرحك يا نصار . . افتعله علي الأقل .
بدا نصار منهزماً حين قال : ستتركني » ليلة » . . لم أكن متوقعاً حدوث ذلك في يوم من الأيام . . إنها مثل ابنتي علي أية حال .
ضحك ميخائيل ضحكة عالية ساخراً من كلماته : ابنتك ؟! . . ألا أعرفك يا نصار كي تقول لي ابنتك ؟! . . بل أعرف سبب حزنك الحقيقي أيضاً .
تنهد نصار قائلاً : أتعلم شيئاً ؟! . . ما يحزنني حقاً أنها وافقت عليك أنت يا ميخائيل .

ميخائيل : إنها ليست لك بأي شكل كان . . تقبل ذلك يا نصار .
حاول نصار المراوغة في هذا الحوار الذي يظهره بالضعيف المنهزم فقال : تعلم أنها ليست كأي فتاة . . كذلك مهرها لن يكون كأي مهر يا ميخائيل .
ميخائيل : وما هو مهرها ؟! .
نصار : نصف ثروتك .
تعجب ميخائيل من رده ثم قال : أتطمع بنصف ثروتي مهراً يا نصار ؟! .
قال نصار في ثقة : إنك من طمع في ثروتي كلها يا ميخائيل . . لنعتبرها صفقة جديدة أربحها أنا هذه المرة . . لطالما ربحت كل الصفقات التي وقفت في وجهها . . الفتاة لك والمهر لي . .

*****

بقلب لم يعد يعرف الثبات منذ ترك وليفه الطائر في بلدة غير بلدته . . فكان مضطراً إلي ذلك حفاظاً علي أرواح الجميع . . لكنه مازال علي أمل منتظراً أن يجمعهما الله من جديد .
عمران : كيف الحال يا رابح ؟! . . طمئني عليها . .
رابح : أخبرتها والدتها بكل شيء وأعطتها الخطاب . . لكن طرأ أمر آخر لم يكن في الحسبان يا عمران . .
بعدما أخبره بما حدث أنهي المكالمة مع عمران في الغابة . . انتبه جيداً من أن أحداً لم يتبعه أو يره ثم عاد إلي بيت نصار . . ولكن

السناجب في كل مكان في هذه الغابة . .

*****

حاول عمران أن يخفي غضبه وقلقه علي فتاته حتى لا يكتشف حليم بأنه مازال متصلاً بلبنان وأخبارها . . ولكن لاشيء ليفعله . . لا يمكنه العودة للبنان لمنع هذا الزواج بل وإن ذهب فسيتمكن نصار من الفتاة مرة أخري لأن عمران هو نقطة ضعفها . . فهل ستنجح الخطة التي اتفق عليها كل من رابح وعمران ؟! . . هل ستتمكن من الهرب من لبنان يا تُري ؟! .

*****

لم تكن الفتاة علي علم بما يحيكه نصار مع ميخائيل بشأن المهر والصفقات . . ولا بما يحيكه نصار لميخائيل أيضاً . . لم يكن يهم معرفة ذلك . . كل ما يهم هو كيف يكون السبيل للذهاب لعمران ؟! .

وافق ميخائيل علي طلب نصار . . الفتاة مقابل نصف الثروة . . تفاجأ نصار من موافقته لكنه كان يعرف أن سحر «ليلة» يستحق أكثر وأكثر . . فكيف لا يوافق علي مهرها ! .

نصار : لقد وافق علي مهرك .

ليلة : عن أي مهر تتحدث ؟! .

نصار : طلبت منه نصف ثروته مهراً لكِ . . ولكنه وافق .

قالت ليلة في غضب : ما لي وما الثروة والمال ؟! . . لا أريد سوي أمي معي وفقط . . هذا هو شرطي الأساسي . .
نصار : أعلم . . المهر لي علي أية حال . . هل أخسركِ وأخسر صفقة كهذه يا ليلة ؟! .
ليلة : ليس شيئاً جديداً عليك . . كل ما ترغب فيه هو المال .
أمسك بها نصار من معصمها وتقرب منها قائلاً : رغبت في شيء آخر غير المال أيضاً . . تعرفينه جيداً أليس كذلك ؟! .
ليلة : ابتعد . . لم يكن هذا الشيء لك يوماً ولن يكون أبداً . .
مثلت أمامه أنها لا تعرف شيئاً جديداً
ترك نصار معصمها قائلاً : ولذلك أعوض نفسي بالمال يا ليلة . . لكنه وافق .
قالت ليلة في محاولة غيظه : نعم وافق . . وسأتزوجه وأرحل عن سجنك للأبد . . أخبره أني أريد رؤيته لتحديد بعض الأشياء المتعلقة بحفل الزفاف . . ثم رحلت عن وجهه وتركته مشتعلاً في مكانه من الغيظ .

*****

مع بداية صباح جديد انطلق أحدهم ليقم بما تخلت عنه الفتاة منذ أغسطس الماضي . . ذهب لمسجد الشيخ أمين ولكن هذه المرة إلي مصلي الرجال .
انتهز رابح فرصة نوم الجميع بعد سهرتهم وسكرتهم الطويلة

فذهب للقاء حمزة . . ولكنه أراد أن يُلقي التحية علي التذكار الذي تركه أخاه وراءه . . المسجد .
قام الصبي بأداء ركعتين في المُصلي داعياً الله فيهما بالرحمة لأخيه الراحل فما كان منه إلا أن أخذه الحنين لذكري أخاه فسال دمعه.

مر حمزة من أمام المسجد عابراً فوجد بابه مفتوحاً فتوجه نحوه ليغلقه . . وجد الصبي رافعاً يده ناحية السماء ويرجو الله في صمت تام . . يرجوه بقلبه وروحه .
انتظر حمزة حتى انتهي الصبي ونهض من مكانه والتفت إليه ماسحاً دمعه . . فوجده واقفاً منتظراً ملاقاته . .
حمزة : تقبل الله منك . . هل أنت من بلدتنا ؟! .
ابتسم رابح ابتسامة خفيفة ثم أجابه : كنت يوماً ما من سكان هذه البلدة . . فهل تقبلونني فيها من جديد ؟! .
دخل الشك والريبة إلي قلب حمزة فاقترب منه قائلاً : وكأن وجهك مألوف لديّ . . من أنت ؟! .
قال رابح في نبرة الحزن : رابح يا شيخ حمزة .
تفاجأ حمزة من قوله وبدت الدهشة علي ملامحه فلم يعد يعرف هل يحتضنه شوقاً وترحيباً أم يختبئ منه خجلاً لما حدث في الماضي .
اقترب حمزة من الصبي وكأنه يريد احتضانه فمد الصبي يده

حتى لامست صدره مانعاً إياه . . » ما جئت لأخذ الأحضان . . وإنما حق أخي أولاً يا شيخ . . هل ستساعدني ؟! » .

*****

طلبت ليلة أن يقام حفل الخطبة في المقهى . . أما حفل الزفاف فيكون في العاصمة بشكل فخم وأبهة كثيرة . . فوافقها أيضاً . . كان يوافق علي كل شيء تطلبه . . ربما هوساً بها . . وربما غيظاً في نصار وانتصاراً عليه .

استغلت الفتاة موافقته الدائمة لها فطلبت منه أيضاً أن يحميها هي وأمها من نصار . . طلبت أن يخرجهما من سجنهما قليلاً . . أن تريا العالم ليس من النوافذ وإنما خارج أسوار نصار ورجاله . . فكان تنفيذ الأمر في الحال .

كان نصار مستغرباً لكل ما يحدث أمامه . . هل هذه ليلة التي أعرفها ؟! . . أصبحت الآن تتشرط وينفذ كل ما تطلبه . . ستتزوج ! . . ماذا فعلت لهذا الخسيس حتى يخضع لها هكذا ويوافقها علي كل شيء ؟! . . وما كان منه إلا أن ينفرد بالزجاجات والكأس . . وكان رابح فرحاً بذلك .

*****

خرجت الفتاة والأم من ذاك السجن . . لأعوام مضت لم ترَ الحسناء زرقة السماء كما رأتها اليوم . . لكن خوفها علي ابنتها

لم يجعلها تستمتع بكل شيء كما كانت تتمني . . كان رابح هو الوحيد الذي لا يفارقهما أبداً من رجال نصار . . لم يكن نصار ليوافق علي هذا الأمر إلا لأن رابح سيبلغه بكل ما يحدث خارجاً . . ولكن هذا ما كان يظنه فقط .

*****

لم يكن ميخائيل ليترك الفتاة تتجول علي راحتها وحدها حتى لا يخسرها للأبد خاصة أن والدتها كانت معها . . بالإضافة لرابح كان متواجداً معهما أيضاً رجلان من رجال ميخائيل يهتمان بالأم وكرسيها المتحرك الذي أصبحت تحبه الآن وتغيظ نصار به أيضاً . . وكأن ميخائيل يمسك الفتاة من قبضتها كما فعل نصار طوال سنوات .
طلبت الفتاة من الرجلين الذهاب لالتقاط بعض الصور مع أمها فأشار رابح لمكان قريب يثق فيه ويمدحه فتوجه الرجلين إليه . . ما كانا يعرفان أن كل شيء قد تم تدبيره مع حمزة .
تمكن حمزة من الحصول علي الصور ثم استعد للخطوة التالية . . تجهيز جوازات السفر للفتاة والأم ورحلتهما استعداداً لتوديع البلاد .

*****

جاء يوم الحفل . . اليوم المنتظر منذ سنوات للفتاة وأمها . . لم

يكن حفل الخطبة فقط بل وحفل توديع لبنان أيضاً . .
تجهز الجميع وتجمعوا في المقهى . . لم يبق في المنزل الآن سوي العروس وأمها ونصار الذي ذهب ليحضرها لعدوه . .
دخل نصار غرفة حسناء فوجد الفتاة عندها . . »هل أنتي جاهزة ؟! » . . قالها وهو مخمور حتى ينسي ما ستفعله بعد قليل . . ولكن خطته التي وضعها لميخائيل مازالت في مرحلة الطهي حتى يأتي حفل الزفاف . .
قالت ليلة في ثقة : نعم . . جاهزة .
نظر إليها نصار في رغبة كبيرة يكاد يستجمع قواه وكلماته من أثر الخمر : إنكِ حقاً جميلة جداً . . يحق لهذا الخسيس أن يخضع لكل طلباتكِ حتى يظفر بكِ . . يا ليلة .
لم يكد ينطق اسمها ويرفع يده ليلمس خصلات شعرها حتى فاجأه رابح بضربة قوية فوق رأسه فسقط أرضاً علي الفور . . ثم أغلق باب الغرفة علي كل من كان موجوداً فيها . . الفتاة والأم ورابح . . ونصار المغشي عليه .

*****

قام رابح بخلع قضبان نافذة غرفة الحسناء المثبتة ظاهرياً . .
تلك النافذة التي جهزها من قبل فقط استعداداً لهذه اللحظة بعدما رسم خطته مع الفتاة وأمها ذلك اليوم . . كانت الغرفة بعيدة إلي حد ما عن المقهى و أصواته حِفاظاً علي راحة هذه

المريضة . . وكأن نصار كان يهتم لراحتها . .
كان حمزة منتظراً بين الأشجار إشارة فتح النافذة وإزالة القضبان حتى يقترب منها . . وقف تحت النافذة استعداداً لاستقبال الأم . . رأت الأم من البداية أن إخراجها من النافذة سيكون صعباً عليهم فحاولت عدم الوقوف أمام سعادة الفتاة .
قالت حسناء ودمعها منهمر : اذهبي يا عزيزتي . . لا حاجة لهم بامرأة عاجزة مثلي . . إنهم يريدوكِ أنتِ . . اذهبي إلي عمران

دمعت الفتاة هي الأخرى وللحظة تذكرت شريط حياتها مع الحسناء ثم دوت كلمات عمران في خطابه لها وكأنه قالها بصوته » لا تتركيها يا نهار . . اصفحي الصفح الجميل كما قلبكِ الجميل » . . مسحت دمعها ثم قالت لها : » كان مقدراً لنا العذاب سوياً . . وأعلم أنه مقدر لنا الفرح سوياً أيضاً . . هيا يا أمي » .
كانت فرحة الحسناء بكلمة »أمي» التي سمعتها من جديد من فتاتها كفيلة بعودة الأمل لقلبها من جديد . . وكأنها تمكنت من المشي مرة أخري .
حاول رابح حمل الأم حتى يتمكن حمزة من أخذها من النافذة . . لم تكن حسناء ثقيلة لهذه الدرجة لكن بنية رابح الضعيفة لم تسعفه فوضعها في مكانها ثانية حينما فاجأهم أحد ما يطرق الباب يستعجل العروس . .

اقتربت ليلة من الباب قائلة : بلغهم أني مازلت أجهز . . دقائق معدودة وانتهي .
الرجل : ولكن أين السيد نصار ؟! .
نظرت ليلة علي الأرض حيث موضع نصار قائلة : » لا أعرف . . اذهب وابحث عنه حتى يأتي ويأخذني للعريس » . . ثم أضافت قائلة : » لماذا لا أسمع صوت الموسيقي ؟! . . هل هذا حفل أم مأتم ؟! . . أطلب منهم رفع صوت الموسيقي والعازفين أكثر » .
الرجل : حسناً .
قامت ليلة بمساعدة رابح علي حمل والدتها ورفعها من النافذة حتى تمكنا من تسليمها لحمزة الذي كان أقوي من رابح فاستطاع حملها ومشي بخطي واسعة نحو السيارة .
ساعد رابح الفتاة في الخروج من النافذة فقالت له وهي دامعة : انتبه لنفسك يا رابح . . أهرب يا رابح . . دعك منه واهرب أنت أيضاً .
نظر رابح للفتاة مودعاً بابتسامة صغيرة وكأنه يخبرها بأنه لن يفعل . . » بلغي سلامي لعمران . . صاحبتكما السلامة يا ملاك».

ليلة : سأدعو الله لك دائماً بالخير .
نزلت الفتاة عن النافذة ثم ركضت بفستانها الذي أمسكته بيديها جيداً . . ركضت بلا حذاء متوجهة إلي حيث السيارة التي خبئها

حمزة في الظلام وسبقها إليها حاملاً والدتها بين يديه كالأطفال .
نظر رابح حتى اطمئن عليهم جميعاً وتأكد من تحرك السيارة وأن لا أحد يتبعهم من الرجال . . وضع قضبان النافذة مرة أخري وما كاد يغلق النافذة ويستدير فوجد نصار واقفاً ورائه تماما . .
كان الشر في عينيه كاللهب الخارج من فوهة تنين ثائر قد فقد فرائسه للتو .
استطاع الصبي التحرك بخفة من مكانه وأمسك المطرقة ثانية ثم ضربه بها مرة أخري علي رأسه فسقط أرضاً من جديد . . ما ساعده في ذلك هو فقدان نصار لتوازنه من أثر الضربة الأولي . . كذلك أنه كان مخموراً . . وأيضاً خفته وتحركه في أخذ المطرقة . . وربما السبب الأرجح أن حظ رابح هو الذي أسعفه . .

*****

تنفس رابح الصعداء ثم خرج من الغرفة و أغلقها ليتأكد أن لا أحد بالخارج . . رأي أحد الرجال يأتي نحو الغرفة فقال له : إن العروس ترفض الخروج قبل مجيء السيد نصار لاصطحابها .
الرجل : لكنني بحثت عنه ولم أجده .
رابح : ربما يقف بالخارج مع زجاجة الخمر . . ابحث هناك . . هيا بسرعة .
تأكد الفتي من عدم وجود أحد تماماً ثم فتح باب الغرفة وأخذ يسحب نصار من ذراعيه خارجها . . أغلق الغرفة حتى لا يكتشفوا

عدم وجود العروس . . أكمل سحب نصار إلي حيث مصيره ومثواه الأخير . . القبو . . حيث عرسه إلي جهنم . .

*****

لم يكد حمزة يصدق أن السيارة قد خرجت من هذا الوكر بسلام . . وكذلك الفتاة ووالدتها . . توجه مباشرة إلي مطار طرابلس قبل أن يكتشف أمره أحد . . جلست الفتاة إلي جانب الأم في المقعد الخلفي متخفيين . . كان في السيارة ملابس أعطتها خديجة لأخيها حتى تتخلص الفتاة من فستانها ولا يشك فيها أحد في المطار . . حاول حمزة بكل سرعته طي الطريق قبل معرفة الرجال بأمر هروبهم . . فلم يكن أمامه الوقت ليتوقف في مكان ما حتى تبدل الفتاة ملابسها فاقترح عليها أن تأخذ شال أمها وتعلقه بحيث يخبئ المقعد الخلفي بالكامل فتتمكن من تبديل الفستان دون أن يراها وهو يقود وقد نجح الأمر . .

أرادت الفتاة رمي الفستان ولكن سرعان ما منعها حمزة موضحاً لها أن هذا طريق المطار وإذا وجدوا الفستان هنا خلال بحثهم سيعرفون أنها تركت لبنان بالفعل فامتنعت عن رميه وتركته في السيارة .

*****

» كما تدين تدان » . . إنها الجملة التي ترددت في أذن رابح كثيراً

حينما نظر له مكبل بالسلاسل من أطرافه الأربعة مطأطئ رأسه للأسفل لم يفق بعد من أثر الضرب علي رأسه فسكب عليه وعاء كبير من الماء حتى لا يضيع وقته في غفوته .

كحيوان ينفض الماء عنه تماماً كان نصار . . » كيف حالك يا نصار؟! » هذا أول ما قاله رابح له بعدما استفاق ونفض الماء عن عينيه ليراه .

بنبرة غاضبة جدا قال نصار : ماذا تظن نفسك فاعلاً يا عاصم ؟! .

اقترب منه الصبي وهمس في أذنه كما كان يفعل : » أفعل بك ما فعلته أنت قبلاً يا نصار . . أتحسب نفسك ناجياً بغير حساب؟!».

ضحك نصار ساخراً : ومن أنت كي تحاسبني ؟! . . خادمي الضعيف الهزيل ! .

تحرك الصبي ووقف أمامه مباشرة قائلاً : بل موتك وهلاكك يا نصار . . رابح .

نصار : رابح ؟! .

رابح : ربما لا تذكر اسمي أو ملامحي حتى . . دعني أعرفك بنفسي . . رابح أخو الشيخ أمين .

نصار : الشيخ أمين ؟!

قال رابح في نبرة الانتقام : أمازلت تحت تأثير الخمر أم أن ضربتي قد أفقدتك الذاكرة ؟! . . نعم . . الشيخ أمين الذي فعلت به

منذ عشر سنوات ما سأفعله بك الآن يا نصار . .
سخر منه نصار قائلاً : أنت ؟! . . وهل هذا ما رباك عليه أخوك الشيخ التقي ؟! .
فهم رابح ما يرنو إليه هذا الحقير فقال له : لم يتمكن أخي من إكمال تربيتي بسبب ما فعلته أنت . . أو ربما المدة التي قضيتها في بيتك وفي خدمتك هي ما حرضتني علي ذلك . . في النهاية الخادم يتبع نفس أساليب سيده . .
ضحك نصار ساخراً منه : لم أكن أعلم أن لديك هذا القدر من الشجاعة أبداً . . ولكنك أغبي من أخيك إذ أتيت إلي نهايتك برجليك . . أتحسب أنك ستتمكن من انتقامك ؟! .
ضحك رابح لأول مرة قائلاً : » بل إنك من يحسب أنك ناجي . . عليك تقبل الخسارة اليوم يا نصار فالحياة ليست مكسباً فقط كما اعتدت دائماً ». . ثم أمسك بقارورة البنزين وأخذ يرشه بها ويرش حوله حتى فرغت .
ضحك نصار وكأنه كان مستمتعاً بما يفعله الصبي : لن تقدر علي فعل ذلك صدقني . . خُلِقَ الشر لقلوب لم تكن أنت ولا أخاك منها يوماً . . تذكر أخاك الذي أودي الخير بحياته في نفس المكان . .
أخرج رابح علبة الثقاب من جيبه ثم أمسك بأكثر من عود ثقاب في يده وأشعلهم جميعاً في نفس اللحظة ثم قال مبتسماً : »

كذلك سيفعل بك شرك يا نصار . . سيؤدي بحياتك . . فلنسرع موعدك مع جهنم » . . ثم رمي تلك الشرارة لتقوم بمهمتها .
صرخ نصار من اقتراب اللهب منه حتى يسمعه أحد . . ولكنه القبو حيث لا أحد سيسمع ولا أحد سيري ما يحدث . . طاهي السم لابد وأن يتذوقه . .
رابح : لن يسمعك أحد . . إنها صوت الموسيقي التي كان شرك سبباً فيها أيضاً . . الشر الذي جلبته لبيتك بيدك يا نصار . . لن ينقذك شرك . . لن ينقذك أحد . .
صرخ نصار : إنك لا تفهم ما تفعله . . لم يخلص حسابي مع ميخائيل بعد . . فُكني وسأعطيك نصف ما سآخذه منه . .
ضحك رابح من رجاء نصار له فقال : المال . . ليس كل شيء في الحياة مالاً يا نصار . . ولكن أستمتع بعذابك الآن وأفهم سبب تلذذك بمعاناة كل من حولك من البشر . . لا نجاة لك اليوم . .
تمكن اللهب من جسده وأخذ يلتهم كل ما فعله في حياته . . كل أذي كان سبباً فيه . . أوجعته النار كما أوجع الكثيرين . . بل أشد . . لم ينفعه شره في هذه اللحظة كما قال رابح . . لم ينفعه أحد . .
»ليلة . . ليلة . . ملاك » . . هذا آخر ما نطقه قبل أن ترتفع النار وتخبئ وتحول بينه وبينه . . خرج ووقف خلف باب القبو ينظر نظراته الأخيرة له قبل صعوده . . وكأن رابح يحدثه في نفسه

ومشهد اللهب الذي طال انتظاره له لسنوات ينير عينيه أخيراً . .
»وهل ستنجيك »ليلة« مما أنت فيه ؟! . . إن الخير لا يدافع إلا عن خير مثله . . بل إننا بالخير ندفع الشرور . . أنسيت ما فعلته بتلك المسكينة ؟! . . تذكرت الآن أنها ملاك ؟! . . إنك تنطق بآخر أوجاعك في آخر لحظاتك . . لطالما كانت ليلة هي وجعك الحقيقي . . لكن الوجع لا ينقذ المتسبب فيه يا نصار . . بل يحتاج لمن ينقذه من أمثالك . . إنها حقاً أفضل نهاية تليق بك . . فليلتهم اللهب هذا اللهيب « .

سكت صوت نصار تماماً لكن النار لم تسكت بعد . . خرج من القبو مسرعاً حتى لا ينتبه أحد لغيابه أو لا يكشف الدخان أمره إذا تنبه أحد لذاك الدخان . . ثم تظاهر بأنه يبحث معهم حتى لا يشكون فيه .

*****

وصلت السيارة إلي مطار طرابلس أخيراً . . ساعد حمزة والدة الفتاة وحملها للطائرة بنفسه . . ودعهما وطلب منهما السلام لعمران وحليم . . ثم ودعا سماء لبنان ربما للأبد .
قام حمزة بتبليغ الأستاذ حمدي وكذلك حليم علي الفور . . ومن هنا أطمأن قلب عمران في سفره . . ولكن شغله أمر ذلك الصبي رابح بقي أن يطمئن عليه هو الآخر . . أما حمزة فقد عاد للبلدة

المقلوبة بحثاً عن العروس الهاربة والمرأة القعيدة وكذلك عن نصار الذي لم يكتشفوا أمره بعد . . تمني أن تنطلي علي ميخائيل خدعة أن نصار قد استولي علي أملاكه ثم أخذ الفتاة وزوجته وهرب .

*****

أثناء جلوس ميرفت وحمدي وراغب يشاهدون التلفاز . . قال حمدي لراغب : استعد يا بني سنذهب في الصباح الباكر لاستقبال الفتاة التي حدثنا عنها أخوك عمران من المطار إن شاء الله كما أخبرتك البارحة . .

راغب : حسناً يا أبي إن شاء الله .

قالت ميرفت : عن أي فتاة تتحدث ؟! .

حمدي : تلك الفتاة التي أخبرتكِ عنها أنها آتية من لبنان في خلال يوم أو اثنين . . هل تذكرين؟!

ميرفت : نعم . . تذكرت . . موعدها غداً إذاً ! .

حمدي : نعم إن شاء الله . . لقد تدبرت لها أمر الشقة الخالية في عمارة حياة .

قالت ميرفت في استغراب : لا أعلم ما سر اهتمام عمران ابني بهذه الفتاة ؟! . . كيف عرفها ؟! .

حمدي : قال أنه تعرف عليها خلال رحلته الماضية في لبنان . . أرادت أن تأتي إلي مصر فاقترح عليها أن تزور الإسكندرية . . إنها

لا تعلم شيء هنا .
قالت ميرفت في بعض اللؤم : نعم . . أرجو أن يكون الأمر خيراً .
حمدي : سيكون خيراً إن شاء الله . . لا تقلقي يا عزيزتي .

*****

ذهب حمدي وراغب لاستقبال الفتاة ووالدتها من المطار . . كان حمزة قد أعطاها تليفوناً محمولاً وطلب منها الاتصال برقم ما سجله لها . . احتارت الفتاة بأي الرقمين تتصل . . سجل لها حمزة رقماً وكتب عمران رقماً أيضاً في خطابه لها . . هدأت وذهبت حيرتها حينما تطابق الرقمان تماماً . . إنه رقم الأستاذ حمدي والد عمران . .

*****

تمكنت الفتاة ووالدتها من النزول من الطائرة وصولاً إلي صالات الوصول بمساعدة مضيفتان جميلتان أحضرا لوالدتها كرسياً متحركاً . . اتصلت الفتاة بوالد عمران ووصفت له نفسها ووالدتها فاستطاع إيجادها بعد لحظات لسهولة تعرفه علي الكرسي المتحرك .
قابل كل من راغب وحمدي الفتاة ووالدتها بالترحيب . . لم يكن حمدي مندهشاً من وضع أمها فهو يعرف القصة كاملة من حمزة وعمران . . أما راغب فلم يبدو عليه الاندهاش بنفس قدر الاستغراب الذي سيطر عليه من أمر هاتين الزائرتين . . جاءت

الفتاة وأمها فقط دون حقائب أو أي شيء آخر في بلد غريب بالنسبة لهما ! . .
توجه بهم راغب إلي السيارة ثم حاول حمدي توضيح بعض الأمور للفتاة حتى لا تتعثر في الكلام عندما تقابلها ميرفت . . وكأنه يساعدها في بعض الإجابات حتى تكون علي استعداد لأي تحقيق .
حمدي : أخبرني عمران عنكِ وأنكما تقابلتما في رحلته للبنان مع صديقه حليم . . أليس كذلك ؟!
ترددت ملاك قليلاً ثم قالت : نعم . . تعرفت عليهما هناك .
قال حمدي مازحاً : هل أحببتِ كلامه لكِ عن الإسكندرية إلي الحد الذي يدفعكِ لزيارتها ؟! .
ابتسمت ملاك قائلة : نعم . . أحببتها كثيراً وأردت زيارتها . . شكراً علي استضافتكم .
حمدي : عفواً يا ابنتي . . إننا دائماً في خدمة أصدقاء أبناءنا خاصة لو كانوا من بلاد أخرى مثلكما .
قالت ملاك مبتسمة : شكراً جزيلاً لك .
لاحظ راغب أن لهجتها لا تشبه اللهجة اللبنانية إلا قليلاً فسألها عن الأمر .
ترددت ملاك قليلاً لكنها أجابته : » كنت محاطة بأشخاص مصريين كثيرين في لبنان فتعودت علي اللهجة المصرية مثلهم » . . لم ترد

أن تخبره أنها لا تحب اللهجة اللبنانية ولا ذكرياتها في لبنان فهي ليست بلدها الأم مهما حاولت إقناع نفسها بذلك .
اقتنع راغب إلي حد ما . . وصلت السيارة للشارع المطلوب . .
ساعد راغب المرأة بكرسيها المتحرك صعوداً في المصعد وإلي باب الشقة . . » ستكون هذه شقتكما إن شاء الله وهذا هو مفتاحها . . أرجو أن تعجبكما وألا تترددا في طلب أي شيء تريدونه منا» .
قالت ملاك في خجل : أشكرك كثيراً يا أستاذ حمدي علي كل شيء . . شكراً جزيلاً لمساعدتك يا راغب .
قال راغب مبتسماً : لا شكر علي واجب . . أهلاً بكما مرة أخرى في عروس البحر . . سنترككما الآن لترتاحا من عناء السفر . . إلي اللقاء .

*****

دقت الساعة العاشرة صباحاً حينما عاد حمدي وابنه إلي البيت فاستقبلتهما ميرفت بالأسئلة .
كيف وجدت الفتاة يا حمدي ؟! . . أقصد كيف هي ؟! . . هل أتت وحدها ؟! .
استغرب الرجلان لهذه الكومة من الأسئلة فأجابها حمدي : مهلاً يا ميرفت . . كيف ستكون الفتاة ! . . إنها فتاة . . اسمها ملاك

. . وأتت مع والدتها .
قالت ميرفت في إعجاب بالاسم : ملاك ! . . وهل هي ملاك كما اسمها ؟! .
ضحك راغب قائلاً : ما الأمر يا أمي ؟! . . هل تبحثين عن عروس لعمران ؟! .
ابتسمت ميرفت قائلة : أنا فقط غير مرتاحة لأمر هذه الفتاة . . وما علاقة أخوك بها يا تري ؟! .
ابتسم راغب : حسناً . . اسأليه عندما يأتي من سفره . . سأذهب لأرتاح قليلاً .
ميرفت : إذاً يا حمدي كيف هي والدتها ؟! .
حمدي : إنها امرأة مسكينة يا عزيزتي . . تجلس علي كرسي متحرك .
شعرت ميرفت بالأسى تجاهها : لا حول ولا قوة إلا بالله . . شفاها الله وعافاها . . يجب أن أزورها إذاً .
حمدي : ليس اليوم يا عزيزتي . . دعيهما يرتاحان من عناء السفر.
ميرفت : حسناً . . سآخذ صفاء ونذهب لزيارتها غداً .
حمدي : حسناً يا عزيزتي كما تريدين .

*****

تفحصت الشقة جيداً . . شعرت بكم غير عادي من السعادة

والرضا . . لأول مرة تشعر بالأمان داخل أربعة جدران . . أخيراً قد ابتسم لها قدرها . . الحمد والشكر لك يا الله .

*****

كاد عمران يطير فرحاً حينما وصلت الفتاة لبر الأمان أخيراً . . إنها بعيدة الآن كل البعد عن لبنان وشر من فيها . . ولكن لم يصله أي اتصال من رابح بعد ولا يعرف ما الذي حدث معه . . لم يكن أحداً علي علم بأن عمران ورابح علي اتصال طوال هذه المدة . . « أتمني أن تكون قد ربحت يا رابح » . . هذا ما قاله في نفسه .

*****

(ما حدث في الليلة الماضية في لبنان)
صعد رابح من القبو دون أن يراه أحد ثم دخل غرفة الحسناء التي أغلقها بالمفتاح و فتح النافذة ووضع قضبانها جانباً ثم أغلق الباب مرة أخري بالمفتاح وخبأه جيداً .
تظاهر بالبحث مع الرجال بل وطلب منهم أن يساعدوه في كسر باب الغرفة لمعرفة ما يجري بداخلها فتفاجئوا بعدم وجود أحد فيها وكذلك أمر النافذة .
أخبر الرجال «ميخائيل» علي الفور وحضر للغرفة وتفقدها . . حينها انطلت عليه خدعة حمزة تماماً بأن نصار قد خدعه وهرب مع نصف ثروته وزوجته وفتاتها فأخذ يبحث عنهم كالمجنون

الذي يبحث عن عقله .

*****

عاد حمزة لبيته سالماً دون أن يشعر أحداً بأنه قد فعل شيئاً . . طمأن خديجة وزوجته فارتاح بالهما ثم أبلغ الأخبار السارة للأستاذ حمدي وحليم ثم تنفس الصعداء ودعي ربه أن يكون ما فعله يجعل صديقه الراحل وعائلته يصفحون عنه الآن .

طلع الصباح وقد أحاط ميخائيل بيت نصار والغابة بعدد كبير من رجاله . . بل أرسل عدد لا يقل عن هذا العدد للبحث عنهم في كل مكان في البلدة . . لم يكن يعلم بأن طائرة العروس قد حطت علي أرض مصرية تستعد لبداية جديدة . .

لم يرد أن يبلغ الشرطة لمساعدته فتتبع خطاه بعد ذلك ويفتح علي نفسه أبواب جهنم التي استعد لفتحها علي نصار وعائلته من الآن . . لكنه سيجد كل شيء بنفسه .

*****

لم تستطع الفتاة ولا والدتها النوم من شدة فرحهما بمسكنهما الجديد وحياتهما التي تبدلت بين ليلة وضحاها . . أخذت الفتاة تتجول في الشقة وتتفقدها مع والدتها بكرسيها حتى أنها كانت تدور بالكرسي في أرجاء الشقة من شدة السعادة فتعلو ضحكات أمها التي لم تسمعها منذ سنوات . . كانت كلما ضحكت والدتها

كلما ضحكت الفتاة وأخذت تدور بها أكثر وأكثر ولم ينقذها من ذلك إلا أن أخبرتها حسناء أنها أصيبت بالدوار فأخذتها الفتاة إلي المطبخ لعمل شيء يأكلانه . . فوجدت كل ما لذ وطاب من الفاكهة والطعام الذي جهزه لهما الأستاذ حمدي في الثلاجة قبل إحضارهما فشكرت هذه النعمة ودعت الله لذلك الأب الحنون الطيب .

*****

مع مجيء الغروب كان الرجال قد طووا البلدة والغابات بحثاً عن العائلة الهاربة فلم يجدوا لها آثراً . . لم يفقد »ميخائيل« الأمل في إيجادهم ولكن وجب حضوره للعاصمة فقرر الذهاب وترك بعض رجاله يحاصرون بيت نصار والمقهى والمنطقة المجاورة وكأنه قد استولي عليها بكل ما فيها . . ضم رجال نصار إلي رجاله وكذلك رابح فأصبحوا جميعهم من أتباعه المخلصين بمجرد إغرائهم بالمال ولكنه سيتركهم في أماكنهم للإبلاغ عن نصار فور إيجاده .

*****

اطمأنت ملاك علي والدتها في سريرها الجديد . . ذلك السرير الذي نعم فيه جسدها لأول مرة بعد سنوات بالراحة والأمان في مكان خالي من نصار وشره فارتاحت روحها فيه وذهبت في النوم الهنيء سريعاً .

راقبت الفتاة والدتها جيداً وشعرت براحتها التي بدت علي وجهها لأول مرة وهي تغط في نوم عميق ليس بسبب عناء السفر ورحلة الهروب وإنما نوم من شدة الفرح .
نامت معها في نفس الغرفة في سرير مجاور لسريرها وسرحت في السقف تتأمله وتفكر في فارسها الذي وعدها أنها ستعود إلي موطنها يوماً ما وسيكون لقاءهما من جديد . . ها هي عادت . . فمتى يكون اللقاء يا عمران ؟! .

*****

نام ليلته مرتاحاً هو الآخر في بلد يعم الآن بالشر . . ولكن لا يهم إذا كان قلبه آمناً وكفّر عن ذنبه لصديقه الراحل غير نادم علي مساعدته للفتاة المسكينة وأمها . . غير نادم علي مساعدة ذلك الصبي لربح انتقامه دون خسارة تذكر . . سيغمض عيناه بسلام قد غاب عنه لسنوات .

*****

في الغرفة المجاورة كانت الفتاة الأكثر جمالاً وشجاعة في لبنان . . تسرح في الليل وسكونه . . فتاة الجبال خديجة . . كانت فرحة لتلك الفتاة التي عادت إلي بلادها أخيراً وعلي موعد قريب مع السعادة بمجرد حضور فارسها إليها فتسلم الراية لخديجة لتلقي سعادتها هي الأخرى بعودة حليم إلي لبنان .

*****

بعد تأكد رابح من رحيل »ميخائيل» إلي العاصمة . . حاول انتهاز أي فرصة للابتعاد عن الرجال ليخبر عمران بما جري في هذا البيت المشئوم حتى سنحت له الفرصة أخيراً فبعث له برسالة عوضاً عن المكالمة . .

»تم إرسال الطرد إلي جهنم لتكمل مهمتها معه يا صديقي . . لا تقلق قد عادت سماء قريتنا إلي سابق عهدها » . .

*****

طار عمران فرحاً بمجرد أن وصلته هذه الرسالة وكأنه تنفس الصعداء الآن . . انتهي أمر نصار الآن ولن يطارد فتاته بعد اليوم . . فبعث له برسالة هو الآخر » كان الله في عون جهنم يا صديقي . . لا تقطع عني أخبار الصبي ومقهاه » . .

ابتسم رابح بعد قراءته لهذه الرسالة فقد فهم أن عمران يريد أن يطمئن عليه من حين لآخر ولكنه خائف من أن يكشف أمره للرجال فسيبعث له أخباره حين تسنح له الفرصة . . مسح الرسائل وعاد إلي حيث تجمع الرجال .

*****

بعد قضاء صلاة الظهر استعدت ميرفت للذهاب لصفاء وأخذها لزيارة الضيفة الجديدة . . كانت شقتها في نفس العمارة التي

فيها شقة صفاء وابنتها لكن تعلوها بطابق .
طرقت ميرفت الباب ففتحت لها حياة واستقبلتها مرحبة . . « أهلاً بكِ يا خالتي . . تفضلي بالدخول . . كيف حالكِ ؟! » .
ميرفت : بخير يا عزيزتي . . هل عدتِ من الجامعة مبكراً اليوم؟!.
حياة : لا لم أذهب اليوم يا خالتي . . إن أمي مريضة قليلاً . . لذلك اعتذرت و لم أذهب .
ميرفت : مريضة ؟! . . ماذا بها ؟! .
حياة : بعض البرد والوعكة الصحية يا خالتي .
ميرفت : شفاها الله وعافاها يا عزيزتي . . هل هي مستيقظة ؟! . . أريد الاطمئنان عليها .
حياة : بالطبع يا خالتي . . ولكن أخشي أن تصيبكِ العدوى منها عافاكِ الله . . مازلتِ في مرحلة العلاج أيضاً .
ابتسمت ميرفت قائلاً : حبيبتي . . بارك الله فيكِ يا عزيزتي حياة . . حسناً اتركيها ترتاح اليوم وسأزورها غداً .
ابتسمت حياة : حسناً يا خالتي كما تريدين .
ميرفت : هل علمتِ بأمر الفتاة اللبنانية التي انتقلت البارحة إلي هنا مع والدتها ؟! .
حياة : نعم . . حكي راغب لي عنها قليلاً . . هل هي صديقة عمران حقاً ؟! .
قالت ميرفت في بعض الخبث : لا أعلم إن كانت صديقته فقط

أم هناك شيء آخر .
ابتسمت حياة قائلة : وماذا سيكون يا خالتي ؟! .
ابتسمت ميرفت : ماذا سيكون يا خالتي ؟! . . ألا تعرفين ما هو أيتها الماكرة . . إن أبنائي يفاجئونني دائماً . . أشعر أن عمران سيفاجئني بهذه الفتاة ذات يوم .
ضحكت حياة قائلة : عسي لا يأتِ لنا إلا الخير يا خالتي . . الله يرده لنا بالسلامة أولاً .
ميرفت : آمين يا عزيزتي . . آمين . . سأرحل الآن . . ربما أذهب لرؤيتها . . في الحقيقة لا أطيق صبراً .
ضحكت حياة : حسناً يا خالتي . . تفضلي .

*****

صعدت ميرفت إلي الطابق العلوي بالمصعد ودقت الباب ففتحت لها الفتاة .
فتاة جميلة في مثل عمر حياة تقريباً ذات شعر كسواد الليل لامع كثيف وطويل . . تبدو علي ملامحها الهدوء والبِشر . . » ما شاء الله . . هل أنتِ ملاك ؟! » . . هذا ما قالته ميرفت في إعجاب شديد قد اتضح من نظراتها للفتاة .
أجابت ملاك في خجل : نعم أنا ملاك . . كيف أخدمكِ يا سيدتي؟!.
قالت ميرفت متعجبة : سيدتي ؟! . . لا . . لا . . ناديني خالتي . .
ابتسمت الفتاة : نعم يا خالتي . . اعذريني لأنني لا أعرف أحداً

هنا . . كيف أخدمكِ ؟! .
ابتسمت ميرفت لأدب الفتاة وخجلها وقالت : حسناً أنا خالتكِ ميرفت . . والدة عمران .
بدا الفرح الزائد علي ملامح ملاك . . ثم أسرعت بالإشارة لها بالدخول حتى أن ميرفت قد لاحظت ذلك وأعجبت به أيضاً . .
» تفضلي يا خالتي . . تفضلي «. .
» عذراً منكِ فلم أكن أعرفكِ . . تعلمين أني جديدة هنا ولم أقابل أحداً سوي الأستاذ حمدي و كذلك راغب « .
ابتسمت ميرفت قائلة : لا عليكِ يا عزيزتي . . تبدين كالملاك كما اسمكِ بالضبط . . ما شاء الله علي هذا الأدب والذوق . .
قالت ملاك في خجل متلاعبة في أصابعها : شكراً لكِ يا خالتي . . هذا بعض مما عندكم . . في الحقيقة شكراً لكم علي استضافتنا هنا وشكراً أيضاً لحسن مقابلة الأستاذ حمدي وراغب لنا .
أظهرت ميرفت بعض التواضع والابتسام قائلة : هذا واجبنا يا عزيزتي . . يبدو أنكِ غالية كثيراً علي ابني عمران حتى يوصينا جميعاً بكِ .
أحمرت الفتاة خجلاً ولم تعرف كيف ترد عليها . . لاحظت ميرفت ذلك وقطعت ذلك الخجل سريعاً بأن قالت : أين والدتكِ ؟! . . أريد أن أسلم عليها .
ترددت ملاك قليلاً ولكنها قالت : في الحقيقة إن لأمي ظروفها

الخاصة . . إنها لا تتحرك إلا بكرسيها المتحرك . . هلا أذنتِ لي بأن أحضرها من غرفتها . . سأتأخر لبعض الدقائق فقط .
شعرت ميرفت بالأسى تجاه المرأة وشعرت بالإحراج أيضاً لهذا السؤال قائلة : لا يا عزيزتي . . لا عليكِ . . لم أقصد اعذريني . . دعيها ترتاح لا أريد أن أتعبها .
ملاك : لا أبداً يا خالتي . . إنها بالتأكيد تريد أن تتعرف عليكِ أيضاً . . سآتي بعد دقائق قليلة .
شعرت ميرفت بالإحراج وندمت في نفسها أنها طلبت من الفتاة ذلك . . ولكنها انتظرت قدوم الجارة الجديدة بفارغ الصبر .
دقائق قليلة ثم أتت الفتاة تدفع الكرسي المتحرك الخاص بوالدتها . . كانت والدتها جميلة مثلها لكنها لا تشبهها كثيراً . . استقبلتها حسناء بترحيب واضح وابتسامة بشوشة .
قابلتها ميرفت بالابتسامة : أهلاً بكِ . . عذراً منكِ إذا أتعبتكِ أو أزعجتكِ . . أردت فقط أن أسلم عليكِ . .
ابتسمت حسناء قائلة : لا أبداً . . إنه لشرف لي أن أقابلكِ . . سعدت بلقائك كثيراً .
ذهبت ملاك لإحضار شيء ما للضيافة . . تحاول أن تخبئ فرحها الزائد عن الحد لكنها لا تستطيع ذلك .
ميرفت : وأنا أيضاً . . شكراً لكِ . . ولكن هل لي بأن أسألكِ سؤالاً إذا لم يضايقكِ الأمر ؟! .

حسناء : بالتأكيد تفضلي .
ميرفت : ما سبب هذا ؟! .
شعرت حسناء بالخجل قليلاً : في الحقيقة تعرضت لحادث قديم منذ سنوات .
ميرفت : أنا آسفة لذلك . . اعذري فضولي .
حسناء : لا عليكِ . . لا شيء .
ميرفت : إنه أمر غريب حقاً . . تشبهين جارتي كثيراً . .
حسناء : حقاً . . حسناً دعيها تأتِ معكِ في المرة القادمة . . سأسعد بالتعرف عليها .
جاءت ملاك ببعض الحلوى التي جهزها الأستاذ حمدي في الثلاجة
ميرفت : كانت ستأتي معي لكنها مريضة اليوم . . سآتي بها في يوم آخر إن شاء الله . . شكراً لكِ علي الحلوى يا عزيزتي .
حسناء : إن شاء الله . . سأنتظركما . . كيف حال عمران ؟! .
قالت ميرفت وهي تنظر للفتاة مبتسمة كأن في نفسها شيء : « إنه بخير . . سيأتي في أول الشهر القادم إن شاء الله . . شهر مارس » . . فلاحظت ابتسام الفتاة كثيراً وإنارة وجهها أكثر . . علمت حينها أن ما بينهما أكثر من صداقة بالتأكيد . . إنها إنارة العيون التي تفضح الحب .
ميرفت : استأذنكما بالرحيل . . لا أريد أن أطيل عليكما . .
ملاك : لا يا خالتي أبداً . . بل سررنا بالتعرف إليكِ ونتمنى أن

تأتي دائماً . . تعرفين أن لا أحد لنا هنا بعد .
ابتسمت ميرفت قائلة : شكراً لكِ يا عزيزتي . . سآتي إن شاء الله مع جارتي حين تتحسن صحتها . . أنا جارتكما هنا في العمارة المقابلة لا تترددا إن احتجتما لأي شيء يا أم ملاك . . عذراً ما اسمكِ ؟! .
حسناء : حسناء . . اسمي حسناء .
ابتسمت ميرفت قائلة : ما شاء الله . . أسمائكما جميلة مثلكما تماماً . . إلي اللقاء .

*****

عادت الفتاة إلي والدتها قائلة : أمي . . لقد تخلصت من اسم » ليلة » بمجرد أن أتيت إلي هنا . . فلماذا لا تعودين لاسمك الحقيقي أنتِ أيضاً وتتركي اسم » حسناء » ؟! .
قالت حسناء في بعض الحيرة : لا أعلم يا ملاك . . لقد نطقته سريعاً بما أني معتادة عليه . . ربما أشعر ببعض الخوف ولا أعلم سببه .
قالت الفتاة مداعبة أمها : أم لأنه يليق بكِ كثيراً .
ضحك كل منهما ثم قالت الأم : هيا نأكل شيئاً . . أشعر بالجوع .

*****

فتح حمدي الباب لزوجته المنطلقة : ألم أقل لك أنه شيء أكبر من

الصداقة ! .
حمدي متعجباً : تمهلي يا عزيزتي . . ماذا تقصدين ؟! .
جلست ميرفت علي الأريكة قائلة : أقصد الفتاة . . أحسست ذلك في عينيها وابتسامتها وكل شيء بمجرد أن ذكرت اسم ابني عمران .
ارتبك حمدي لأنه يعرف القصة كاملة : حسناً . . سنعرف كل شيء عندما يأتِ عمران .
ميرفت في ابتسامة : لكن أتعلم شيئاً . . اسمها ملاك وهي ملاك بحق . . ما شاء الله .
ابتسم حمدي لسماعه ذلك وتمني لو أن عمران سمعه أيضاً .

*****

انقضي يوم آخر علي الفتاة ووالدتها في بيتهما الجديد . . احتاجت بعض الخضراوات فشعرت بالحرج لسؤال أبو عمران . . فقد جهز لهم الشقة والطعام وجلب بعض الملابس أيضاً عندما تبين له أنهما أتيا فارغا اليدين تماماً . . فجربت النزول لشراء بعض الخضار بنفسها وتفقد المكان حول مسكنها الجديد .
ارتدت نفس الملابس التي أتت بها في المطار . . ملابس خديجة التي كانت مناسبة للهرب والسفر أيضاً . . وضعت الطرحة علي رأسها فلم تكن تغطي الكثير من شعرها . . كان السوق في شارع جانبي بجوار شارعها الجديد فجلبت الخضار ومشت . . لكنها

احتارت أي عمارة هي عمارتها في مفترق طرق .
لحسن حظها أن «حياة» كانت آتية من الجامعة ورأتها واقفة بلا حراك تفكر فعرضت عليها المساعدة . .
حياة : مرحباً . . هل تحتاجين مساعدة ؟! .
ملاك : في الحقيقة قد ضللت عن مدخل عمارتي فأنا ساكنة جديدة هنا .
حياة : هل تعرفين رقم العمارة ؟! .
ملاك : لا . . لقد انتقلت إلي هنا حديثاً وهذه أول مرة أنزل فيها إلي الشارع .
حياة : حسناً هل تعرفين أحد ما يسكن في هذا الحي . . اسم أو رقم أي شخص ؟! .
ملاك : نعم . . لكن هاتفي المحمول ليس معي الآن . . مسجل عليه رقم الأستاذ حمدي جارنا .
ابتسمت حياة فقد عرفتها بمجرد ذكر اسم الأستاذ حمدي : أنتِ ملاك . . الفتاة التي جاءت من لبنان صحيح ؟! .
ملاك : نعم . . كيف تعرفين ذلك ؟! .
ابتسمت حياة : حسناً يا ملاك . . نحن سكان عمارة واحدة في الحقيقة . . أنا حياة خطيبة راغب ابن الأستاذ حمدي .
ابتسمت ملاك وشعرت بالأهلية أخيراً : حقاً ! . . اعذريني فأنا لا. . . .

حياة : حسناً لا تعتذري لشيء . . سررت بمعرفتكِ . . لنعد إلي مساكننا الآن أولاً .
وصلت الفتاتان إلي شقة حياة فطلبت من ملاك الدخول . . « اعتذر لا استطيع فقد تركت أمي بمفردها » .
حياة : في الحقيقة كنا سنأتي مع الخالة ميرفت لزيارتكما ولكن أمي كانت تمر بوعكة صحية منذ أيام . . هل تمانعين إن أتينا لزيارتكما ؟! .
ابتسمت ملاك قائلة : لا أبداً بل أود ذلك كثيراً . . عافاها الله . . سأنتظركم إن شاء الله . . إلي اللقاء .
ثم صعدت الطابق العلوي إلي حيث شقتها .

*****

في اليوم التالي ذهبت ميرفت إلي صفاء لتطمئن عليها وتحدثا قليلاً.
ميرفت : هل أصبحتِ بخير الآن ؟! .
صفاء : نعم . . الحمد لله . . هل ذهبتِ لرؤية الفتاة ؟! .
ميرفت : نعم . . إن أمها عافاها الله جالسة علي كرسي متحرك لا تتحرك خطوة إلا به . . عافانا الله جميعاً .
صفاء : لا حول ولا قوة إلا بالله . . شفاها الله وعفا عنها .
حياة : يا الله ! . . رأيت ابنتها البارحة في الشارع كانت تشتري خضاراً وتعرفت إليها . . أخبرتها أننا سنذهب جميعاً لزيارتهم

فور تعافي أمي .
ميرفت : حقاً ! . . هل عرفت تذهب وحدها ؟! .
حياة : نعم . . حاولت وأوصلتها معي أيضاً .
صفاء : خيراً فعلتِ يا ابنتي . . هل ستأتي معنا اليوم لزيارتهم ؟!.
حياة : نعم . . جلبت لها هدية أتمنى أن تعجبها .
ميرفت : سترينها اليوم يا صفاء . . أقول لكِ سبحان الله علي هذا الشبه بينكِ وبينها . . إنكِ تشبهينها أكثر من ابنتها حتى .
صفاء : حقاً ! . . ما اسمها ؟! .
ميرفت : حسناء . .
صفاء : اسم جميل . . حسناً سأجهز ونذهب .

*****

اجتمع حمدي مع ابنه راغب في الشرفة يشربان الشاي سوياً وعلي راحتهما بعيداً عن النساء وأحاديثهم . . » إذاً يا بني كيف حال عملك الجديد ؟! « . .
راغب : الحمد لله يا أبي . . أحاول أن أتكيف كما تعلم أن عملنا صعب . . إنه يوم الجمعة الآن فمن يأبه لسيرة العمل ! .
ضحك الأب قائلاً : » معك حق « . . نظر ناحية شرفة حياة ثم أكمل كلامه » كنا نبحلق في شرفة واحدة فالآن سنبحلق في شرفتين « .
ابتسم راغب قائلاً : هل تقصد صديقة عمران يا أبي ؟! . . هل

هي صديقته فقط ؟! .
ابتسم حمدي : ربما أكثر من صداقة يا بني . . لقد لمح لي عمران باهتمامه بها ولكن الأمر متوقف علي ميرفت الآن . . أتمني أن يتم كل شيء كما يريد ولديّ الحبيبان .
ابتسم راغب قائلاً : أتمني ذلك يا أبي .

*****

دق الباب ففتحت الفتاة مرحبة بالضيوف الكرام . . سعدت لرؤيتكن كثيراً . . تفضلن بالدخول . . أهلاً يا خالتي ميرفت .
ميرفت : أهلاً بكِ يا عزيزتي . . هذه خالتكِ صفاء أم حياة . . وهذه حياة خطيبة ابني راغب .
ملاك : نعم تعرفت إليها البارحة . . فرصة سعيدة .
قالت حياة مبتسمة : هذه هدية صغيرة . . أرجو أن يعجبكِ ذوقي .
ملاك : شكراً لكِ ولذوقكِ سيعجبني بالتأكيد .
ميرفت : أين والدتكِ يا عزيزتي ؟ . . نريد أن نسلم عليها .
ملاك : حسناً يا خالتي سأبلغها حالاً .
همست ميرفت في أذن صفاء : ما رأيكِ بالفتاة ؟! .
ابتسمت صفاء : إنها جميلة ومهذبة ما شاء الله .
خرجت ملاك بوالدتها فقامت ميرفت تسلم عليها وتستقبلها ثم غمزت لصفاء التي كانت تشرب الماء ومازال الكوب في يدها . .

فجأة سقط الكوب من يدها علي الأرض وتحطم حينما نظرت لوالدة ملاك في دهشة كبيرة .
صعقت والدة ملاك لما حدث للتو ولم تنطق بكلمة واحدة . . وكأنها قد عادت للصمت من جديد . . تعجب الكل لنظراتهما لبعضهما ولم يفهما شيء إلا بعد أن نطقت صفاء منادية باسم »حياة» . . أجابت حياة نداء والدتها » نعم يا أمي ! » . . بينما قالت لها ميرفت » بل تقصدين حسناء ! » .
خيّم السكون علي المكان حتى قالت حياة : حصل خير . . سأنظفها . .
اقتربت صفاء من والدة الفتاة وقد انهمر الدمع من عينيها وكأنها تريد التحقق منها . . » نعم إنكِ حياة . . أختي حياة » . . فبكت حسناء هي الأخرى بشدة وقفزت من الكرسي المتحرك لاحتضان أختها التي التقطتها قبل وقوعها للأرض .
نظر الجميع في اندهاش وصدمة مما يحدث ولم يتفوهوا بأي كلمة لدقائق . . حتى أن ميرفت قد جلست في مكانها تشاهد ما يحدث في صمت .
» صفاء . . أختي صفاء ». .
» نعم يا أختي . . إنكِ هنا ! . . أين اختفيتِ ؟! . . ماذا حدث لكِ ؟! . . ثم تبادلا الأحضان والبكاء الحار وأصبحت كل منهما تجفف دموع الأخرى .

قالت حياة في اندهاش : خالتي حياة ؟! . . هل هي خالتي حياة التي حكيتِ لي عنها يا أمي ؟! .
قالت صفاء في دموعها المنهمرة : نعم يا عزيزتي . . إنها خالتكِ التي أسميتكِ علي اسمها .
لامست أم ملاك خد الفتاة بيدها : حياة . . ابنتكِ . . ما شاء الله يا عزيزتي . . انظري . . إنها ملاك ابنتي . . تعالي يا ملاك ... إنها خالتكِ صفاء وابنتها حياة .
جلست ملاك بجانبهم علي الأرض تحاول استيعاب ما يحدث . . أين كنتِ يا حياة ؟! . . وما الذي حدث لكِ ؟! . . أين زوجكِ خالد ؟! .
أخيراً تنبهت أم ملاك لوجود أم عمران التي لا يجب أن تسمع قصتها كاملة حتى لا ترفض ابنتها ملاك زوجة لعمران بعد ذلك .
. أشارت لهم بمساعدتها وإعادتها علي الكرسي . . حينها أخذت تحكي وتقص عليهم ما جري .
قصت أم ملاك قصتها ولكن اقتطعت منها الكثير والكثير حفاظاً علي ابنتها . . لم تخبرهم بأنها ابنتها بالتبني . . لم تخبرهم بما كانت تعمل في لبنان ولا ما عملته ابنتها بعد ذلك . . فقط أخبرتهم أنها تزوجت من » خالد » رحمه الله . . وبعد وفاته تعرفت علي نصار اللبناني وسافرت معه هي وابنتها إلي لبنان وعاشوا هناك معاً إلي أن وافته المنية هو الآخر . . فقرروا ترك

لبنان والمجيء إلي هنا بعدما نصحهما عمران بذلك .
أم ملاك : اعذريني يا ابنتي أنني لم أخبركِ عن خالتكِ قبلاً .
أشارت ملاك بأنه لا بأس .
أما ميرفت فقد تكلمت أخيراً : عجباً لهذه القصة . . لا أصدق ما أسمع . . في البداية أعرف صفاء وحكايتها المؤسفة وبعد ذلك أعرفكِ يا حياة وبقصتكِ المؤلمة أيضاً . . لا عجب أنكما أختين . . لديكما نفس الحظ العاثر علي أي حال . . الحمد لله أنه جمع شملكما بعد طول غياب . . وجعل الصحبة بين هاتين الفتاتين . . واحدة مثل زهرة الياسمين والأخرى مثل زهرة الفل . .
قالت أم ملاك : شكراً لكِ يا أم عمران . . أدام الله لكِ زوجكِ وأبنيكِ اللذان مثل الورد حفظهم الله لكِ . . سررت بالتعرف بكِ وبولديكِ المهذبين . .

*****

رحلت ميرفت إلي بيتها . . قصت ما رأت علي حمدي وراغب واللذان صدما لسماعهما بالأمر . . فكر حمدي كيف سيخبر عمران بذلك . . علي أي حال لن يغير من موقفه شيء تجاه الفتاة ووالدتها . . بالعكس أصبح لديهما عائلة الآن .
جلست كل من ملاك وحياة مع بعضهما . . شاكرين الله علي تجمعهما هذا . . فبالنسبة لملاك لم تعرف الصحبة يوماً . . أما حياة فأخيراً قد حظيت بأخت تفضفض لها وتتحدث معها .

ملاك : إذاً أنا أكبر منكِ بعام .
حياة : نعم . . ماذا درستِ ؟! .
بدا الضيق علي ملاك : لم أكمل دراستي . . امتنعت عن المدرسة بعد حادثة أمي لأقوم بخدمتها وأرعاها . . لكنِ أقرأ كثيراً وأحب الكتب .
حياة : لعله كان الخير لكِ ولها . . استمرِ علي تطوير نفسكِ والقراءة دائماً .
ملاك : وأنتِ ؟! .
حياة : درست في كلية الهندسة مثل راغب . . لكنه أكبر مني بعام . . إنه في مثل سنكِ تقريباً . . أما الآن فقد تخرجت وأصبحت معيدة في الجامعة .
ابتسمت ملاك تهنئها : حقاً ! . . مبارك لكِ . . بالتفوق والنجاح دائماً .
حياة : جلبت لكِ هدية أتمنى أن تعجبكِ . . هذان فستانان أحببتهما كثيراً وتخيلتكِ فيهما . . أتمني أن يعجبكِ ذوقي .
فرحت ملاك بالهدية كثيراً . . إنها هدية جميلة . . لقد أحببتها حقاً . . سأجربها .
نظرت كل من الأختين للفتاتين شاكرين الله علي هذه الصحبة بينهما وعلي جمع شمل هاتين الأختين بعد طول فراق .
صفاء : حياة . . لماذا غيرت اسمكِ لحسناء يا أختي ؟! .

ترددت حياة في الإجابة : إنه اسم اختاره لي زوجي . . عندما كان يتغزل بي .
صفاء : تقصدين خالد ؟! . . كيف مات ومتى ؟! .
حياة : بعد ولادة ملاك بثلاثة أعوام تقريباً . . أصيب في عمله رحمة الله عليه .
صفاء : رحمة الله عليه . . مسكينة يا ملاك . . وما كان اسم زوجك الآخر ؟!
حياة : نصار . . هو الذي أطلق عليّ اسم حسناء حتى نسيت اسمي الحقيقي .
ضحكت صفاء قائلة : معه كل الحق . . ولكن كيف مات هو الآخر ؟! .
حياة : انزلقت قدمه ووقع من فوق أحد التلال في لبنان .
صفاء : لا حول ولا قوة إلا بالله . . رحمه الله وعفا عنه . . لا تحزني يا عزيزتي فإن الله إذا أحب عبداً ابتلاه وأعلم أنه سيعوضكِ في ابنتكِ الجميلة ملاك حفظها الله لكِ .
حياة : » إنها أول من يترحم عليك يا نصار . . مع أنك لا تستحق هذه الرحمة أبداً «. . هكذا قالت حياة في نفسها ثم توجهت بالكلام لأختها » اخبريني ماذا حدث معكِ في خلال تلك السنوات وكيف وصلتِ إلي هنا ؟! « .

*****

ارتدت ملاك الفستان وكان جميلاً جداً مناسباً لها تماماً . . ثم وضعت وشاحها كما تضعه دائماً فوقفت حياة بجانبها تعلمها كيف تلف الوشاح حتى لا يظهر شيئاً من شعرها . . هكذا يكون الوشاح يا عزيزتي . . أصبحتِ هكذا ملاكاً بمعني الكلمة .
بدت ملاك في غاية الجمال . . أبرز الحجاب جمالها الداخلي أكثر من الخارجي . . بالتأكيد سيسر عمران بهذا كثيراً حينما يراه . . كم أتمني عودتك يا عمران . . أصبح لديّ عائلة الآن . . كان لديك كل الحق في أن أتقبل أمي . . لولاها لما كان لي هذه العائلة الآن .

*****

مرّت الأيام وأقترب مجيء شهر مارس . . وبدأت العائلة تجهز لقدوم عمران بعد سفره الطويل . . كما أخبر حمدي ابنه عمران بما حدث وقد سعد كثيراً بذلك . . أصبح لديّ ملاك عائلة الآن . . الحمد لله علي ذلك . .
قال عمران ضاحكاً لأمه علي الهاتف : أمي . . كيف وجدتِ الفتاة إذاً؟! . .
ضحكت ميرفت تعرف نواياه : علمت من أول ما رأيت اللمعة في عينيها حينما ذكرت اسمك أمامها . . إذاً جلبتها من بلدها إلينا أيها الماكر ؟! .
ضحك عمران قائلاً : نعم يا أمي وهل تحسبين ابنكِ سهلاً ! . .

هل تستعدين لتقبل عروس جديدة إذاً ؟! .
قالت ميرفت في نبرة الرضا عما قاله : فلتأتِ أولاً لترَ العروس في زيها الجديد يا بني .
عمران : ماذا تقصدين يا أمي ؟! .
ضحكت ميرفت حتى لا تخيفه : لا تقلق كنت أمزح معك . . فلتأتِ سالماً يا بني .

*****

إنه أول أيام شهر مارس الهنيئة . . اليوم الذي سيأتي فيه عمران ويعم الفرح علي الجميع بحضوره . . جهزت ميرفت لكل شيء . . ذهب حمدي وراغب لإحضاره . . لقد كان لقاءً حاراً بينهم . . بين الأب وابنه وبين الأخ الأكبر والأصغر وكذلك بين الصديق الحليم الذي التقي بوالده أيضاً وذهب معه للقاء والدته وأختيه الصغيرتين .

*****

في منزل حمدي . . عاد الفرح بعودة عمران . . ارتمي في أحضان والدته فرحاً بما رسمه له القدر من دروب جميلة كما لوحاته . . لقد حقق نجاحاً باهراً هو وصديقه علي المستوي المهني والفني وأيضاً المادي . . مما جعلهما يفكران أخيراً في الزواج بعد هذا النجاح المنقطع النظير الذي يحدد مستقبلهما أمامهما . . لاقت

لوحاته إقبالاً شديداً وذاع صيته خارج البلاد . . تُرجِمَ كتابه الذي كان يستهدف قصة فتاته وأيضاً لوحته المعجزة التي رسمها لها واختارها كغلاف لهذا الكتاب . . إنها نفس اللوحة التي اكتشف أمرها حليم وخديجة في الجبال . . لاقي الكتاب نجاحاً باهراً في الدولة الأجنبية كما كان علي ثقة أنه سيلقي نجاحاً أكبر في بلاده إن شاء الله . .

*****

انتفض قلب ملاك حينما سمعت صوت الزغاريد آتية من بيت عمران . . علمت أنه جاء بسلام . . جرت إلي والدتها واحتضنتها بشدة من الفرح وانتظرت قدومه علي أحر من الجمر . . حتماً سيأتي .

*****

دق بابها أخيراً . . فتحت بلهفة كبيرة وشوق لا حد لهما . . لكنها لم تجد أحداً . . قبل أن تقفل الباب ثانية وجدت ورقة علي الأرض فقامت بفتحها . . » سأجعل بيتي بدون نوافذ حتى لا تهربين مني أيتها الهاربة » . . تهللت أساريرها لما قرأت وعلمت أنه هو فنزل دمعها دون أن تشعر . . ظهر لها من داخل المصعد فجرت عليه واحتضن كل منهما الآخر بشدة دون أن يشعرا . . قالت هامسة في أذنه » من قال لك أني أريد الهرب من بيتك ! »

. . نظر إليها ومازالت في حضنه » اشتقت إليكِ كثيراً يا نهاري . . ما هذه الدموع الآن ! » . .
» إنها ولأول مرة دموع الفرح يا عمران » . . قال عمران : » إنه ثانِ حضن بيننا . . أتذكرينه يا نهار ؟! » . . أجابته الفتاة قائلة » كان الأول مليء بالخوف والحزن ودموع من شدة الألم . . أما الآن فهو حضن آمن مليء بالسعادة ودموع الفرح التي أتمنى ألا تنتهي أبداً » . . قال عمران : » نعم يا عزيزتي . . أين المنشفة ؟! . . هل أحضرتها من لبنان ؟! » . . نجح عمران في إضحاك فتاته بهذه الجملة فقد كان متعمداً حتى لا تسيطر عليها الذكريات المؤلمة ولا أحاسيسها التي مضت .
نسي بأنهما علي الباب ومن الممكن أن يلتقطهما أحد . . فدخلا إلي والدتها . .
كانت أول مرة يلتقيان فيها . . سلم عليها . . كيف حالكِ ؟! . .
ابتسمت حياة قائلة : أصبحت بخير أكثر حينما رأيتك يا بني . . إنك أجمل مما تخيلتك .
نظر عمران لملاك قائلاً في مزح : هل تغازلني الآن ؟! .
ضحك كل منهم لما قاله عمران وأخيراً قد جاء هذا اليوم بسلام .
عمران : إن أمي تدعوكما لتناول الغداء معنا اليوم بمناسبة وصولي . . أرجو أن تلبيا دعوتنا .
قالت حياة في خجل : كنت أتمنى ذلك ولكن يا بني . . كيف

سآتي؟! . . خذ ملاك .
قال عمران : وكيف لا تأتين ؟! . . لا اعتراض علي أقوال أمي أبداً . . فقط استعدا وناديانى . . هيا الآن .
دخلت الفتاة وأمها تستعدان فجهزت أمها أولاً وأخرجتها لتجلس مع عمران ثم دخلت لتجهز هي الأخرى .
خرجت الفتاة لأول مرة أمام عمران بالفستان الطويل والحجاب فوقف من مكانه . . » ما هذا الجمال يا الله . . لقد هلكت يا عمران ! . . صدق من سماكِ ملاك » . .
شعرت ملاك بالخجل الشديد وابتسمت ابتسامتها الجميلة فور سماعها لكلامه ثم أكمل كلامه : »هذا ما كانت تقصده أمي إذاً؟! . . في زيها الجديد ! . . إنه أحلي زى علي الإطلاق . . بل إنها أجمل أمنية لم تخطر علي بالي حتى . . فالحمد لله أنها قد خطرت ببالكِ » . . ثم أكمل كلماته بعدما اقترب منها قليلاً » قلت لكِ أني أقبلكِ بكل ما فيكِ يا نهار . . لكنك تبهريني في كل مرة أكثر وأكثر . . فهل تقبلين أنتِ بي كما أنا ؟! » . .
احمرت الفتاة خجلاً ولم تستطع الإجابة ولكنها حركت رأسها بالإيجاب وكانت ابتسامتها كافية للإجابة . . ثم قالت له » هيا سنتأخر علي والدتك » . .

*****

كان أفضل غداء يمكن أن يحظي المرء به طوال حياته . . جلس

حمدي علي الكرسي الرئيسي للسفرة وجلست في مقابله في الكرسي الرئيسي الآخر زوجته ميرفت . . علي يمين حمدي جلس ابنه الأكبر عمران وبجانبه ملاك وبجانبها والدتها حياة . . أما علي يسار حمدي جلس ابنه الأصغر راغب وبجانبه فتاته حياة وبجانبها والدتها صفاء . . بحيث كانت الوالدتان علي يمين ويسار ميرفت . . وقبل تناول الطعام قال حمدي كلماته التي لا تنسي بالاتفاق مسبقاً مع زوجته ميرفت .

» إن نعم الله علينا لا تعد ولا تحصي ومن بينها هذه الجمعة التي لَمّ الله بها شملنا . . وبهذه المناسبة السعيدة فلتسمح كل من والدة حياة ووالدة ملاك لي ولزوجتي بأن نتقدم لطلب ابنتكما ملاك لابني الأكبر عمران . . وابنتكما حياة لابني الأصغر راغب . . وأتمنى أن يوافق الجميع علي هذا الأمر « . .

ابتسم الجميع لبعضهم البعض بما يوحي بالموافقة . . أمسك حمدي بيد ابنه عمران وابنه راغب . . أمسكت كل من الأم حياة بيد ابنتها ملاك والأم صفاء بيد ابنتها حياة . . أمسكت الوالدتان بيدي ميرفت . . أمسك عمران بيد حبيبته ملاك . . أمسك راغب بيد حبيبته حياة . . ترابطت جميع الأيدي وكذلك القلوب . . كانت لحظة لا تنسي من التماسك والحب وكل شيء جميل . . سألوا الله أن يديم عليهم هذه النعمة . . ثم بدءوا بتناول طعامهم بحب وسلام . . كعائلة واحدة .

*****

اتفقت العائلات الثلاث علي إقامة حفل الزفاف في أغسطس القادم . . علي أن يكون في اليوم الثامن من أغسطس . . ذلك اليوم الذي يمثل لراغب عيد ميلاد حياة . . بينما يمثل لعمران أجمل يوم مع نهار في أغسطس . . نهار أو ملاك فما اختارت إلا أجمل اسمين يعبران عنها .

*****

انقضي شهر ابريل هو الآخر . . رتبت صفاء أمر معيشة أختها معها في شقتها فور زواج الفتاتان حتى ترعاها جيداً وتؤنس كل منهما الأخرى وتعوضان ما فاتهما في فراقهما . . بينما جهز عمران وراغب أمر بيت الزوجية لكل منهما في عمارة جديدة بجانب عمارة والديهما . . كان كل من ميرفت و حمدي يضعان نظرهما علي هاتين الشقتين ليتزوج فيهما ولديهما يوماً ما وقد تحققت رؤيتهما أخيراً . . استعدا الرجلان مع الفتاتين لتجهيز واختيار كل شيء يلزمهم . .

أما عن حليم فقد أخبر والديه بأمر فتاة الجبال وطلب من حمزة أن يجهزوا كل شيء استعداداً للزواج مباشرة . . علي أن يذهب إلي هناك بعد الانتهاء من زفاف صديقيهما .

لم ينقطع اتصاله بحمزة ولا بالسؤال عن حبيبته . . أخبر حمزة

بكل ما وصل إليه في رحلته . . طمأنه علي صديقه المجنون الذي سيدخل قفص الزوجية قريباً فربما يعقل قليلاً . . طمأنه علي الفتاة وما وصلت إليه هنا من بر الأمان والمحبة . . وأطمأن منه علي رابح وأن الأحوال مستقرة في بلدتهم .

حليم : كيف حالكِ يا خديجة ؟! .

ابتسمت خديجة كأنه أمامها : بخير يا حليم . . كيف حالك أنت؟! .

حليم : بخير تماماً حينما سمعت صوتكِ . . وأخيراً قد تكرم أخوكِ عليّ بأن أسمع صوتكِ .

قالت خديجة باسمة : نعم . . وقد تكرّم عليّ أيضاً بذلك .

تفاجأ حليم فقال : ماذا قلت للتو ؟! .

خجلت خديجة وحاولت المراوغة قائلة : أقول أن الخراف هنا لا تجد المتعة في تجولها بدونك . . لا تجد من يصورها ويهتم بها كما كنت تفعل يا حليم .

حليم : أخبريها أني سآتي قريباً إن شاء الله . . ولكن هذه المرة ليس من أجل الخراف . . سأكون منشغلاً بأميرة لبنان لآخذها إلي بلاد أميرها حليم .

*****

انقضت الشهور الأخرى علي خير ما يرام من ودٍ وضحكات وأنس وفرح . . جاء موعد أغسطس (٢٠١٨) المنتظر . . جهزت العائلة

لحفل الزفاف السعيد . . كذلك انقضت أولي أيام الشهر السعيد بسرعة قصوى حتى جاء الثامن من أغسطس بسلام . .

*****

جاء الحضور جميعهم . . بدا المكان في غاية الجمال والأبهة . . إنه زفاف الأخوان عمران وراغب معاً . . وكأنهما يعوضان أمهما عما انتظرته من فرح .

بدأ عزف الموسيقي استعداداً لدخول العريسان والعروسان . . وقفت العروسان المحجبتان علي السلم العالي المزين بالورود البيضاء والأنوار علي كلا الجانبين . . وقف العريسان خلفهما . . نظر إليهم الجميع في فرح وسرور وتهنئة حارة . . الأخت الصغرى تقف خلف الأخت الكبرى ممسكة بكرسيها المتحرك واضعة يديها علي كتفيها . . الأب حمدي والأم ميرفت بجانب بعضهما البعض ينظران لطفليهما الكبيرين . . حليم مع والديه وأختيه البالغتين من العمر السابعة عشرة عاماً والثامنة عشرة عاماً . . وبقية الحضور من الأقارب والزملاء والجيران والأحباب . .

نظر الأربعة طيور المتأنقة لبعضهم البعض في فرح وسرور وتهنئة . . فتاتان متجملتان كأقمار تنير سواد الليل الذي تزين به الشابان مستعدون جميعهم لتحقيق آمال كل صباح . . ثم تعلقت عين عمران بكل واحدٍ من الحضور موجهاً بعينيه خطابه الباقي لكل

منهم ذاكراً فيه ما تركه من أثر في مواقف عديدة باقية في النفس للأبد . . إنها الرسائل التي تبقي أبد الدهور . .
نظر لوالده المبتسم ودمع الفرح في عينيه تكشفه أضواء المكان فتذكر مساندته له في غربته . . وجوده معه بالحب والخوف قبل الكيان . . تدبيره معه للخطط حتى وصلوا جميعاً لهذه اللحظة . . » أبي . . مُعلمي الأول وقائدي وسند الدروب . . زارع نبتة الرحلة فينا بكل ما فيها من أمل وإصرار . . أوصلت رسالتك إلينا خير موصل يا أبي . . وستوصلها معنا لأحفادك إن شاء الله . . دمت لنا ذخراً وشرفاً ينير جبيننا واسماً نقتدي به » .

*****

نظر لوالدته التي وضعت يدها علي قلبها من أثر فرحتها . . كأنها تحدث نفسها بكلمات رنانة »كانا صغيرين بالأمس وأصبحا اليوم تاجين أتزين وأتباهى بهما أمام هذا الجمع الكبير . . الحمد والشكر لك يا الله علي ما أنعمت عليّ » . .
» أمي . . صاحبة القلب الذي نال من التعب أقصاه حتى يريح قلوبنا نحن . . صاحبة التحدي الأول في قصة حب أبي وكفاحه . . أول امرأة في حياتنا فتختار لنا خير النساء لمشاركتنا تحديات العالم . . دمتِ لنا بقلب لا تنفذ عافيته ولا حبه أبداً » .

*****

نظر لصديقه الحليم كما اسمه . . البشوش والنظيف قلباً وروحاً . . تذكر كل لحظة كانت معه منذ لقاءهما في الجامعة وكفاحهما سوياً . . رحلتهما إلي لبنان وإصراره علي عدم العودة إلا مع صديقه المجنون كما ذهبا . . » حليم . . أخي الذي لم تلده أمي . . رفيق الدرب وراعي الود وشريكي في كل خيبة ونجاح . . لولا كتفك الذي أسندتني عليه في آخر ساعات لنا في لبنان لما كنت هنا تحتفل بي الآن يا صديقي . . إنه عقلك وتمهلك الذي كان يدفعني للجنون دائماً لأنك موجود توقفني . . سأفتقد طهيك الذي تعودت عليه أكثر من طهي أمي . . فقد بقيت معك أكثر من بقائي في منزلنا . . لا تفرح فيّ هكذا فنحن السابقون وأنت اللاحق يا رفيقي . . سنعود سوياً مرة أخري لجلب عروسك يا حليم وسأكون أنا كتفك الذي تستند عليه حينما تقع فور رؤيتها عروس كما كانت تنقذك من سقوطك في الجبال من أثر دهشتك وإعجابك ببلادها . . لنبق جنباً إلي جنب دائماً كلما اشتدت بنا رحلاتنا أو عاندتنا أحلامنا يا صديقي » .

*****

نظر لأخيه راغب المقاتل والوافي بوعده لرفيقة طفولته وتذكرهما سوياً من صغرهما إلي الآن . . » أخي الصغير ذو الحب الكبير الذي لن يتكرر . . صادق الوعد الذي لا يتخلي . . إنها لك يا أخي ولم تكن إلا لك أنت . . إن عاد الزمان بنا سأفعل ما فعلته

ثانية حتى أري هذه السعادة في عينيكما الآن . . قاتل دائماً من أجلها وحافظ علي قلبها الصادق الذي لا يختلف عن قلبك أنت . . دمت بها راغباً يا أخي » .

*****

نظر للمعة عين حياة حينما تنظر لأخيه . . » أختي الصغيرة وزوجة أخي . . إنها أجمل صفة قد تدخل بها إلي عالمنا الآن . . أعادت لأمي قلبها الطيب . . بل شاء الله أن يضيف إلينا اسماً آخر كاسمها حتى تكتمل سعادتنا جميعاً . . جعلكِ الله خير حياة لأخي يا حياة » .

*****

توجه بنظره للأختين الجميلتين وسعد بابتساماتهما ودموع فرحهما المنهمرة فتمسح كل منهما دموع الأخرى بيدها . . » شاء الله جمعكما بعد طول غياب حتى يجمع كل نصف منا بنصفه الآخر فتتولي كل منكما رعاية الأخرى وتؤنسها . . فليعوضكما الله عن كل ما فات من حزن وفقد وليجعلنا لكما سبباً دائماً في السعادة . . وكم لله من لطف خفي » .

*****

وأخيراً وخير الخواتيم زوجتي . . نظر لها بكل الحب وبادلته النظر الجميل والابتسام الخجول فتذكرا كل شيء حينما أمسك

بيدها ليعطيها قطعة الفضة الخاصة بها . . كانت معه منذ أول مرة حاول الاقتراب فيها منها فهرولت . . إنها لكِ الآن وصاحبتها لي . . ابتسمت الفتاة كثيراً وأضاء وجهها الجميل أكثر وأكثر حينما أمسك بيدها ووضعها فيها . . لم تضع منها ولم تضع هي من عمران . .

» زوجتي الملاك الذي لم يخطئ والدها في تسميتها . . النهار لكل عتمة خيمت علي عقلي وقلبي يوماً . . قد كان خير موعدٍ لنا لبنان . . الصدفة التي أخبرتكِ أنها أقدار لابد لها من الحدوث . . بل لقاءك الذي غير كل شيء . . حتى أغسطس الثقيل علي القلب طارت أيامه تِباعاً ولم يعد مثلما كان . . بل أصبح أفضل شهر من كل عام . . شهر ذكرانا وموعدنا . . لقاءنا وفراقنا ثم لقاءنا الذي لن يعقبه أي فراق إن شاء الله . . قبلت بكِ زوجة منذ الوهلة الأولي وإن تظاهرت بغير ذلك فاصفحِ عني وأمحِ كل ذنبٍ كان قبلكِ كما تمحو الملائكة الذنوب بعد الاستغفار عنها . . لنكتب الآن أقداراً جديدة بخطي آمنة وابتسامات من صميم القلوب يا ملاكي ونهاري » . .

*****

أمسك كل منهما بيد عروسه ونظروا للحضور المستقبل لفرحتهم خير استقبال . . وكأنهم يوجهون بكونهم معاً رسالة للعالم أجمع وليس حضور الحفل فحسب . .

»لكل منا طريقته في العيش . . البعض يختار الطريق الأسهل فلا يستمتع به . . والبعض الآخر يختار الطريق الأصعب فيظلم نفسه فيه . . وما بين هذا وذاك من يبحثون عن الطريق لآخر عمرهم . . فلا يعيشون شيئاً . . إن وجودنا في الأرض لسبب وحكمة . . نقتفي آثار من سبقونا . . ونترك آثارنا لمن سيلحقون بنا . . لابد وأن يكون أثراً طيباً . . لا يهم كم يجب أن يكون عظيماً . . المهم أن يأخذ جزءً لا يُمحي من القلب حتى وإن تم محوه من الذاكرة . . حتى تبقي سيّرنا لآخر جيل في الأرض . . ولكل أحياء السماء » . .

» عيشوا الحياة كما تحبون وليس كما يحبها غيركم . . اعملوا بجدٍ واستمتعوا بكل دقيقة في أعماركم حتى لا تأتوا في آخر دقيقة قبل الموت وتندمون علي ما لم تفعلوه في بعض الدقائق الفائتة » . .

» ابحثوا عن ذلك الشيء الذي يغير كل شيء . . وليس العكس . . ابحثوا عن نقطة التحول التي سترون عندها أنه » حتى أغسطس لم يعد مثلما كان »

تم بحمد الله وتوفيقه

الكاتبة / سالي سامي

مسار
للنشر و التوزيع
Massar publishing & Distribution

01020439639